ثقافة المقهورين

الدكتور
سعيد إسماعيل على
أستاذ أصول التربية - جامعة عين شمس

عالم الكتب

على ، سعيد إسماعيل .
ثقافة المقهورين / سعيد إسماعيل على . - ط ١ . - القاهرة :
مكتبة عالم الكتب ، (٢٠٠٨) .
٣٠٤ ص ؛ ١٧× ٢٤ سم
رقم الإيداع : ١٦٧٢٦ / ٢٠٠٨
تدمك : 3- 649- 232 - 977 تصنيف ديوى ٣٠١,٢٤
المطبعة : أبناء وهبة محمد حسان
١ - الثقافة العربية ـ مقالات ومحاضرات
أ- العنوان

عالم الكتب
نشر ، توزيع ، طباعة
الإدارة :
١٦ شارع جواد حسنى - القاهرة
تليفون : ٢٣٩٢٤٦٢٦
فاكس : ٠٠٢٠٢٢٣٩٣٩٠٢٧
المكتبة :
٣٨ ش عبد الخالق ثروت ـ القاهرة
تليفون : ٢٣٩٢٦٤٠١ - ٢٣٩٥٩٥٢٤
ص.ب : ٦٦ محمد فريد
الرمز البريدى : ١١٥١٨

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م

رقم الايداع ١٦٧٢٦ / ٢٠٠٨
ISBN: 977-232 - 649 -3

مطبعة أبناء وهبه حسان
٢٤١ (أ) ش الجيش - القاهرة
تليفون : ٢٥٩٢٥٥٤٠
E-mail : hassaanpress@hotmail.com

الموقع على الإنترنت : www.alamalkotob.com
البريد الإلكترونى : info@alamalkotob.com

E-mail : hassaanpress@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــــــة

بينما يشهد العالم أجمع خطوات متسارعة تقفز بالبشرية إلى أمام ، بفعل صور لا حصر لها من التقدم على مستويات شتى ، لا يخطئ مراقب في ملاحظة أن العكس ، على وجه التقريب يحدث فى عالمنا العربى عامة ..

ربما نشهد صورا متعددة من العيش الوفير والاستهلاك الغزير لعدد من المنجزات التقنية الحضارية الحديثة ، وارتفاعا فى مستوى الدخل ، لكن هذا فى غالب الأحوال مما يحدث فى الدول النفطية ، نتيجة ما هو معروف من الارتفاعات المذهلة فى أسعار النفط ، مما لابد أن ينعكس بدوره على مستويات المعيشة ، وصور الاستهلاك ، ومن ثم فليس هذا الدخل الوفير نتيجة تقدم فى الإنتاج ، مما يجعل من التقدم المرئى مثله مثل قشرة البيض ، تبدو صلبة ، لكنها تخفى وراءها غير ذلك .

إن التقدم ، كما يجمع الرأى الحضارى على وجه التقريب ، ليس فى مجرد سكنى القصور ، ولا لبس الغالى من الثياب ، ولا فى استخدام التقنيات الاستهلاكية الحديثة ، ولا فى ركوب أفخم السيارات ، ولا فى قيام المبانى الشاهقة ، وشق الطرق المريحة ، ووفود آلاف السياح ...وغير هذا وذاك من صور الترف فى العيش ، ولكنه فى مقدار ما تساهم به هذه الأمة أو تلك فى الإنتاج الحضارى .

والمساهمة فى الإنتاج الحضارى – فى تصورنا – لا يمكن أن تتم عن طريق إنسان مقهور !

وإذا كان من صور القهر ، ما هو مشهور ومعروف ، مثل الحجر على الرأى والسجن والتعذيب واحتكار السلطة ، وسيادة الرأى الواحد ، إلا أن هناك

صورا أخرى للقهر ، تتبدى لنا عندما نطرح تساؤلا مهما مؤداه : إلى أى مدى وعلى أى وجه تملك الأمة إراداتها ، فى الداخل وفى الخارج ؟

وهو يتبدى أيضا من خلال تساؤل عن مدى مساهمة المواطن العادى فى تقرير مصير بلده وأمته وصنع القرار ؟

لقد سبق لنا أن أسمينا ما قد نتصوره من " حرية " فى بعض البلدان العربية بأنها " حرية القطيع " ، لأنها تشبه ما نراه عندما يحرص الراعى أو المالك الحقيقى لمجموعة من الماشية على توفير المأكل والمشرب والدفء أو البرودة ، والمأوى ، والحماية ، والنظافة لمجموعة القطيع ، لكن هذه المجموعة لا تملك موقفا تستطيع أن تتخذه ، ومعروف ما مصير الماشية التى تتمرد ، على قلة احتمال ذلك !

إن قناعتنا التى لا نستطيع التزحزح عنها أن معظم إن لم يكن كل ما ترزح فيه بلداننا من مشكلات وصور تأخر ومظاهر تخلف وتخاذل إنما يكمن فى أن المواطن يعيش مناخ قهر لا ينتج إلا ثقافة مقهورين ، وتلك بدورها لا نتوقع منها خطوات ملموسة على طريق التقدم ٠

من هنا ، فنحن كتبنا – وسوف نظل نكتب طالما ما زالت أنفاسنا تتردد – منبهين على مظاهر القهر فى ثقافتنا ، على اعتبار أن ذلك خطوة لابد منها حتى نتغلب على هذا القهر ، ونعيش ، كما خلقنا الله عز وجل ، أحرارا ، فالمواطن الحر هو الذى يفكر بحرية ، والذى يفكر بحرية هو الذى يبدع ويتقدم ٠

ربما يرد البعض بأن هذه الكتابات التى نكتبها نحن وغيرنا تدحض ما ندعيه من سيادة ثقافة القهر ، ونرد أيضا بأنها " حرية تنفيس " ، فلقد توصل القاهرون إلى سياسة مؤداها أن الكبت الكامل يمكن أن ينتج انفجارا ، ومن ثم فقد لا يكون هناك بأس من ترك ثغرة فى جدار السجن الكبير للتنفيس وتفريغ

شحنات الغضب المكتوم ، فهذا من شأنه أن يريح أعصاب الكاتب أو المتحدث ، ويتصور أنه قد قام بما يجب عليه من نضال فيركن إلى الهدوء !

لكن السؤال الجوهرى حقا هو : إلى أى مدى تصل الكلمات الحرة إلى آذان صانعى القرار ومتخذيه ، وعلى أى وجه يعمل بها أو حتى ببعضها ؟

لقد شاعت مقولة تسخر من هذا فتقول على لسان أولى الأمر : دعهم يقولوا ما يريدون ، وسوف نفعل نحن ما نريد ! وتلك هى المأساة حقا ، فهذه المقولة ، فيما يبدو ، تتسق مع واقع الحال إلى حد كبير .

والكتاب الحالى الذى بين أيدينا ، هو مجموعة من المقالات والدراسات التى كتبناها على صفحات عدد من الصحف والمجلات ، قد تتعدد قضاياها ، وتتنوع موضوعاتها ، لكن القارئ لن يخطئ أبدا الخيط الجامع بينها ...ثقافة المقهورين ..!

نسأل المولى عز وجل أن يفتح بيننا وبين قومنا بالحق ، وأن يسدد على طريق الحق خطانا ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

المؤلف

مصر الجديدة فى ٢٩ /٣/ ٢٠٠٨

ثقافة الشارع*

مقدمة:

الشارع فى مصر له وضعه الخاص الذى يختلف كثيراً عنه فى معظم بلدان العالم ، صحيح أن الظروف لم تتح لى إلا زيارة ما يقرب من عشر بلدان عربية ومن البلدان الغربية إلا الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا، لكن ما أسمعه وأقرؤه عن غيرها يعزز هذا الذى نقول إلى حد كبير.

فالشارع أصلاً إنما هو أداة اتصال بين المناطق المختلفة وما مَن فيها من أبناء البشر، تمر به كثير من وسائل المواصلات البرية المختلفة والبشر ، لكنه فى مصر يقوم – بالإضافة إلى كل ذلك – بوظائف أخرى متعددة : فهو ، على سبيل المثال يقوم بأدوار كل من النادى والسوق التجارى ويمكن أن يعد كذلك مكان إقامة للبعض ، وأبرزهم " أطفال الشوارع " ، وغير هذا وذاك مما سوف نشير إليه فيما يلى من صفحات ، مما يرشحه لأن يكون وسيطا مربيا من نوع فريد حقاً.

صحيح أن الحس الشعبى العام قد أدرك هذه الحقيقة منذ زمن طويل، عبر عنها من خلال ذلك الوصف الذى يطلق على السلوك المتدنى لبعض الأولاد، يقول فيه : " تربية شوارع " قاصداً بذلك أن سلوكهم يشبه سلوك " اللقطاء" و " المشردين " الذين لا يعرفون لهم أهلاً فيستمدوا موجهاتهم السلوكية مما يخبروه فى الشارع.

---

* أخبار الأدب فى ١١/٣٠، ١٩٩٧/١٢/٧ ، لكن الدراسة خضعت لكثير من الإضافات وقت إعداد الكتاب الحالى ، أدت إلى زيادتها عن ضعفى حجمها الأصلى على وجه التقريب •

، لكننا نستطيع أن نقول أن مؤثرات الشارع المختلفة فى السنوات الأخيرة قد زادت واتسعت إلى حد كبير بحيث يمكن أن نرى فيه " مجمعا " لمؤثرات ثقافية لا تقتصر على فئه بعينها وإنما تنال الجميع بدرجة ما ، علت أو قلت ، بحيث لا يستطيع أحد أن يهرب منها إلا من رحمه ربى !

والثقافة التى نعنيها هنا هى بمعناها الأنثروبولوجى الذى يجعل منها " طريقة حياة " تتبدى فى العديد من الظواهر المادية وغير المادية. وإذا كانت هذه الظواهر من صنع الإنسان ، فهى تقوم بدورها من حيث التأثير فى سلوك الأجيال التالية وتوجيهه وتشكيل ما يحملونه من قيم ومفاهيم واتجاهات وميول ومهارات.

ولعلنا بعد هذا الايضاح نستطيع أن نسوق الأمثلة التالية لعناصر وقنوات وأدوات ثقافة الشارع.

المرور:

من أصدق المقولات التى سمعتها حقاً بهذا الخصوص أن حالة المرور فى الشارع تعكس إلى حد كبير مستوى السلوك الاجتماعى فى المجتمع ، صاحب هذا الشارع ، فالمسألة هنا لا نقصد بها جوانب المرور الفنية ، حيث أن هذا – على أهميته – يخرج عن دائرة اهتمامنا ، فضلا عن اختصاصنا ، وإنما من حيث هو تعبير دقيق وصريح عن سلوك فردى واجتماعى شائع .

فلا يكفى فى شوارعنا أن تكون هناك إشارة مرور حتى يكون هناك " التزام " بقواعد المرور وإنما لابد من " شرطة " ، بل إن وجود الشرطى لا يكفى كذلك إلا إذا كان ممسكا دفترا للمخالفات بيده، وإلا فإن البعض يتصرف كما يحلو له. كذلك فإن الأمر يتوقف على " وضع " المخالف نفسه ، فإن كان من الناس " العاديين " فمن الممكن أن يخضع للمحاسبة ، لكن هناك فئة من

الشرائح العليا فى الاقتصاد والإدارة والسياسة ، دائما ما يقف القانون عـاجزا عن محاسبتهم •

ولهذا دلالته المؤسفة ، حيث تعلن أن وجود " القانون " ليس هو المهم ، ومن ثم فهو لا يكتسب قدره من الاحترام والتقدير والقدرة على الإلزام ، وإنما لابد من وجود " شخصى " لمن يطبقه فرضا وجبرا ، وعـن طريـق سـلطة المعاقبة والإثابة ، وهى سمة تشير إلى مرحلـة تخلـف ، حيـث تكتـسب " الشخصنة " المرتبة المتقدمة ، وتختفى " الموضوعية " •

وإذا كان الشارع اتجاهاً واحداً، فلا غرابة أن تجد أحيانـاً بعـض مـن يسيرون بالعكس، أيضاً إذا لم يكن هناك شرطى بدفتر مخالفات ، دلالة علـى غلبة " الفردية " ، فالمهم هو ما يحقق رغبتى أنا ، مع أنه لو دقق جيدا لعـرف أن هذا يمكن أن يعطل هذه الرغبة ، بل ر بما تودى بحياته ، وهنا يبرز مظهر قصور آخر ، وهو " قصر النظر " ، والتفكير " الآنى " الذى لا يحسب حـسابا لاحتمالات أخرى متعددة يمكن أن تحدث !

ومن المشاهد المألوفة أن الشارع إذا كان ذا اتجاهين وتكدست السيارات فى أحدهما ، بحيث توقف المرور أو تباطأ، فلا مانع من أن ينتقل البعض إلى الاتجاه الآخر سائرا عكسه وإذا كان هناك فاصل بين الاتجاهين، فلا مانع أيضاً من الصعود بالسيارة عبره للانتقال إلى الاتجاه الآخر مما يعكس الموقف مـن قيمة مثل قيمة " النظام" .

ومن المعتاد إذا طال الانتظار أمام إشارة وتكدست السيارات ثم بدا السير بطيئا أن نرى سيارات تسرع من آخر طوابير الانتظار لتقذف بنفسها من اليمين وتسبق فى المرور تماما كما يحلو لبعض الناس أن يتسللوا من آخر الطـابور أمام أى مكان ليتقدموا الجميع، إيماناً بمقولة " أنا وبعدى الطوفان " و " الغش " و " استغفال " الآخرين .

وكل هذا مما يلحق بالتعليق السابق •

وهناك شباب من أبناء المترفين الذين ولدوا فوجدوا سيارة تحت يديهم ، لم يشقوا فى سبيل الحصول على ثمنها، ولا عانوا من طول سنوات حفلت بالحلم بالحصول عليها ، وكيفية تدبير ثمنها : نقدا أو بالتقسيط ، والبحث عنت " الأصغر " المناسب لمستوى الحال المالى أو " المايل " ، حيث أنها نفس الحروف ، وإن تغيرت حالة ترتيبها !!

وفضلا عن ذلك ، فمثل هؤلاء الشاب المترفين ، لا يشغل تفكيرهم ، ماذا يمكن أن يكون عليه الحال إذا حدث لها شئ، ذلك أن تعويضها سهل ميسور، هؤلاء يسيرون بسيارتهم بسرعة جنونية تعبيراً عن استهانتهم بكل قواعد وآداب وأخلاقيات المرور، والبركة فى " بابا وماما " الذين يفتحان جيوبهما لكبدهما الذى لا يمشى على الأرض ، ومن ثم إذا تأملت مسيرة هؤلاء الشباب بسياراتهم فى الشارع ، فلا مانع لو كانوا يمينا أن يجنحوا أمامك وبسرعة خاطفة شمالاً، وقد يتسابق أفراد مجموعات ليثبت أحدهم أنه أكثر براعة من زملائه، وقد لا يكون الواحد منهم قد وصل إلى السن التى تجيز له أن يحمل رخصة. إنها صورة من صور التمييز الاجتماعى والفوارق الطبقية صارخة زاعقة!

ويلاحظ السائر بسيارة وكأن " الشتم " من مستلزمات القيادة، فقط يخطئ الإنسان – سهوا– خطأ بسيطا ، فلا يجد غيره وقتا لمعرفة السبب فيبادر على الفور بإرسال قذائف الشتم والسب، وقد تتباطأ سيارة أو تقف لأسباب فنية فؤجئ بها سائقها، لكنه لابد أن يواجه نفس المصير دون التماس عذر ما .

إن هذا إنما يؤشر إلى أن صاحب السيارة يسير رافعا ذلك الشعار المعروف الذى لا يرى بأسا من أن تتهد الأرض ، فليس عليها أحد " قده " !!

يلبس لباس الزعيم المسيطر على أمر الجماعة ، لابد للجميع أن يوسعوا له الطريق ، ويجمدوا حركتهم ، حتى يتحقق له تحقيق غرضه الخاص وحده ، ولم لا ؟ ألا يفعل ذلك حكام هذا البلد ، فتتجمد حركة ألوف فى الشارع ، دون

حساب لأية خسائر وأوجاع وضياع مصالح خاصة بكل هؤلاء ، لهم مجرد " قطيع " لابد أن يوسع الطريق لراعى الغنم !!

فإذا حدث تصادم أو احتكاك وتماس، هنا تبرز ظاهرة عقلية لابد من الإشارة إليها، فغالبا يصر كل طرف على أنه فكر وقدر ودبر بطريقة سليمة تماماً وأن الخطأ وسوء التقدير والتدبير هو من قبل الطرف الآخر. ليس هناك احتمال أبدأ أن أكون أنا المخطئ وغيرى على صواب.

وتلك حالة – فى تصورنا الشخصى – مما يمكن أن يكون فى المجتمعات التى تعيش زمنا طويلا فى حالة قهر واستعباد ، فينعدم الحوار ، حيث تعود الناس أن هناك رأيا يهبط من عل يحمل الحق كله ، وما على الجميع إلا السمع والطاعة ، ففى مثل هذه المجتمعات المقهورة تشيع ثقافة الرأى الواحد والصوت الواحد ، فما أراه أنا هو الصواب وما تراه أنت هو الخطأ ، إنه توحد بحالة القاهر المستبد !!

فى زيارة لى للولايات المتحدة شعرت بالحاجة إلى امتلاك سيارة، لكنى عبرت عن خوفى من القيادة فى شوارع المدينة التى كنت أقيم فيها، وكان ذلك أمام أحد الأساتذة الأمريكيين ممن أتيحت لهم فرصة زيارة مصر من قبل، فسألنى : هل قدت سيارة فى مصر ؟ فأجبته بالإيجاب، فإذا به يقول أن من يستطيع قيادة سيارة فى مصر يستطيع أن يقود أى سيارة فى أى مكان فى العالم ! وادركت ما يريد الرجل أن يلمح إليه ....

لم يكن يقصد " أستاذية " لنا ومهارة فى قيادة السيارات، ولكن لأن " الفوضى " وتجاوز كثير من القواعد والآداب و" الفهلوة " هى أمور معتادة وشائعة، فلن يجد الواحد منا ما هو أسوأ من ذلك فى أماكن أخرى فى دول أخرى وخاصة تلك التى يحكم المرور فيها " نظام " حقيقى يحترمه الجميع: " الوزير " قبل " الغفير " ، وأخلاقيات هى مقوم أساسى فى قيادة السيارات لا تقل عن الجوانب الفنية قيمة ووجوبا.

وصدق أو لا تصدق عزيزى القارئ أن هذا الذى حكيته عن هذه الزيارة كان عام ١٩٨١ ، أى منذ سبع وعشرين عاما ، ترى لو قدر لهذا الأستاذ الأمريكى أن يرى الحال فى شوارعنا اليوم وأنا أجدد الدراسة الحالية فى آخر عام ٢٠٠٧ ، تراه ماذا كان يمكن أن يقول حقا وعدلا ؟!

وربما ينفرد الشارع المصرى بأن نقرأ على السيارات المارة به ، عبارات تعكس " مزاجا " شعبيا ، أو نزعة بعينها ، وغالبا يكون هذا بالنسبة لسيارات النقل بصفة خاصة ، وإلى حد كبير سيارات الأجرة ، أما السيارات " الملاكى " ، فنادرا ما يحدث هذا ،وإن كنا شهدنا فى فترة وكأن هناك " مباراة " بين المسلمين والأقباط فى كتابة الشعارات ذات الدلالة الدينية ، مسيحية وإسلامية ، مما دفع السلطات إلى النهى عنها ، فتم توقفها بالفعل ، لكن ، مثلما يحدث بالنسبة لأشياء كثيرة ، تعود الظاهرة مرة أخرى لتطل برأسها وإن كانت بصورة أقل كثيرا عما كانت عليه من قبل •

ومن العبارات الأكثر شيوعا عبارة (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وهى محور العقيدة الإسلامية كما هو معروف ، وغالبا ما يتفنن الخطاط فى كتابتها خاصة ونحن نعلم أن الخط العربى ربما ينفرد عن مثيله فى اللغات الأخرى بتنوع وثرائه المذهل حقا •

وفى هذا السياق أيضا نجد عبارات مثل (الله أكبر) و (الحمد لله) و (اذكر الله) و (توكلت على الله) ، ومثل هذه العبارات تعبر عن نزعة واضحة وشهيرة عن المصريين ، وإن كانت لا تدل بالتأكيد على " سلوك " متدين يتغلغل إلى الباطن ، فينعكس فى " المعاملات " ، ولذلك قد لا ندهش أن تكون سيارة مما كتب عليها شئ من هذا أو•ذاك تحمل منقولات محرمة ، أو أشخاصا ذاهبين إلى فعل منكر ، ولسان حال البعض – مع الأسف – يردد : " هذه نقرة وتلك نقرة أخرى " ! والحقيقة أن الأمر ليس كذلك ، بل هى " نقرة واحدة " !!

وقد يكتب البعض آية من القرآن الكريم ، تتسم بالقصر مثل (كل من عليها فان) ، و (كل نفس ذائقة الموت) ..

وهناك من يقوم بكتابة دعاء الركوب ،وكذلك دعاء السفر .

ويستخدم أصحاب السيارات عبارات مثل (صل على النبى) ودافعها – غالبا – هو دفع الحسد ، وتكتب بكثرة على سيارات أجرة الركاب " السرفيس " ، و (الستار موجود) و (سترك يارب) ،وكلها طلبا للحفظ من الله .

وتظهر بعض خصائص اللغة العربية فى بعض اللافتات ، مثل (يقينى بالله يقينى) بما تحمله من جناس ، حيث " اليقين " المشار إليه فى بداية الجملة يعنى الثقة والإيمان بالله عز وجل ، أما اليقين الثانى ، فهو فعل يعنى " الحماية " و " الرعاية " .

وهناك عبارات طريفة لها دلالتها فى الثقافة الشعبية ، مثل (بنزين فى التنك ولا مليون فى البنك) تصور ضرورة الحرص على التزويد المستمر لخزان السيارة بالبنزين حتى لا يتعرض السائق لمطبات صعبة ، خاصة إذا كان فى طريق طويل "غير معمور " ، أو تتباعد فيه محطات الوقود تباعدا كبيرا .

وكصورة من صور حث الركاب على الركوب فى السيارة والترحيب بهم وإظهار المودة والحب ، نجد عبارة مثل (يا ناس يا عسل ، فلان وصل) !!

ولأن الخوف من الحسد متأصل بدرجة عالية فى نفوس عامة الناس ، وله موقعه المتميز فى الثقافة الشعبية ، نجد عبارات مثل :

(الحلوة دى مش ورث .. الحلوة بخلع الضرس) !

(الحلوة دى مغلبانى .. اللى جيباه ، وخداه تانى) !

(متبصليش بعين رضية ، شوف اللى اندفع فيه) !

و " الحلوة " المقصودة هنا هى السيارة الأجرة أو سيارة النقل ، بحكم أنها مصدر الارتزاق .

وقد يسميها صاحبها بأسماء أخرى ، كلها تعبر أيضا عن مدى الاعتزاز بها ، مثل " السنيورة " و " المحروسة " و " الأصيلة " ٠

بل إن هناك من كتب (الدلوعة قمر ١٤ ، سلطانة) !

إنها تحتل هنا فى المناطق الحضرية ، المكانة نفسها التى تحتلها " الجاموسة " فى الريف المصرى ، فعن طريقها يكسب مالكها عدة صور مما يسد الاحتياجات البشرية ، مثل اللبن ،والزبدة ، وفى النهاية اللحم !!

وبعض العبارات مقتبسة من أغان ، مع تفاوت فى المعنى والدلالة ، فمن لأغنية لشادية نجد عبارة (سوق على مهلك) ، ومن قصيدة تغنيها أم كلثوم (الأطلال) نجد جملة تشير إلى ثقة بالنفس وذوق رفيع (واثق الخطوة يمشى ملكا) !!

دماء على الأسفلت :

ليس هذا عنوانا لقصة أو مسلسل أو فيلم سينمائى ، وإنما هو عنوان على حال نوعية معينة من الشوارع فى مصر وهى تلك التى تربط المدن بعضها ببعض فى غالب الأحوال ٠ صحيح أن شوارع المدن نفسها لا تخلو من حوادث تصادم دامية لكنها على أية حال أخف كثيرا ، سواء فى العدد أو فى حجم ونوع الدمار الحادث ، بحكم أن السير داخل المدن عادة ما يكون بطيئا بحكم الازدحام ، على عكس الحال فيما نسميه بالطرق " الطوالى " ٠

وقد لفت الكاتب الصحفى بالأهرام صلاح منتصر مرة الأنظار إلى ما يحفل به عالم إنشاء الطرق فى مصر من صور غش وسرقة عادة ما تغيب عن الأنظار ، على عكس الأمر فى عالم بناء العمارات والكبارى والمنشآت الأخرى التى ترتفع على سطح الأرض ، فهنا يمكن للبناء أن ينهار فيرى الناس بأم أعينهم نتائج ما قد يكون من غش فى عملية البناء ، لكن عالم الطرق يختلف عن ذلك ، فمخالفة المواصفات لا تنتج خسارة فورية أو ظاهرة ، وعندما يحدث

حادث ، غالبا ما تتجه الأنظار إلى السائقين وإلى المركبات نفسها ، ونادرا ما تتجه إلى حالة الطريق نفسه وما قد يكون قد أصابه من غش فى المواصفات التى تسهم فى سلامة حركة السير عليه •

وحوادث السيارات فى مصر قد وصلت إلى معدلات فاقت مثيلاتها فى كثير من الدول ، حتى أن البعض يؤكد أن ما تؤدى إليه هذه الحوادث من إزهاق أرواح الآلاف من المواطنين فى عام واحد يفوق ما خسرته القوات الأمريكية من أرواح جنودها طوال خمس سنوات التى مرت على غزوها للعراق !!

وفى أهرام ٢٠٠٨/٣/٢٣ ملخص لوقائع جلسة ساخنة عقدها مجلس الشعب فى اليوم السابق ، وتتعلق بحوادث الطرق حيث أن الأبرز فيها هو المتحدث الأول ، ألا وهو الدكتور زكريا عزمى ، حيث من المعروف أنه من أقطاب النظام القائم بحكم موقعه فى مؤسسة الرئاسة ، يوجه سهام نقد حادة للأجهزة التنفيذية ، مما يثير الدهشة حقا ، فإن كان يعلم تلك المعلومات التى أشار إليها ، فلماذا يبقى المسئول التنفيذى مكانه ؟

لكن ، ماذا قال الرجل ؟

قال أن هناك فوضى شديدة فى الشارع المصرى ، ورجح السبب فى هذا للضغوط الحياتية التى يتعرض لها المواطن المصرى يوميا مما يجعله لا يشعر بما يدور حوله • وتساءل الدكتور زكريا عزمى : أليس من حق المواطن المصرى أن يسير فى طريق آمن ؟ وهل يستمر عجز الحكومة عن توفير طريق آمن أيضا للمواطنين ؟ وهل يمكن أن نوقف عمليات الرشوة والمحسوبية والتسيب فى المرور ؟

وزادت جريدة المصرى اليوم فى عددها الصادر فى اليوم نفسه بذكر رقم أعداد ضحايا الطرق فى مصر مفزع حقا يصعب تصديقه ، والرقم هو ٧٣ ألف ضحية خلال العام الماضى وحده ، حيث كانت الأرقام التى تذكر عن سنوات

سابقة تدور ما بين الخمسة آلاف والسبعة ، أما أن يصل الرقم إلى ما يقرب من ستة آلاف شهريا ، فكيف يمكن أن يكون هذا حقيقيا وتغمض جفن مسئول أو حاكم ، حيث معنى هذا أن يقتل مئتا مواطن يوميا بسبب حوداث الطرق ، فهل هذا معقول ؟ وهل أصبح دم المواطن رخيصا إلى هذه الدرجة ؟ إن الأرقام تفوق ما كنا نخسره فى حروبنا دفاعا عن كرمتنا وأرضنا وتاريخنا !!

من الجدير بالملاحظة أن هذه الجلسة التى ارتفعت فيها حدة المناقشات نقدا لحوادث الطرق كانت بمناسبة حادث أليم أودى بحياة ٢٢ من جنود الأمن المركزى ، مع أن مثلهم وأكثر يخسرون أرواحهم على الطرق ، ولا يحظون بمثل هذا الاهتمام ، فكان الطبقية والتمييز يظلان يحكمان السلوك العام حتى فى أحوال المواطن وإسالة الدماء !!

ولفت أحد نواب المجلس النظر إلى أن طرق الصعيد هى الأكثر فى حوادث الطرق ، ولعل طريق العياط كان هو الأبرز فى طرق الصعيد ، قبل أن تنهض الحكومة وتقوم بتنفيذ ما تمناه الناس سنوات طويلة من حيث ازدواج الطريق .

وعلى الرغم من كثرة حوادث الطرق المتكررة التى تحصد أرواح العشرات يوميا فى مصر ، والأكمنة المرورية وفيما يبدو لنا ويظهر من ضباط وأمناء ذوى الملابس والإشارات الفوسفورية ، لم يتردد سائق سيارة نقل فى ارتكاب أربع مخالفات مرة واحدة على طريق القاهرة الإسكندرية الصحراوى ، ولأن المخالفات معتادة فقد شاء الرجل ، وفقا لما نشرته المصرى اليوم فى ٢٠٠٨/٣/٢٤ أن يسجل باسمه سابقة نادرة ، فهو يقود السيارة منذ سنوات بطرف صناعية ، بعد بتر قدمه اليسرى .

وقد تم ضبط الحالة صدفة ، حيث لاحظ ضابط فى قسم مرور طريق مصر الاسكندرية الصحراوى بالمنطقة الثالثة يباشر عمله ففوجئ بسيارة نقل تسير ليلا عكس الاتجاه ، وبسرعة كبيرة طارده الضابط بسيارة الإغاثة حيث تم القبض على السائق الذى تبين ارتكابه أربع مخالفات هى : السير عكس الاتجاه

– القيادة بدون رخصة أو تحقيق شخصية – والسيارة نفسها بدون رخصة ودون لوحة معدنية – أنه مبتور الساق ويضع طرفا صناعيا بدلا منها !!

ترى ، هل من الممكن تصور أن هذه واقعة فريدة ؟ ألا يكون احتمال بأن هناك غيرها ولم يكتشفها بعد أحد ؟!

وهكذا تذهب أرواح المئات نتيجة مثل هذه المخالفات الجسيمة ، حيث يلاحظ فى معظم الحالات أن الطرف الأساسى فيها سيارات النقل ، فقد تكون السيارة غير سليمة فنيا ، وقد يكون السائق ممن يتعاطون المخدرات ، أو يواصل القيادة ساعات طويلة بغير راحة طلبا لمزيد من المال ، فضلا عما أشرنا إليه من احتمالات سوء فى سفلتة الشارع نفسه ، وكذلك أخطاء القيادة .

اللافتات:

من يسير فى شوارعنا الآن يحتار حقا : أهو فى بلد عربى أم غربى عندما يرفع رأسه ليطالع ما هو مكتوب على لافتات المحلات والشركات والأماكن المختلفة ؟ على سبيل المثال ، كان من المعتاد أن تقرأ لافته تحمل " حسن محمد وشركاه " أو " أكرم إيهاب وشركاه " ، اختفت هذه اللافتات لتظهر مكتوبا عليها " حسنكو " و " أكرمكو " وهكذا. ماذا فى كلمة " وشركاه " يستدعى التخلى عنها ؟ وهذان الحرفان (كو .. Co) اللذان يضافان تقليدا للأجانب بحروف عربية، ما الميزة فيهما ؟

الإجابة الصادقة معروفة ، وهى ألا عيب فى الكلمة القديمة ، فلسنا أمام اختراع جديد لابد من ثم من تغيير اسمه القديم إلى جديد ، فالمسمى هو هو ، فما الذى تغير ؟ هو روح الاعتزاز بالثقافة القومية ، هو حالة الاستتباع القائمة التى أصبحت متفشية ، حتى وصلت إلى أطفالنا الصغار !!

كما نشاهد قائمة طويلة من الأسماء الأجنبية التى استبدلت بالعربية :

– (ماركت) بدلا من (سوق) – (سنتر) بدلا من (مركز)

- (كوافير) بدلا من (حلاق) - (سكول) بدلا من (مدرسة)

وقد نجد لافتة عليها (وايت كلين) ،وهى بالإنجليزية WHITE CLEAN

ومحل ملابس حريمى يكتب (سكستين) وهو يقصد SIXTEEN ، مريدا بذلك بنت ١٦ سنة •

وهذا يكتب " أوبتك " – نظارات – (ترى ما العيب في هذه الكلمة ؟!)

وربما يختار البعض اسم ممثلة أجنبية شهيرة ، مثلما يسمى محل لملابس السيدات نفسه (مادونا) ، الممثلة الأمريكية الشهيرة •

ويشيع لقب " البرنس " بين لافتات محلات كثيرة ، وليس من الضرورى أن يكون اللقب مطابقا لما بالداخل فيكون المحل فخما ، لكننا هنا نكرر التساؤل والمقابلة بين لقب " البرنس " و " الأمير " ، فلا نظن أن الأولى أيسر في النطق من الثانية حتى يتم تفضيلها ، ولا أظن أن كلمة " الأمير " في مضمونها تقل عما تحمله كلمة " البرنس " !!

ومثلما هو الأمر بالنسبة لكلمة " البرنس " ، نجده كذلك في استخدام لقب " البرنسيسة " على بعض المحلات الخاصة بالنساء •

ومثلها كلمة " لوكس " التي شاعت على الألسن بحيث لم يعد الأمر أمر قلة من المحلات تستخدمها في لافتاتها ، وإنما الكثرة الغالبة من الناس أصبحت تصف الأمر أو السلعة المتميزة الجيدة بأنها " لوكس " •

ومما يقع في هذه الفئة أيضا لفظ " لورد " الذى نجده ضمن لافتات بعض المحلات ، وهو كما نعرف لقب إنجليزى يميز فئة معينة من الناس " مجلس اللوردات " تمثل شريحة عليا من الشرائح الاجتماعية •

والإعجاب العالمى باللوحة التاريخية الشهيرة " الموناليزا " كان له أثره في استعارة هذا الاسم كى يطلق في لافتة على بعض المحلات حتى لو كان المحل محل "حلويات " !

وكثر استخدام كلمة " سويت " الأجنبية التي تعنى الحلويات والحلوى ، مع أن الكلمة العربية شائعة بين مختلف الشرائح والمستويات الاجتماعية لسهولتها وصدق تعبيرها عن الموصوف ، وبساطتها ، حتى أنها عند البعض قد اكمتسبت ما تصفه ، فأصبحت هى نفسها " حلوة " !!

إلى غير هذا وذاك مما قد يصعب حصره حقا •

حتى الذى يفتح دكانا صغيراً لا تتعدى مساحته أمتارا بعدد أصابع اليد للبقالة ، أصبح مستغنياً عن كلمة " بقالة " ويظهر وكأنه يلتزم الصدق فيكتب " مينى ماركت " !

وأذكر أن الراحل العظيم أحمد بهاء الدين قد تعجب وتندر يوماً من أحد محلات الملابس الشهيرة ، لأنه مخصص لملابس المحجبات ومع ذلك فهو يعلن عن اسمه هو " ..... شوبينج سنتر " ، و التعجب هنا يستند إلى منطق سليم ، فإذا كان الانحياز لملابس المحجبات يستند إلى إيمان وعقيدة ، أفلا يستتبع هذا تمسكا بلغة القرآن الكريم ، الذى أنزله الله عز وجل " بلسان عربى مبين " ؟ !

وإذا التمسنا بعض العذر للمحلات والشركات التجارية التى يغلب عليها طابع النفع المالى ، فضلا عن أن من يقوم بعدد منها ربما يكونوا أنصاف متعلمين أو غير متعلمين ، فماذا نقول بالنسبة لمؤسسات تعليمية مفروض أن أحد أهدافها تعزيز الشعور بالانتماء الوطنى والقومى وأحد مقومات هذا الانتماء إلى اللغة القومية ؟

إن كلمة " روضة الأطفال " لم تعد معلقة بلافتة أى مؤسسة فى هذا المجال ، فكلها أصبحت تعلن أنها " .... جاردن " ، ومن هنا إذا سألنا طفلا فى أحدها يستحيل أن تسمعه يقول أنه فى الفرقة الأولى أو الثانية وإنما يقول أنه فى K.G.٢ و K.G.١ ، أما دور الحضانة ، فلافتتها تعلن دائماً عن أسمها هو " .... هوم " !

ونكرر التساؤل : وماذا فى اسم " روضة " ؟ ألا تقفز إلى أذهاننا على الفور الورود والرياحين والألوان الزاهية والروائح العطرة ؟

ربما يحدث هذا فقط بالنسبة لأمثالنا ممن بلغوا من العمر عتيا ، وما زالوا يحتفظون للغة وطنهم وأمتهم وقرآنهم التقدير والحب والانتماء !!

ويزداد العجب عندما تقرأ لافتة تحمل اسم " مدرسة مودرن سكول " مثلا دون أن يدرى أصحابها أننا لو ترجمناها لأصبحت " مدرسة مدرسة حديثة " !!

إن مثل هذا التكرار لا يكشفه العقل التابع ، لأنه أصلا قد ألغى عقله وصار مسيرا دون أن يدرى !!

إن هناك أسماء " ماركات " عالمية شهيرة فى الإلكترونات أو السيارات أو غير هذا وذاك ، فهنا لابد من الالتزام بالاسم حتى ولو كتب بحروف عربية ، فضلا عما نعرفه من أن من ينتج الحضارة ومنتجاتها هو الذى يملك حق التسمية كما يملك الوالدان حق تسمية أولادهما ...

لكن لماذا هذا الأمر فى مفاهيم وأسماء عربية أصلاً لتكتب بدلا منها أسماء أجنبية بحروف عربية ؟ إنها لو كتبت بحروف أجنبية فلربما أفادت البعض معرفة بمفردات أجنبية لكنها بهذه الصورة تضر بكلتا اللغتين : العربية والأجنبية. إن المسألة ليست مجرد لافتات وأسماء ، فهى أشد خطراً على الناشئة من الكتب، فالكتاب يقرؤه صاحبه مرة أو عدة مرات لا تزيد عن أصابع اليد الواحدة إن كان مقررا سوف يمتحن فيه، أما اللافتات فهى تصافح أعينهم كل يوم وكل ساعة وعبر شهور بل وسنوات طويلة فتعتاد الأعين ، ما هو أجنبى حتى إذا عرضت لها ما هو عربى أصبح غريباً ونشازا !

وحدث ولا حرج عما تمتلئ به الشوارع الرئيسية وخاصة فى القاهرة من لافتات تعلن عن أسماء مسرحيات أو أعمال فنية أخرى ... إن المسألة هنا ليست مسألة أسماء أجنبية استبدلت بأخرى عربية بحروف عربية ولكنها كلمات

عربية فعلا ، إذ بها قدر من الابتذال والسوقية ، ولا نريد أن نسوق أمثلة حتى لا نسهم بذلك فى شيوعها، فضلا عن أنها ماثلة أمام أعين الجميع.

ولا يقف الأمر عند حد الابتذال فى الكلمات ولكنه يشمل كذلك صوراً توحى أحيانا بمعان لا أخلاقية.

صحيح أن " الرقابة " تقوم بفرملة الكثير من مثل هذه الفئة ، لكنها - فيما يبدو - تخشى من هجمة شرسة تتهمها بالوقوف فى وجه بعض ما يسمونه " بالإبداع " - !!- فتتسامح أحياناً وتغض النظر أحياناً أخرى !

وإذا ما كان الأمر فى غير مناسبة انتخابات برلمانية أو نقابية ، كانت تلك فرصة كبيرة لضخ كثير من عبارة المبالغة والتهويل والنفاق والوعود الكاذبة والشعارات المزيفة لا من قبل الجميع، إذ لا نجروء على تعميم كهذا ، وإنما نستطيع أن نرجح أن هذا هو شأن الأغلبية.

إن مشكلة مثل هذه اللافتات أنها تشيع الكذب والنفاق ، وتنفق عليه أموال طائلة وكأنها تؤكد للجميع علانية أن مثل هذا النفاق وذاك الكذب مفيد ، ولا بد أن يحصد أضعاف ما أنفق عليه ، مما يكاد يؤشر إلى أنه يلبى بالفعل طلبا اجتماعيا !!

لكن هناك لافتات نقرأها على محلات لها دلالات أخرى ، حيث قد تكون بالعربية ، فقد يكون اسم العائلة هو المعيار فى التسمية فنجد (مطعم الجيار) أو (سوبر ماركت الهلالى) .

وأحيانا ما ترجع الدلالة إلى اسم المحافظة أو المدينة التى ينتسب إليها صاحب المحل ، فنقرأ " السوهاجى " ، و" الدمياطى " ، و" الشرقاوى " و " الفيومى " ... إلخ

وقد يكون الاسم المطلق على محل ، تأثرا بعمل فنى ، كما نرى إطلاق (ليالى الحلمية) على بعض المقاهى والكافتيريات .

الطعام :

إذا كان الطعام مقوما أساسيا للحياة بصفة عامة، فهو يحتل عندنا نحن المصريين مكانة خاصة تعكسها بعض الأمثال الشائعة، فتناول الإنسان الحد الأدنى المتمثل فى " الخبز والملح " مع آخرين يعنى تعاهدا على الترابط والوفاق ونعبر عن ذلك بأن بيننا " عيش وملح " ، كما أن إطعام الآخر باب هام لنيل المراد منه، فقالوا : " اطعم الفم تستحى العين " . وشائع أن أحدنا يحذر تماما أن يسكت عن خبز وقع على الأرض إذ نعتبر ذلك حراماً.

وأعيادنا الدينية تتمحور لدى كثيرين فى عادات ترتبط بالطعام، بل إن الدولة الفاطمية ذات التوجه الشيعى والتى حكمت مصر قرنين من الزمان وتوسلت بكل السبل لنشر دعواها ، لم تترك آثارا فكرية فى عقل المصريين ، ولكنها تركت آثارا على معدتهم تمثلت فى بعض العادات أيضاً المرتبطة بالطعام ، لعل من أبرزها " عاشورة " و " أم على " ، فضلا عن حلوى المولد الشهيرة ، والمقصود بالمولد هنا مولد النبى محمد صلى الله عليه وسلم ... وهكذا .

من هنا تحتل مواقع الطعام فى الشارع المصرى مكانه هامة فى دلالاتها الثقافية، فمحلات الفول والطعمية كانت قد أخذت تختفى شيئا فشيئا لتخلى مكانا لزحف متزايد من محلات الطعام الأمريكية، مكدونالدز وكنتاكى وويمبى ، وبيتزا هت ، فيزداد المصريون استطعاما للهامبرجر الأمريكى والبيبسى والكوكاكولا .

والمسألة هنا أيضا ليست مجرد استبدال طعام وشراب بآخر، ذلك أن الإنسان يتميز عن الحيوان بأنه يصحب أكله بمنظومة متكاملة من المفاهيم والقيم والعادات والتاليد والاتجاهات، فالذى يدخل محل الفول والطعمية – غالباً – يأخذ ما يشتريه ويذهب حتى يتناوله مع أصدقائه أو أهله فى البيت أو فى " العمل " أو فى مكان عام، مع ما يرتبط بذلك من علاقات اجتماعية لكنه عندما

يذهب إلى مطعم للهامبورجر، فهو – غالبا – يتناول طعامه بداخله منفرداً أو مع عدد محدود من الأسرة أو الأصدقاء مع التزام بتقاليد المكان ومناخه. فضلا عما أشاعته مثل هذه المطاعم ، ومثيلاتها من " أسواق "على النمط الغربى من إشاعة فكرة " التوصيل " إلى المنازل والتى أصبحت تتردد على الألسن بمسماها الأجنبى " هوم ديلفرى " !!

ويرتبط بذلك أيضا نشاط اقتصادى ترتبط به محلات الفول والعمية بما تقدمه أو محلات الهامبورجر بما تقدمه، ومدى الصبغة الوطنية المتوافرة فى هذا النشاط وذاك. وإحقاقاً للحق فلابد من ألا ننسى أن الذى يدخل محلا للفول والطعمية – غالبا – يألف ضيقا فى المكان ، ورائحة زيت تعب من كثرة الاستخدام، وصور متعددة تشير إلى قلة اكتراث بالنظافة سواء بالنسبة للأشياء أو العاملين.

وعلى العكس من ذلك بالنسبة للفئة الأخرى حيث المكان المتسع النظيف ، وصور جمالية متعددة من زهور وديكور ونظام، وقد يسمع المتعامل لونا من الموسيقى والغناء، وخاصة تلك التى يقبل عليه الشباب والصغار ، وحرصاً من العاملين على حسن الهيئة والنظافة والعبارات المهذبة ، هذا فضلاً عن حرص لدى كثيرين على وجود مكان خاص بالأطفال مزود بأشكال مختلفة من اللعب الخاصة بهم.

وبدأ باعة المشروبات المثلجة الجائلون يختفون إلى حد كبير ، والذى كان كل منهم يعلق على صدره وعاء كبير يمتلئ بالعرقسوس أو السوبيا أو التمر الهندى ويحمل فى يديه قطعا مستديره نحاسية يصفق بها ويجتذب انتباه المارة ... وبدلاً من ذلك أخذ المارة يزيدون فى الإقبال على تناول المشروبات الغربية عامة والأمريكية خاصة ، مثل البيبسى ، والكوكاكولا، والسفن أب ، ويبرز مبرر هنا، فجانب النظافة بالنسبة للفئة الأولى غير مضمون، بينما هو مضمون

فى الفئة الثانية إلى حد كبير، مع أن علماء الصحة والتغذية يشيرون إلى أن الفئة الأولى – من حيث عناصرها – أكثر فائدة لجسم الإنسان !

ولا ندرى ما الذى يمنع من الجمع هنا بين ما يمكن أن ندخله فى فئة " الأصالة " من فول وطعمية وكشرى ، وما شابه ، و " المعاصرة " من حيث الاتساع والنظام والمظاهر الجمالية والأشكال المتطورة فى الصنع والتقديم والعرض والتعامل ؟!

لكن الحق الذى يجب أن يقال هو أن بعض " الناصحين " قد التفتوا إلى هذا بالفعل ، فبدأنا نشهد تزايدا فى محلات تقدم الأكلات الشعبية المصرية ، وأشهرها بطبيعة الحال ، الفول والطعمية ، التى تسمى فى بلدان عربية أخرى " فلافا ".

وفى أحياء شعبية وبعض (نواصى) شوارع خارج هذه الأحياء ، تستطيع أن تجد – خاصة فى الصباح الباكر – لا مجرد عربات كارو تبيع الفول المدمس ، وإنما عربات مزودة بأدوات بسيطة قليلة تتيح لعشرات العمال والفقراء أن يتناولوا فطورهم وقد وقفوا ملتفين حول هذه العربات ، وهناك غير هذه العربات عربات أخرى لتناول وجبات مختلفة متنوعة، فهذه عربة تبيع الكشرى، وتلك عربة تبيع حلويات شرقية ... وعربات تقلى قطع كبده وكرشة وممبار .... وهكذا .

وإذ تنظر إلى هذه العربات وراغبى الأكل حولها تعجب لهذه الاستهانة الواضحة لكثير من المواطنين بصحتهم، فمعظم ما يقدم على هذه العربات يفتقد الكثير من الشروط الصحية، فإذا ما حادثت زبونا من المتعاملين معها أو العاملين بها فإن الإجابة الشهيرة الوحيدة هى التى تسمعها (خليها على الله) ! صورة من صور التواكل المخجل. ولو وعى هؤلاء العديد من آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم لعلموا أن الدين لا يقر أبداً بأن

يلقى الإنسان بنفسه إلى التهلكه، ذلك أنها تهلكة أن يتناول الإنسان هذه الأطعمة بحالتها المعروفة والمكشوفة فى الشوارع متعرضة لاتربته وحشراته.

أضف إلى ما يرتبط بهذا من عادات غذائية وصحية بحيث تتحول هـذه الأماكن إلى " مدرسة ذات فصل واحد : - إذا صح هـذا التـشبيه – لتعلـيم وتدريب المواطن على العادات الغذائية والصحية السيئة ؟

لكن ربما يكون الدافع إلى هذا هو شدة الفقر ، فمثل هـذه " المطـاعم " المتنقلة على النواصى وقارعة الطريق ، لا تحسب تكلفة المكان والإيجار فيجئ سعر " السندوتش " أو طبق الفول أو قرطاس الطعمية منخفضا عما يقدم فـى المحلات •

كذلك ألفنا منذ سنوات أن نرى باعة يعرضون كميات كبيرة من الخبـز فى بعض الشوارع وخاصة فى أطراف المدينة .. مكشوفة تتـشرب وتمـتص عوادم السيارات والأتربة المتصاعدة نتيجة حركة المرور، فضلاً عن تعرضها كذلك للحشرات الطائرة وأبرزها الذباب، ومع ذلـك يقبـل عليهـا مواطنـون ضاربين عرض الحائط بكل أقاويل ونصائح تلفت الانتباه إلى الأضرار الصحية والغذائية !

الفوضى المعمارية :

ليست مبانى المنشآت المختلفة مجرد أحجار وأخشاب وحدايد وما إلى هذا وذاك مما هو ضرورى فى إقامة المبانى ، وإنما ما نوجه النظر إليه أن (النمط المعمارى) يعكس دائما طابعاً ثقافياً ملحوظاً، ومن هنا لاحظنا ما يسمى بـ (العمارة الإسلامية) و(العمارة الرومانية) و (العمارة المـصرية القديمـة) وهكذا .

ومن هنا تحرص الأمم والشعوب على أن تعكس مبانيها النمط المعمارى الذى يعبر عن هويتها الثقافية ، وإن كان الأمر لا يمنع فى بعض الأحيان مـن

تطعيمه بمؤثرات معمارية أخرى ، لكن بشرط الاتساق ، حتى لا يفقد المبنى المعمارى رونقه وجماله ودلالاته ، وقبل هذا وذاك ، وظيفته .

والذى يمر بشوارعنا وخاصة فى العاصمة لا يستطيع أن يلحظ نمطا عاماً يعبر عن ثقافة عربية أو إسلامية أو مصرية إلا فيما ندر ، وإنما يجد معظم الأنماط قائمة ومتواجدة معاً ، ربما نجد فى شوارع القاهرة الإسلامية حيث تكثر المساجد والآثار الإسلامية النمط العربى الإسلامى هو الغالب، وربما نجد فى شوارع وسط العاصمة النمط الغربى هو السائد ، وهذا فى حد ذاته إنما يمثل " مراحل ثقافية " مرت بها البلاد ، وفقا لتوجه الجهة المهيمنة .

لكن فى معظم الشوارع الأخرى لا نجد إلا " الفوضى المعمارية " ، عندما نجد أنماطاً متعددة. وفى المناطق الشعبية نجد من الصعوبة إدراج ما فيها من منازل فى نمط بعينه وإن كان النمط الغربى هو الذى يسود من حيث ارتفاع أسقف الغرف ومساحة النوافذ والأبواب وسمك الجدران وما إلى ذلك.

والمسألة ليست مجرد شجب للنمط المعمارى الغربى لكونه غربيا ، ولكن كل نمط معمارى يعكس فى الحقيقة حاجات مجتمعية بعينها تحددها ظروف المناخ والتقاليد السائدة والعقيدة الغالبة ، والوظيفة المرادة من المبنى .

وعلى سبيل المثال فإن معظم البلدان الغربية تعانى شهورا طويلة تحتجب فيها الشمس مما يجعل الغربيين بحاجة إلى مساحات زجاجية كثيرة وواسعة فى النوافذ والواجهات ، لكن عكس ذلك هو الحال عندنا فالشمس ساطعة طوال العام إلا فيما ندر ، بل وتكون شديدة الحرارة فى أكثر من نصف العام مما يجعل مبانينا بحاجة إلى (ظل) أكثر وتقليل المساحات التى تدخل الضوء وأشعة الشمس، ومع ذلك فمعظم المبانى فى شوارعنا تعلن أن منطق (الإلحاق) و (الاتباع) للآخر الوافد يجور على الخصائص والمقومات والاحتياجات (الطبيعية) ، فضلا عن الاجتماعية ، مما يكون له أثره فى تسييد ثقافة الآخر حتى ولو لم تكن ملبية لاحتياجات الإنسان.

وفى نفس الشئ فى (سمك) الجدران بين الغرف فى الشقق السكنية، فضلاً عن دورها من حيث حرارة المناخ ، فلها دورها كذلك فى قطاع " الخصوصيات " المنزلية التى نحرص عليها كثيراً فى ثقافتنا الاجتماعية والدينية ، فهى لا تحول كثيراً بين الأبناء مثلا وبين أن يسمعوا ما يجرى عادة بين والديهم من أحاديث أو شجار أو غير هذا وذاك مما هو شديد الخصوصية ، وبعضه قد يخدش الحياء !! هذا بالإضافة إلى أنها لا تمنع الجيران أن يسمعوا بعضا مما يحدث للآخرين.

وكان من الملاحظ أن الأسقف العالية والمساحات الواسعة التى كانت تغلب على مبانينا تناسب المناخ الحار فى مصر معظم شهور السنة ، والجدران السميكة التى تشكل حاجزا حراريا ، لكن تيار التقليد يتغافل عن كل ذلك لتنخفض الأسقف وتضيق المساحات ويختصر سمك الجدران الداخلية ، الأمر الذى يناسب الأجواء الباردة ، ثم نضطر إلى إجهاد ميزانياتنا الخاصة والعامة بتركيب أجهزة التكييف !

ويزيد الأمر عجباً فى فوضى الألوان .. فالعمارة التى أسكن فيها – مثلا – تطل على ميدان صغير للغاية وعندما أقف فى الشرفة لأنظر إلى العمارات المواجهة أجد – بلا مبالغة – اللون الأصفر والرمادى والأبيض والبنى والبنفسجي والأخضر ..... !!

إن الأعين عندما تعتاد النظر إلى ألوان تتناغم وتتناسق وتهدئ فهذه خطوة هامة نحو التذوق الجمالى وإرهاف الحس وتنمية الروح الفنية ، لكن ما هو حادث يهدم كل ذلك ، مع الأسف الشديد ... يشيع التنافر والتضاد ، فضلاً عن قبح المنظر . وعندما تتعود الأعين تنافر الألوان وقبح المنظر ، لا تجد غرابة إذا كانت تعيش فى مكان يشيع فيه القبح ، وتندر فيه لمسات الجمال .

إن البعض يمكن أن يوهمنا بأن شيوع الفقر من شأنه يجعل مثل هذه الأمانى مستحيل تحقيقها إلا فى المناطق الأرستقراطية ، وهذا فى الحقيقة وهم ،

ذلك أن التناسق اللونى ، والنظام ، والنظافة ، والنمط المعمارى الموحد ليست مما يكلف كثيرا .

ولا نريد أن نثقل على القارئ بحديث عن تلك العلاقة الوثيقة بين القيم الجمالية والسلوك الأخلاقى، فالجمال صورة من صور الخير ، والخير نفسه جمال مؤكد.

الطبقية :

فى أول زيارة لى للولايات المتحدة الأمريكية شاءت الظروف أن أقيم فى منطقة راقية لا تكاد ترى البيوت فيها من كثرة الحدائق والبساتين ، ولاحظت أن " الوضع الأمنى " و " النظافة " أكثر من رائع ، وعلى عكس هذا تماما رأيت فى مناطق أخرى فى نفس المدينة، وكان التعليل هو أن سكان المنطقة الأولى يدفعون ضرائب خدمات عالية فيحظون بالأمن والنظافة، وعكس هذا يحدث فى المنطقة الثانية .

وعندما أسير بسيارتى فى القاهرة فى المنطقة التى أسكن بها بمصر الجديدة أجد الشوارع متسعة ، وبها أشجار والأرصفة مزينة بالبلاط الأحمر الجميل الشهير ، وسفلتة الشوارع الرئيسة ترحم السيارة من الاهتزازات العنيفة التى تسببها الحفر وسوء السفلتة ، فإذا ما قدر لى أن أعبر شارع الحجاز لبعض شأنى وانتقلت من شارع جسر السويس إلى الجانب الاخر حيث المطرية والزيتون وعين شمس ، شعرت وكأننى انتقلت إلى دولة أخرى، الشوارع الضيقة تنعدم الأشجار فيها، والحفر والمطبات الطبيعية هى الغالبة، فضلاً عن (الزبالة) المتناثرة والمجمعة.

وإذا كانت الفوارق فى المدينة المشار إليها فى الولايات المتحدة يفسرها اختلاف الضرائب إلا أن هذا الاختلاف غير قائم هنا ، فسكان شوارع الزيتون والمطرية وعين شمس وما ماثلها يدفعون ضرائب بنسب تماثل ما يدفعه سكان

شوارع الحجاز والنزهة والميرغنى. فما التفسير إذن ؟ إنها (طبقيـــة) ســخيفة واضحة ، فهؤلاء سكان فقراء لا نفوذ لهم ، ومن ثم فلا صوت عال يمكن عن طريقه أن يُسمعوا الآخرين رأيهم ، وأولئك سكان أغنياء وأصحاب سلطة ونفوذ لابد من الحرص على راحتهم !

وهكذا عندما ينتقل مواطن بين شوارع هذه المنطقة وشــوارع المنطقــة الأخرى يتعلم أنه رغم أن الدولة واحدة والنظام واحد والضرائب واحــدة ، إلا أن البشر نوعان : الناس اللى فوق والناس اللى تحت ! فكأنهم من هؤلاء الذين وصفهم المولى عز وجل فى كتابه العزيز يردون ماء عذب فرات سائغ شرابه، وأولئك يردون ماء ملح أجاج !!

ولا يكاد يمر عام إلا وأرى فى بعض شــوارع النزهــة إعــادة ســفلته وتوضيب وتلميع للشارع أو إعادة تبليط الأرصفة أو إعادة تشكيل براويزها مع أنها تكون لا بأس بها وأتساءل بينى وبين نفسى : لماذا لا يوجه هذا الإنفاق إلى شوارع (الناس اللى تحت) حتى تصل شوارعهم إلى الحد الأدنى اللائق بسير وحياة الآدميين ؟!

ولا تقف الطبقية عند هذا الحد ، وإنما تتمثل فى مظاهر أخرى :

فإشارات المرور غائبة تماماً عن شــوارع المنــاطق الــشعبية وكــذلك عسكرى المرور، ومن الممكن أن يبرر ذلك بقلة حركة المرور، وإذا كان هذا فيه بعض الصحة إلا أنه لا يمثل الحقيقة كاملة، فقد كثــر امــتلاك الــسيارات واستخدام سيارات الأجرة، فضلا عن كثرة استخدام عربات النقــل الــصغيرة والمتوسطة فى كثير من الشوارع الشعبية بحيث لا يعتمد المار بها بسيارة على قواعد وآداب المرور والمخالفات وإنما " بالفهلوة" والجسارة والمباغتة والمفاجأة والبرود او عكس هذا كله !

وقل مثل هذا عن (النظافة) ... وعن (الإنارة) ..

أما عندما تهطل الأمطار فى فصل الشتاء ، ومن حسن حظ الفقراء أنها قليلة ، فحدث لا حرج عن الطبقية .

شوارع الناس اللى فوق ، لحسن سفلتتها لا تتضرر إلا قليلا، فضلا عن سرعة تحرك الجهات المسئولة لإزالة آثار عدوان المطر.

لكن الشوارع الشعبية تغرق " فى شبر ميه " وتظهر قيمة الحفر والمنحدرات والشقوق والأجزاء المتكسرة لتكون مخزنا لمياه الأمطار وتستمر فى إقامتها أياماً عدة وربما أسابيع لتتخمر وتنشر الروائح الكريهة وتعيق سير الآدميين وتوقع بالأطفال أضراراً بالغة .

كذلك الأمر إذا ما انفجرت ماسورة مياه شرب فى أحد الشوارع الشعبية فالتحرك لإصلاحها بطئ للغاية حتى ولو كانت النتيجة أن تنقطع المياه عن سكان الشارع، ومثل هذا عندما تسرب مواسير المجارى والبلاعات مياه مجارى فى هذه الشوارع مع كل ما يستنتج من ذلك من تكاثر للحشرات وتعطل وتعفن وإعاقة للحركة وروائح كريهة ، فإذا كانت الحركة بطيئة هنا فى اتجاه الإصلاح ، فإنها على العكس فى شوارع الناس اللى فوق ... نجدها ، دائما : سريعة وفورية !

إن كل هذا إن دل على شئ فإنما يدل على أن ما تُسَرّبه أنماط المعيشة وتقوم عليه البنية الأساسية ، وما تحفل به البيئة من عناصر ويحكمها من تعاملات ، هو من ذلك النوع الذى يسميه التربويون " التربية اللامدرسية " ، حيث لا نكون إزاء كتب ومقررات ومناهج ومعلمين ونظار وامتحانات وشهادات ، وإنما هى منظومة كبيرة من القيم والمعايير والتوجهات والاتجاهات يتشربها المواطن وتدخل فى تكوينه النفسى والعقلى والاجتماعى ، ويكون لها من التأثير ما يفوق عشرات الكتب والمقررات !! ومن هنا فإن المناطق ذات الثقافة الفقيرة تعزز صور الفقر وترسخه ، وعكس هذا تفعله المنطاق ذات الثقافة الثرية !!

الضوضاء :

ليست الضوضاء مجرد أصوات فاقت الحد فى الارتفاع والتداخل بحيث تسبب إزعاجا وتشتيتا للانتباه ، فإذا كان للأطباء رأيهم المبنى علـى قياسـات ودراسات تؤكد كلها أن الضوضاء بكثرتها وارتفاع درجتهـا وباسـتمراريتها تؤدى إلى صمم جزئى قد لا يلاحظه صاحبه ، إلا أننا ننظر إليها هنا كذلك من حيث ما يتبدى فيها من سوء اسـتغلال للحريـة الشخـصية وعـدم احتـرام خصوصية الآخرين وحريتهم، كما ننظر إليها من حيث دلالتهـا علـى سـوء استغلال للحرية الشخصية وعدم احترام خصوصية الآخرين وحريتهم، وكذلك ننظر إليها من حيث أثرها فى (توتير) الأعصاب والصداع الذى تسببه فـى سرعة النرفزة وضيق الصدر وضعف القدرة على التركيز.

وجميعنا يلاحظ من غير شك أن الكم الأكبر من شـوارعنا تـستطيع أن تحصل على الجائزة الأولى إذا جاز أن تتنافس شوارع المدن فى العالم فى هذا الشأن. ومما يثير الرثاء حقا ، أن البعض ، لطول إلفه للضوضاء ، إذا قدر له أن يزور صديقا أو قريبا فى منطقة هادئة ، أبدى أسفه لأن المكان " ليس فيـه حياة " ، وأنه " مُقبض " ، وأن أحدا لو حدث له شئ فلن يجد من يسعفه ، إلـى غير هذا وذاك من تعليقات تنبئ جميعها بأن الاستثناء قـد أصـبح قـادة ،وأن القاعدة قد أصبحت استثناء !!

إن آلات التنبيه فى السيارات لها وظيفتها المعروفة والمحدودة ، ولكنهـا اكتسبت لدينا وظائف أخرى متعددة.

فهى قد أصبحت أداة نداء من صديق أو قريب أو زميل، لمن يريد مـن سكان هذه العمارة أو تلك، فلم تعرف عمارتنا بعد هذا الجهاز التى يتـيح لـك فرصة محادثة ساكنى إحدى شقق العمارة ، من أسفل ، وراكب السيارة غالبا " كسلان " لا يريد أن يكلف نفسه عناء الصعود داخل العمارة ، ومن ثم فالأسهل له أن يزعق بآلة التنبيه.

ولأن الشارع يمتلئ بالسيارات التى تزعق هى الأخرى بـآلات التنبيـه لأغراض متعددة، اتفق كل طرف مع من يتعامل معه على (شفرة) معينة فى النداء كى يستطيع المقيم بالعمارة أن يميز من يريد فى الشارع ممن يريد غيره ، فالشفرة عند البعض صوتين طويلين ثم صوت قصير سريع، وهى عند بعض آخر العكس، وعند بعض ثالث صوت طويل ثم آخر قصير يترددان مـرتين وبالتتالى .... وهكذا .

وإذا كنا شتاء ، فالنوافذ مغلقة والشيش والزجاج ليلاً ، مما يعيق الاستماع ، من هنا لابد للمنادى فى الشارع من أن يكرر نداءه عديدا من المرات.

وليست هناك توقيتات محددة بطبيعة الحال ، فلا حرج إذا تمت المناداة ، بعد منتصف الليل أو فجراً أو فى اى وقت آخر .

ولا يهم إذا كان هناك من السكان الآخرين من يكون مريـضاً أو نائمـاً فيفزع من شدة النداءات وتكرارها ، ولا مبالاة بما قد يكون من الأطفال الرضع الذين يفزعون أكثر ويبكون ويصرخون نتيجـة هـذا ، فهـؤلاء المنـادون لا يبصرون إلا رغبتهم ولا عبرة عندهم بحاجات الآخرين ومطـالبهم ، فتـصب عليهم اللعنات ويمتلئ بعضنا من بعض غيظا مكتوما وضيقا مكبوتـاً ، لكنـه ينفس عن نفسه فى مزيد من الأنانية وقلة اكتراث بحريات الآخرين وحاجـاتهم رداً على كل هذا ، وغيره ٠

أما (الكاسيتات) فالحديث عنها يطول ، ولكننا نكتفى بالإشارة إلى أنها كذلك – فضلاً عن آثار ارتفاع صوتها الصحية الضارة – تفـرض ذوق فـرد على آخرين فى الاستماع ، فهذا صاحب كشك سجائر ومياه غازية مثلا يطلق جهازه الصوتى بأغانى بعض المؤدين الذين لا اسم معروف لأحدهم، بعبارات تفتقد المنطق، قد تدغدغ مشاعر البسطاء من الناس مما يجعلنا نترحم على (أبو دراع) و(محمد طه) و(متقال) و(خضرة). وآخر شاب يقف بـسيارته مطلقـا عنان مسجله بموسيقى أو أغان غريبة تحتاج إلى الصراخ والـدقات الـسريعة

المفزعة، وثالث لنوعية من المغنين تنطق بلسان عربى غير مبين لكن بنمط ممسوخ وكلمات هزيلة المعنى سقيمة المبنى وأحيانا سيئة الأداب.

وهكذا يكتسب من كل هذا شارعنا – بالإضافة إلى آثار الضوضاء – كلمات ومعان تشكل فى مجموعها ديدانا تتغذى على العقول فتتآكل أفكار هذه العقول وتتسطح وتتحرف فى تفكيرها.

وفى مقابل كل هذا يطلق بعض آخر مسجله بصوت مقرئ للقرآن الكريم وهو يظن أنه يعمل بذلك (ثواباً) ! ألا يعتبر ناشراً لكلام الله ؟ ولو دقق هؤلاء فى الأمر لوجدوا أنهم يسيئون إلى كلام الله، ، إذ قد يكون هناك أيضا من السكان من يريدون نوما لمرض أو طلبا لراحة فيشعرون بضيق ، فكأن صاحب هذه التسجيلات قد تسبب فى الربط بين سماع القرآن والشعور بالضيق عند البعض.

ثم إن النص واضح يقول " وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا " ، فكيف يتأتى هذا لمن يستعمل الشارع سائراً أو مشتريا أو بائعاً أو منتقلا ؟ ألا يؤدى هذا إلى اختلاط صوت يقرأ كلام الله بأصوات من يذيعون موسيقى صاخبة وأغان مبتذلة ؟ وماذا يكون الأمر إذ كان بالشارع عربات كارو تجرها حمير ترفع صوتها بالنهيق ؟!.

إن أثر هذا الكم من الأصوات المتباينة المتنافرة الزاعقة على الذوق العام أخطر من أن يسكت عنه ، وأكبر من أن تحيط به هذه السطور.

وإذا كنا قد أشرنا إلى وظيفة جديدة أضيفت إلى آلة تنبيه السيارة ألا وهى (النداء) ، فإن هناك وظيفة أخرى ابتكرناها ألا وهى (الزغردة) احتفالا بالعرسان ، فلم يعد غريبا أن ترى موكباً من السيارات يتقدم سيارة (العريسين)، فضلا عما يلحقها من سيارات أخرى ، وطوال الطريق هناك عزف جماعى من آلات التنبيه احتفالا وإعلانا بالفرحة ، ولا يكتفون بذلك بل أحيانا ما يطلبون

من السيارات الأخرى التى يتصادف مرورها معهم بان تشاركهم الفرحة بمزيد من العزف على آلات تنبيه سيارتهم .

الفرحة تعمر هؤلاء ولا يدور بخلدهم أن هناك احتمالا بأن بعض السكان قد فرغوا توا من تشييع جنازة لواحد منهم مما يجعلهم فى حالة حزن وبكاء، وعندما تقتحمهم أصوات هذه المواكب السائرة فى الشارع يتميزون غيظا – وربما حقدا – ولا مجال للتنفيس عن هذه المشاعر فى حينه، لكن هذه المشاعر المكتومة هى بدورها تتحين الفرص فيما بعد للانتقام من آخرين ، وقد لا يكون هذا الانتقام ماديا ظاهرا وإنما اجتماعياً بسوء المعاملة أو نفسيا بضيق مساحة الحب والود.

والغريب أن حل هذا ليس عسيرا ، بل إن هناك من القوانين ما يمنع ، لكن اليد الأمنية غالباً تكون رخوة تجاه هذه المسائل، وعينها مغمضة ، رغم أنها تسمع جيداً.

وهناك مصدر آخر لضوضاء الشارع ألا وهو مكبرات الصوت سواء للإعلان عن افتتاح موقع تجارى جديد أو عن توافر سلع جديدة فى موقع ما ... حتى باعة (الروبابكيا) أصبحو الآن يحملون (مكبرات للصوت) وهم يدورون بعرباتهم الكارو يعلنون استعدادهم لشراء (أى حاجة قديمة للبيع) !!

وتقوم كثير من شوارعنا بوظيفة هامة ألا وهى أن تكون مكان عزاء فينصب سرادق كبير لاستقبال المعزين ، ولا بأس من إقفال الشارع أو تعطيل معظمه ، وتنطلق مكبرات الصوت بصوت مقرئين للقرآن الكريم ، حيث يصح هنا أن نقول نفس ما قلناه فى فقرة سابقة. ولقد حدثنى صديق عن مشكلة لا يدرى لها حلا فلأنه عندما يدخل معزيا فى أحد السرادقات يسمع القرآن الكريم ، حيث يكون الحزن والضيق مخيما على الجميع، أصبح كلما سمع مقرئا للقرآن ، تنتابه للحظة نفس المشاعر من الحزن والضيق ، مع أن ضميره

الدينى يخبره بأن يكون شرح الصدر عندما يسمع القرآن ! وذلك لما حدث من ارتباط بين سماع القرآن الكريم وبين مواقف العزاء والموت !

نوادى الشارع :

فى أوائل الثمانينات كنت أحضر أحد اجتماعات مجلس الكلية (تربية عين شمس) بصفتى رئيس قسم فى ذلك الوقت، وأبدى أحد المجتمعين ملاحظة عابرة، فإذا بالاجتماع كله يترك جدول الأعمال المتصل بأعمال الكلية من تعليم وتعلم وإدارة ، ويناقش هذه المسألة مدة لم تقل عن ساعة، وطوال هذا الوقت أخذت أجيل بناظرى بين الأعضاء وأتساءل بينى وبين نفسى (سرا) : هل يجتمع ما يقرب من خمس وعشرين أستاذاً كامل الأستاذية – هكذا كان العدد فى ذلك الوقت – كى يناقشوا هذا الموضوع (الهايف) ؟ والذى أصبحت أعتبره بعد مراجعة النفس عبر سنوات قضية هامة ، فما هو ؟

بحكم التقليد للعمارة الغربية كانت المساحة الخلفية لمبانى الكلية زجاجية ، ولأنها تطل على شارع خلفى ، اتخذه (الأولاد) ملعبا ... بل أكثر من ملعب للعب كرة القدم ، وأحياناً كانت تطيح بمساحات من الزجاج فتحطمه ، ويستغرقون وقتا بالكلية – بحكم الاجراءات الحكومية – لإبداله بزجاج سليم ، ولأن اللعب مستمر فى الشارع ، يتحطم الزجاج مرة أخرى ولا يسمح بند الميزانية بتكرار الإنفاق فى نفس العام ، ولأن معظم وقت الدراسة فى الشتاء ، يهجم البرد والهواء والمطر على الطلاب وأساتذتهم ... فما الحل ؟

ليس هناك مجال هنا لاستكمال ما حدث ، وإنما هو " نموذج " لأصل القضية وهى اتخاذ الشارع ملعبا وخاصة لكرة القدم . وإذا كانت الرياضة عموماً وخاصة كرة القدم لها وظائفها فى بناء الشخصية والتنمية السلوكية فى اتجاه يحقن المجتمع بعناصر قوة بدنية وقيما تعاونية جمعية ، فإنها بالصورة التى تمارس بها فى الشارع ، حيث هناك سيارات تمر وخسائر تحدث لبعض

النوافذ مما يترتب عليه شجار يصحب عادة بشتائم ، يفرغ هذه الرياضة من محتواها القيمى والتربوى .

صحيح أن كثيرين من أجيال سابقة يذكرون أنهم قد بدءوا ممارسة الرياضة بلعب الكرة (الشراب) فى الحارة ... لكن الأمر الآن يختلف ... فالكرة (الشراب) - أى المصنوعة من جورب قديم - كانت ضعيفة القدرة على تحطيم النوافذ ، كما أنها بدأت تختفى لتسود الكرة (الكَفَر) القوية ، واللعب لم يعد منحصراً فى (الحارة) أو المساحات الفضاء ، وإنما امتد ليقتحم الشارع الذى تكثر فيه السيارات السائرة ، هذا فضلاً عن الزيادة المذهلة المعروفة فى التزايد السكانى وخاصة فى سن الصبا والشباب مما يجعل اللعب فى الشوارع شائعاً بكثرة واضحة وليس مجرد (بقع) هنا وهناك متناثرة .

وإذا نظرنا إلى القاهرة الكبرى فسوف نجد أنها على الرغم من زيادة عدد النوادى بها ، إلا أن هذه الزيادة لم تتناسب أبداً مع التزايد السكانى ، مما جعل هذه النوادى تزدحم وتضطر أن ترفع من رسوم عضويتها عاما بعد عام حتى وصلت إلى ألوف الجنيهات سنوياً ، والنتيجة الطبيعية لهذا أن معظم النوادى أصبحت مقفلة على الشرائح الاجتماعية العليا وشرائح أخرى من الطبقة المتوسطة ، لكن الجمهرة الكبرى لا قدرة لهم على ذلك .

فإذا أضفنا إلى هذا ما تعانيه الشقق السكنية أصلا من كثرة عدد الساكنين وضيق المساحة ، كان لابد للأولاد من متنفس لهم فلا يجدون إلا الشارع للعب فيه ما دام الطريق أمامهم إلى النوادى مغلقا .

ويزيد من تفاقم المشكلة أن هناك مدارس وخاصة فى المرحلة الابتدائية وكذلك المرحلة الإعدادية تصرف تلاميذها ربما قبل الثانية عشر ظهراً وهكذا يجد أبناء العاملين والعاملات أبواب بيوتهم لم تفتح بعد ، فيمضون وقتهم فى اللعب فى الشارع ، خاصة وأن آباءهم يخشون ترك مفتاح معهم وهم فى مثل هذا السن الصغير .

وقد كان يمكن للمدارس أن تعوض الأبناء عن كل هذا ، لكن المساحات الفارغة بها تتقلص شيئا فشيئا بسبب الاضطرار إلى بناء مزيد من الفصول لمواجهة الطلب المتزايد على التعليم ، ومن ثم فإن ملاعب المدارس تكاد أن تختفى ويظهر هذا بوضوح فى المدارس المقامة بالمناطق الشعبية حيث لا توجد مساحات خالية لبناء مدارس جديدة أو حتى لتوسيع دائرة المدارس القائمة ، وهذه المناطق نفسها محروم أبناءها من فرص وجود نواد لأن معظم النوادى فى خارج المناطق الشعبية .

وهكذا يطل علينا مظهر طبقى كذلك فى هذا الجانب ، فأبناء المناطق الغنية المتوافر لهم نواد ، يجدون أنفسهم يعيشون فى شوارع متسعة ومساحات خضراء مما يفيض عن حاجاتهم للعب ، فضلاً عن أن مدارسهم عادة أحسن حالا ، بينما أبناء المناطق الشعبية إذ لا يتوافر فيها نواد يعانون من ضيق الشقق والشوارع التى أصبحت هى المتنفس الوحيد لهم للعب ، وأحياناً عقد اجتماعات وجلسات سمر !

ونكرر التنبيه مرة أخرى ، أن الذى يهمنا فى كل هذا ما يؤدى إليه اللعب فى الشارع من انطلاق غير محسوب فى استخدام الألفاظ غير المهذبة ، بينما يحيط باللعب فى النادى ضبط اجتماعى يدفعه إلى انتقاء الألفاظ التى يستخدمها الأبناء ، ولا يقف أمر الضبط هنا على الألفاظ المستخدمة فقط وإنما يمتد لأساليب التعامل والملبس والاتجاهات المكتسبة .

وقد كنا قد كلفنا بعض طلابنا أن ينزلوا على الشارع ليسألوا من يمارسون اللعب عن بعض الجوانب ، كان أبرزها تعليل وجود العملية نفسها ، ولماذا لا تتم فى النادى ، فإذا بالبعض يؤكدون أنهم مشتركون بالفعل فى أحد النوادى ، لكنه بعيد عن السكن ، والأسرة كبيرة العدد ، والسيارة التى يملكونها صغيرة لا تسعهم ،ومن ثم فقلما يذهبون !!

والبعض الآخر ذكر أنه مشترك ، لكنه يريد أن يلعب مع أصدقاء يرتاح إليهم من سكان الشارع ، وهؤلاء ليسوا مشتركين فى النادى .

وبعض آخر ذكر أنه رغم اشتراكهم فى النادى لكن الأب لا يسمح لهم الذهاب إليه إلا معه ، وهو قلما يجد وقتا يقضيه معهم فى النادى !

وأهم ما يتم لعبه فى الشارع هو كرة القدم ، لكن هذا لا ينفى أن هناك ألعابا أخرى مثل " البلى " و " الاستغماية " و " شد الحبل " و " صلّح " ، ومسابقات الجرى ، و " الأولى " و " نط الحبل " ، و " السيجة " ، و " النحل والدبابير " ، ومعظم هذه الألعاب يلعبها " الذكور " ، وربما تختص الإناث بلعبة مثل " الأولى " و " نط الحبل " وإن كن على وجه العموما أقل ممارسة بدرجة كبيرة عن الذكور .

وبعض الألعاب تحتاج مساحة واسعة مثل كرة القدم ، ومن هنا يمكن أن يكون بعيدا عن المنزل ، لكن بعضها الآخر ليس كذلك ، مثل " البلى " الذى يمكن أن يتم أمام المنزل .

الأمن

تروى أستاذة فى إحدى الكليات الإقليمية تقيم بمصر الجديدة أنها عند عودتها فى أحد الأيام وقفت بسيارتها فى أحد الشوارع أمام محل لبيع الخضروات والفاكهة لتشترى بعض حاجاتها واستغرق ذلك ما لا يزيد عن ربع الساعة فلما عادت إلى سيارتها وجدت حقيبتها التى تركتها بها قد سرقت بعد أن فتح باب السيارة بوسيلة ما .

كان المحزن فى الأمر أن هذا اليوم هو أول الشهر ومن سوء الصدف أن جارا لها بنفس الكلية قد رجاها أن تتسلم مرتبه لتأتى به حيث أنه سوف يغيب يومين ، وأنها تسلمت كذلك مرتب زميل آخر كان مريضاً ، بالإضافة إلى مرتبها هى ، أى مرتب شهر لثلاثة أعضاء تدريس جامعى .

وأسرعت الأستاذة إلى أقرب قسم للشرطة وقدمت بلاغاً بالواقعة وأخبرها الضابط بعد أن أخذ عنوانها ورقم تليفونها أنهم سوف يتصلون بها عندما يعثرون على المسروقات كان ذلك منذ ما يقرب من عشرين سنة ... ولم يعد لها شئ بأى حال من الأحوال !

ومثل هذا يحدث لبعض آخر ... ونفس النتيجة !

إن هذه اليد الرخوة لأمن الشارع ، تتحول إلى يد صلبة إذا حدث هذا مع (أجنبى) ، إذ سرعان ما يدب النشاط للكشف عن اللص ولا يمر وقت طويل حتى تعود المسروقات إلى الأجنبى ! بطبيعة الحال فحماية الزائر الأجنبى واجبة من غير شك ، لكن حماية المواطن كذلك لا تقل عن ذلك وجوبا .

إن حدوث مثل هذه الوقائع لا تصيب فقط (جيب) المواطن بالخسارة المادية وإنما تصيب (قلبه) كذلك بالحسرة والألم ، وقد تبذر لديه إحساساً بأن قيمته كإنسان ليست بالدرجة الكافية التى تجعل منه (صاحب) هذا البلد مع المواطنين الآخرين جميعاً .

ثم تظهر المقارنة من جانب أخر إذا كان الحدث المخل بالأمن ذا طابع سياسى ، فإذا ما قام واحد خلسة بلصق منشور تحريضى أو توزيعه ثم اختفى ، تنشق الأرض لتبرز منها قوى خفية نشطة دءوبة لتمسك بتلابيب هذا المشاغب ، بل وقد نفاجأ بأن ضبطه قد تم بعد رصده " بالصوت والصورة " !!

وهنا أيضاً لابد من الإقرار بأن الاستقرار السياسى العام هدف لابد أن يحرص عليه كل مواطن يريد خير البلاد ، لكن كثيرين لديهم العذر عندما يقارنون بين اليد الأمنية التى تبدو رخوة فى مسائل تتصل بأمن مواطن ، ثم إذا بها تصبح حديدية فى أيه مسألة تتصل بأمن الدولة .

ولا نريد أن نفيض فيما يتركه هذا وذاك من مشاعر نفسية أليمة لدى كثيرين ومفاهيم تتصل بقيمة المواطن كإنسان ومكانته .

كذلك فإن حركة كبار المسئولين والقادة السياسين فى شوارع العاصمة خاصة ، مصدر لآلام نفسية مكبوتة يتحرج الجميع – على وجه التقريب – من إثارتها والكتابة عنها حتى لا يتهمون بأنهم غير حريصين على أمن كبار المسئولين وكبار القادة السياسيين .

إننا – بمنطق العائلة لا بمنطق السياسة فقط – نحرص على حياة من يتولون أمر البلاد فى مواقعها العليا ، فهم " أولياء أمورنا " يسهرون على مصالحنا ويفكرون ويدبرون ، لكننا فى نفس الوقت نريد حلا لهذه المشكلة بحيث لا يتعارض الحرص على أمن هؤلاء ومصالح ومشاعر آلاف المواطنين عندما يتصادف مرورهم بشارع تمر به قيادة سياسية كبيرة أو تستقبل فيه زائرا سياسيا أجنبى رفيع المستوى .

ويزيد المشكلة حدة أن حركة القيادات السياسية العليا نشطة فى زيادة أماكن متعددة افتتاحا لمشروعات وتفقدا لسير أحوال مشروعات ومنشآت أخرى أو عقدا لاجتماع أو حضوراً لمؤتمر أو إلقاء لخطاب وخاصة إذا كان الموقع بداخل القاهرة .

هنا تصاب حركة المرور بشبه شلل مؤقت وتطول المسافة لتحاشى السير فى طريق المسئول ، وكم من احتمالات يصعب حصرها يمكن أن تحدث ... مريض فى حالة سيئة يراد له أن يصل إلى أقرب مستشفى ... حالة استعداد للولادة ... الذهاب إلى امتحان ... الاتجاه إلى المطار ارتباطا بموعد إقلاع محدد أو اللحاق بقطار فى موعد معين عاجل ، أو الارتباط بموعد اجتماع ضرورى ... وهكذا .

ولو أتيحت الفرصة للمواطنين أن يعرفوا مسبقا بحركة القيادة السياسية لتجنبوا من أنفسهم سلوك الطريق الذى يسلكون ، لكن هذا من المستحيلات ، فهو يعد أمرا يدخل فى باب الأسرار العسكرية ، بل نسمع عن نية لسلوك طريق أو الهبوط فى مكان بالطائرة المروحية ، ثم تتغير الخطة أكثر من مرة ،

لأن حركة القيادة تزداد الاحتياطات المتخذة لتأمينها بصورة لم يعهدها تاريخ مصر قديما وحديثا ، ويصب كل هذا فى مزيد من المعاناة للمواطنين ، غالبا ما لا تعرفه القيادة السياسية ٠

فإذا أضفنا إلى هذا وذاك ما يحدث لحركة الشارع المصرى من تزايد فى بطء حركة سير السيارات ، واختناقات مفزعة ، تضاعف الإحساس بالضيق والظلم من مثل هذه المواكب الرسمية ، وكأن لسان حال الناس يقول " هوه احنا ناقصين ؟!!"

ولقد أصبح هناك إسراف واضح فى الإجراءات الأمنية التى تتخذ عند مرور شخصية سياسية مهمة ،واتسعت الدائرة بحيث طالت من يقعون فى المستوى الثانى والثالث ، ربما ، ولم تعد مقصورة – مثلا – على رئيس الدولة ورئيس البرلمان ، ورئيس مجلس الوزراء ٠

إننا نسمع تعليقات من يتعرضون لمثل هذا ، وهى فى مجملها تعليقات غير طيبة تعكس مشاعر ضيق وألم وأحاسيس تبرم مكتوم وغضب مكظوم ... وكلها تصيب إحساس المواطن بقسمته الذاتية بجرح غائر .

أخلاقيات :

وعندما تخف قبضة اليد الأمنية بالنسبة لجماهير الناس ، تنفتح الأبواب واسعة لممارسات لا أخلاقية تهدم قيما نبيلة وتنشر قيما رذيلة ، وكل منا يحتفظ فى ذاكرته بالعديد من الأمثلة ، لكننى أستعين هنا بمقال طويل كتبه الكاتب الصحفى بالأهرام " عزت السعدنى " فى عدد ٢٠٠٨/٢/٢٦ ، اعتمد فيه على مجموعة من الرسائل التى وصلته يجمعها جميعا خيط واحد يتصل بما ساد الشارع المصرى من أخلاقيات :

تقول رسالة قارئة من الإسكندرية أنها ربة بيت تحب المشى صباحا على كورنيش الإسكندرية الذى لم يدخر وسعا كل محافظ فى العمل على توسعته

وتلميعه ، وأصبح " زى الفل " • ممشى أكثر من رائع لمحبى الرياضة والتنفيس عن النفس ••• وفى المنطقة الواقعة بين فندق المحروسة وفندق سان ستيفانو سابقا ، وفى جميع الأوقات ترى السيدة على الصخور الملاصقة للكورنيش : كل الأحبة اثنين اثنين •

وإذ لا تبدى السيدة اعتراضا على هذا فى حد ذاته ، لكنه تبدى شعورا بالانزعاج مما تطور إليه الأمر فى الفترة الأخيرة " رأيت يا سيدى والله العظيم قبلات ساخنة جدا ، وعندما يقترب منهم أحد يبتعدان عن بعض " •

وما استفز السيدة بحيث دفعها إلى أن تكتب للسعدنى هو ما رأته مرة " اثنين فى سن السابعة عشر : ولد وبنت ، والله لا أعرف كيف أكتبها ولكن مضطرة حتى يتحرك أحد لوقف هذه المسخرة : الإثنان فى حالة حضن حار جدا وتعبث أيديهما داخل بعض !!" •

ولم تسكت السيدة بالطبع ، فصرخت فيهما وهما ينظران إليها كأنها متخلفة ، وعندما هددتهما بإحضار البوليس ، قال لها الولد الجملة الشهيرة " انتى متعرفيش أنا ابن مين ؟!!"

وتشير السيدة إلى أمر آخر ، على الكورنيش أيضا ، " من السابعة صباحا وحتى الثامنة مساء •• طلبة بنات وأولاد ، وشنطة المدرسة على ظهورهم وأيديهم متشابكة ، وهات يا حب " ، ثم تكاد سطور السيدة تسمعنا صراخها : " فين المدرسة والأهل والغياب اللى الوزارة مشددة عليه ؟ لماذا لا يكون هناك دوريات رقابة على الكورنيش تبع وزارة التربية والتعليم لملاحقة هؤلاء البنات والأولاد ، ومعرفة أى مدرسة يتبعون وإبلاغ أولياء الأمور بهذا ؟ ولا هى مسئولية مين ؟ لازم يكون فيه حد يحمى الأولاد دول من شر أنفسهم قبل أن ينتقلوا لمرحلة القعدة على الصخور وممارسة ••• أقول إيه بس ؟ الوضع لا يمكن السكوت عليه •• لابد أن يتحرك أحد ، ولا حول ولا قوة إلا بالله " •

طبعا ، ذهبت صرخات السيدة أدراج الرياح ، ولم تفد سطور الكاتب الكبير فى استنهاض وزير الداخلية الذى أشار إليه بأنه " الصديق " ، ولو ذرا للرماد فى العيون ، ذلك أن الهم الأكبر للداخلية هو حماية النظام السياسى القائم ، لا حماية أبناء الجماهير !!

وتبلغ المأساة ذروتها فى حكاية أخرى يرويها الكاتب نفسه عن سيدة سكندرية أخرى ، أوقفت تاكسيا كانت تركب لتشترى من محل للبقالة جبنا وعيش فينو لأولادها من أجل المدارس فى الصباح ، فهجم عليها اثنان من البلطجية المسجلين خطر وحاصراها وسحباها تحت تهديد المطاوى والسنج ومن أمامهما زميل لهما يوسع لهما السكة ويبعد الأهالى الجالسين على الأهالى الجالسين على المقاهى والمارة بالتهديد بضربات من الأسلحة البيضاء .

وسحلوا الضحية التى كانت تصرخ وتستغيث بأى إنسان ، حتى الشرطة نفسها – كما قال نص الخبر المنشور فى جريدة الفجر (لم يحدد الكاتب تاريخه) – ولكنهم امتنعوا عن نجدتها ، حتى سحبها الأبالسة من شعرها ، كما كان يفعل الإنسان الأول فى أى امرأة يريدها لنفسه فى الكهوف والغابات فى عصر ما قبل التاريخ المكتوب ، إلى مكان قصى ، حيث تناوبوا على اغتصابها عنوة واقتدارا ، حتى جاء الفرج بعد أن انتهوا منها وتركوها غارقة فى هوانها ودمها وسط المزارع ، عندما ذهب سائق تاكسى همام إلى قسم النزهة وانتزع بعد جهد فرقة مطاردة ، توصلت فى النهاية إلى الجناة !!

وإذا كان لنا أن نتساءل : ماذا جرى لأخلاق الناس فى الشارع ؟ فإن من حقنا أيضا أن نتساءل : وأين الشرطة التى ترفع شعارا بأنها فى خدمة الشعب ؟ أم أن شعارها الجديد المؤكد أنها فى خدمة النظام السياسى ، قد طغى على هذا الشعار القديم ؟!

ونعلم نهارى فإن بقية صفحة كاملة من الأهرام تتضمن حكايات مسائلة عن الغياب المحزن للشرطة وتكرار حوادث السرقة والاعتداء فى الشوارع • جهارا نهارا !!..

أطفال الشوارع :

فى أول الخمسينيات على وجه التقريب أنتج لنا الفنان الشهير الراحل يوسف وهبى فيلما بعنوان (أولاد الشوارع) ، مما يشير إلى توافر وعى مبكر لدى السينما المصرية بمثل هذه الظاهرة • وكم يشعر الإنسان بالكثير من الأسى حقا أن يمر أكثر من نصف قرن ، ولا نجد تراجعا فى هذه الظاهرة ، بل على العكس من ذلك ، تزايد انتشار ، بحكم منحنى التدهور الذى يشهده المجتمع المصرى منذ عدة عقود •

ولن نخوض طويلا فى أسباب هذه الظاهرة ، فهى تكاد أن تكون معروفة ، وهى تكمن فى مؤسستين مسئولتين بالدرجة الأولى عن التربية والتنشئة ، ألا وهما الأسرة والمدرسة •

ودون دخول فى تفاصيل متعددة رصدا لما اعترى الأسرة المصرية من تغيرات سلبية ، وبالتالى مما ساهم فى تفاقم الظاهرة ، لكننا نلفت النظر إلى التزايد المخيف لمعدلات الطلاق • صحيح أنه لا ينتج بالضرورة أطفالا تلفظهم الأسرة إلى الشارع ، ولكن تزايد هذه المشكلة يسهم من غير شك فى هذا •

وفضلا عن ذلك ، هذا الغياب الطويل من كل من الأم والأب عن البيت سعيا إلى الرزق ، حيث لم يعد المرتب الذى يتلقاه هذا أو ذاك كافيا وحده للحصول على المقومات الأساسية للحياة الأسرية •

والحكايات كثيرة يمكن أن تملأ مجلدا ، فهذا أحد أطفال الشوارع يصرح بأنه يكره أبيه ، الذى يعمل ميكانيكيا ، حيث كان يجئ بأصدقائه يدخنون الحشيش فى البيت ، " وعندما تعارض أمى كان يقول لها أن البيت بيته

ويطردها فى الشارع مع أخى الصغير .. الذى لم يبلغ أربع سنوات من العمر ، وكنت عندما أعترض على هذا يحبسنى ويربطنى فى السرير لمدة ثلاثة أيام ويضربنى . لم تطق أمى وهربت من المنزل وهربت أنا من البلد كلها وذهبت لأحد أقاربنا فى امبابة وأقمت عنده أسبوع ، ثم اتهمنى بسرقة ١٠٠ جنيه وطردنى .." .

وكان مما قاله أنه ينام ليلا فى الشارع ، وفى النهار يلتحق بمتعهد زبالة من السابعة صباحا .

ولما سئل عن أصحابه ، قال : أصحابى هم بتوع الزبالة ،وساعات الأجازة أروح مع صبيان الورش فى شارع الترعة ، نعمل " دماغ " ،ولما سئل : يعنى إيه " دماغ " ؟ أجاب " يعنى نلف سجاير بانجو ، نشم " كلة " علشان ننسى الهمّ "!!

ولم تعد المدرسة مسئولة بعد عن " سلوكيات " التلاميذ و أخلاقياتهم ، ومن المفارقة حقا ، أن تتزايد هذه الظاهرة ، منذ أن تغير اسم الوزارة من " المعارف " إلى " التربية والتعليم " ، فكبار السن مثلى ، ومن هم أكبر سنا منى يتذكرون جيدا أن المدرسة كانت تعتبر نفسها مسئولة لا عن سلوكيات التلاميذ فقط داخل المدرسة ، بل كذلك خارجها .

والمظلة التى تجمع هاتين المؤسستين من حيث التأثير فى تفاقم ظاهرة أطفال الشوارع هى " الفقر " ، ففى الوقت الذى تؤكد فيه الجهات الرسمية تزايد معدلات النمو ، وتزايد الدخل القومى ، يتغافل هؤلاء عن مسألة " التوزيع " التى تفتقد الكثير من مقومات العدل ، بحيث نشهد بالفعل تطبيقا للمقولة الشهيرة " الأغنياء يزدادون غنى ، ,الفقراء يزدادون فقرا " !

وأبرز ما تفرزه هذه الظاهرة من سوءات " سلوكية ، الشجار العنيف الغالب بين بعضهم البعض ، والحالة الصحية المزرية ، وربما تعاطى المخدرات ، ولعب القمار ، وربما كذلك بعض ظواهر الشذوذ الجنسى . أما

الألفاظ غير المهذبة ، فحدث عنها ولا حرج ، فضلا عن أن بعض هؤلاء ينضمون إلى جيش المتسولين ، وفى أحسن الأحوال ينضمون إلى جيش عمالة الأطفال " ، وما يفرضه كل هذا من انقطاع عن تلقى التعليم ، ومن ثم نجد إهدارا مؤسفا للكثير مما يندرج تحت عنوان " حقوق الإنسان " بصفة عامة و " حقوق الأطفال " بصفة خاصة .

ونشرت صحيفة البديل فى عدد الخميس الثامن والعشري من فبراير ٢٠٠٨ عن احتفالية خاصة بأطفال الشوارع فى الحديقة الثقافية للأطفال بالسيدة زينب شاركت فيها هيئات ومنظمات مختلفة ، وأشار بيان صادر عن إحدى المجموعات المشاركة إلى أن قضية أطفال الشوارع تعنى إهدار آدمية أكثر من ٢ مليون طفل ، وفى الفئة العمرية من ٨-١٨ تقريبا ، التى تعتبر ثروة قومية وطاقة متجددة لبناء المستقبل ، وإهدارها خسارة قومية فادحة ، لا سيما أنها تتحول إلى طاقة سلبية ومصدر لمخاطر فادحة .

وعلى هامش الاحتفال عقدت ندوة نقاشية عرضت فيها نتائج دراسة عن " بنات الشوارع " ، بلغ عدد عينتها مائة من بنات الشوارع ، وكشفت الدراسة عن أن ٨٠ %من هؤلاء البنات تعرضن لخبرات جنسية إما بالإكراه التام أو بالاضطرار للمحافظة على أنفسهن من اعتداءات جماعية أسوأ ، وأكثر من ٥٠ % منهن والدهن مطلقين ، وأكثر من ٧٠ % لم يلتحقن بالمدرسة ، و ١٠٠% تعرضن لعنف مفرط فى البيت ، مقابل ٧٠ % تعرضن لعنف فى الشارع .

وأوضحت الدراسة زيادة احتمالات إصابتهن بأمراض نفسية فى المستقبل بمعدل ١٠ أضعاف مقارنة بغيرهن . وفيما يتعلق بالصحة البدنية ، اتضح أن ٣٠ % منهن يعانين من أزمة ربوية ، ونسبة الحوادث بينهن - من كسور وحروق وغيرها - تتجاوز ال ٦٠ %. كما كشفت عن حمل ٢٦ % بنتا من إجمالى اللاتى تعرضن لانتهاكات جنسية ، وهو ما يشير إلى جيل جديد سوف ينضم إلى أطفال الشوارع .

وعلى الصفحة نفسها من العدد نفسه من البديل نقرأ تحقيقا صحفيا مهما ، كتب بعبارات بليغة ، عميقة المعانى ، دقيقة التصوير ، عن فئة من أطفال الشوارع ، ربما رأيتهم ذات مرة ، بل ربما اعتدت على رؤيتهم في شوارع القاهرة ، دوما تجدهم فى إشارات المرور ، أو على محطات مترو الأنفاق ...هم مرضى يعانون من مرض ما تحويه أجسادهم الهزيلة التى أضناها الفقر والجوع وعدم القدرة على توفير الأساسيات ..معاقون تجدهم يعانون من عيب خلقى ما فى أجسادهم أو ذوى أطراف مبتورة جراء التعرض لحادث ما ، يطالعلونك بوجوه مشوهة ، أو أصابع مقطوعة ، تجدها رفعت فى وجهك . والأسوأ من كل هذا أنهم يستغلون كل ما ذكرناه من معاناتهم لكى يستدروا عطفك ويتسولوا منك .

كنا قد اعتدنا فى السابق أن المريض يبحث دوما عن علاج ويدعو الله أن يبرئه مما ابتلاه به وإن لم يكن يملك ثمن علاجه ، فهو يحاول توفيره بطريقة تسول غير مباشرة ، كاللجوء إلى الجمعيات الخيرية مثلا ، وإعطائها ما يثبت طبيعة مرضه بحيث تتولى الجمعية توفير ثمن العلاج ذاته ، وهو فى ذلك يقوم من قريب أو بيعيد باستدرار عطف أحد لأن مرضه يخلق لديه عزة نفس تمنعه حتى من أ، يجعل أحدا يشفق عليه .

وكنا قد اعتدنا أيضا أن أصحاب الإعاقات المختلفة يتمتعون بعزة نفس غير طبيعية ، حساسون لأبعد مدى ، تجرحهم أى كلمة تمت بصلة من قريب أو بعيد لإعاقتهم ، حتى وإن كانت تقال لغيرهم . اعتدنا مشهد إذا كان أحدهم جالسا على كرسى متحرك ويعانى فى تحريكه بنفسه فهو لا يطلب من أحد مساعدة إلا إذا تطوع من تلقاء نفسه . وإذا اصطحبت معك شخصا كفيفا ، فإياك أن تُشعره أنه كفيف حتى لا تجرحه ، وإذا رأيت شيئا يعوق طريقه فلا تقول له : " حاسب " ، خوفا على مشاعره ، بل حاول أن تسرع لتمسك بيديه .

لكن الفقر والجوع والغلاء لا يترك لعزة النفس مجالا ، فقد دفع المرضى أن يصطحبوا مرضهم إلى الشارع ، بل والأكثر ، أن يصطحبوا معهم الأشعات والتحاليل التى تدعم صحة كلامهم وتؤكد أنهم يعانون منه • أصـبحنا نـرى أصحاب الإعاقات الآن يتسولون بأرجلهم أو بأيـديهم المبتـورة أو أصـابعهم المقطوعة ، تجد أحدهم يمشى مستخدما يديه لأن لا أرجـل لديـه ، ويـستدر عطفلك ببعض الكلمات التى تشرح مدى تدهور حالته • أصبحنا نجدهم ونراهم فى أماكن كثيرة ••

طوابيـر :

الطوابير ظاهرة موجودة فى كل بلاد العالم على وجه التقريب ، وغالبـا ما يُنظر إليها باعتبراها مظهرا من مظاهر التقدم ، حيث تعنى أن المسألة تقوم على تكافوء الفرص ، فكل له دوره ، غنيا كان أو فقيرا •

ومع ذلك ، ففى عدد من الدول المتخلفة قد لا تكون الطـوابير بالفعـل مظهرا من مظاهر العدل والمساواة ، حيث يتمكن ذوو الحيثية والغنى والسلطة من الحصول على ما يريدون " خارج " الطوابير ، سواء بالرشوة أو بالقوة ، أو بغير هذا وذاك من وسائل •

وفى الستينيات كانت المجمعات الاستهلاكية هى المصدر الأساسى ، بل والوحيد للحصول على العديد من السلع التموينية ، ومن ثم اشتهرت بالطوابير ، وعندما تم القبض على بعض المسئولين الكبار فيها ووجدوا مخازن تتكـدس فيها بعض السلع ، فى الوقت الذى كان الناس يعانون شحا فيها ، كانت إجابـة أحد هؤلاء المقبوض عليهم ، أنه كان مضطرا لذلك لأن مسئولين كبـارا فـى مواقع مختلفة كانوا يطلبون منه كذا وكذا من السلع ، ولم يكن من الطبيعى أن يجبهم بأن ينلزلوا ويقفوا فى الطابور ليحصلوا عليها !! فاتخذ من فكـرة هـذا المخزن وسيلة لإرضاء هؤلاء الكبار الذين لا يستطيع أن يرفض لهم طلبا •

وكان هذا غير قاصر على الفترة المشار إليها ، بل هو أمر قائم فى كل فترة وفى كل مكان يفتقد فى مجتمعه نهج العدل الاجتماعى والديمقراطية السياسية •

وإذا كانت المجمعات الاستهلاكية أبرز المواق لرؤية الطوابير طوال الستينيات والسبعينيات قبل اتساع دائرة الانفتاح وانتشار القطاع الخاص وترسخ سياسة الحرية الاقتصادية ، فإن فترة السبعينيات والثمانينيات عرفت ظاهرة الطوابير الطويلة أمام سفارات الدول العربية النفطية للإقبال الكبير من جموع المصريين للعمل فى هذه الدول والفوز بمرتب كبير يحقق الواحد منهم العديد من طموحاته عن طريقه •

ومنذ التسعينيات بدأت هذه الطوابير تتقلص تدريجيا نتيجة لتقلص فرص العمل ، وإن بقيت طوابير الحصول على تأشيرات العمرة أمام القنصليات السعودية مستمرة ، بل وفى تزايد •

وإذا كنا قد أشرنا إلى طوابير المجمعات الاستهلاكية طوال الستينيات والسبعينيات ، سعيا للحصول على سلع مختلفة ، إلا أن " الفراخ " بصفة خاصة كانت هى السلعة الأبرز حتى لقد اشتهرت طوابير الجمعية باسم طوابير الفراخ•

ولم تكن أسوأ التوقعات يمكن أن تتنبأ بأن تحل محل طوابير الفراخ طوابير من نوعية أخرى ، بعد ما يقرب من ثلاثين سنة ، ألا وهى طوابير الخبز ، منذ عدة أسابيع ، أى منذ شهر فبراير عام ٢٠٠٨ على وجه التقريب وحتى كتابة هذه السطور ، فى أواخر مارس من العام نفسه ، آملين أن تكون ظاهرة مؤقتة ، لكنها أصبحت على أية حال حديث الرأى العام ، ولا يخلو حديث بين أى فريق من الناس عن هذه القضية ، ولا تخل جريدة من غير الصحف الحكومية عن تناولها وتصويرها •

والمسألة ليست مجرد طوابير ، ولكن ما أصبحت تفرزه من قيم واتجاهات وسلوكيات ، هى فى مجموعها مؤسفة بالفعل ، محزنة حقا .

ولتصوير هذه الظاهرة التى غلبت على الشارع المصرى هذه الأيام ، حضرا وريفا ، نتوقف أمام هذا التقرير الصحفى الذى نشرته جريدة الدستور فى عددها الصادر يوم ٢١ مارس من عام ٢٠٠٨ ، المفروض أنه عيد الأم ، وبداية الربيع !!

يشير تقرير الصحيفة إلى أن أزمة الخبز مستمرة فى المحافظات وما زالت معاناة المواطنين تتواصل ، وما زال المشهد أمام الأفران يدعو إلى الأسى حيث يقف المئات عدة ساعات فى طوابير تمتد عشرات الأمتار للحصول على خمسة أرغفة ، وفى كثير من الأحيان يفشلون فى الحصول عليها ويعودون بخفى حنين إلى أسرهم للبحث عن بديل ، وهو اختيار صعب فى ظل ارتفاع أسعار الأرز والمكرونة .

فى سوهاج اشتدت الأزمة بشكل ينذر بعواقب وخيمة بعد أن نفد صبر المواطنين ولم يعد بمقدورهم التحمل .

يشير مواطن اسمه " عبد الله عمران " – بالمعاش – إلى أنه يحضر كل يوم متوكأ على عكازه للحصول على خمسة أرغفة فقط ب ٢٥ قرشا ، ولكنه لا يستطيع أن يصطف فى هذه الطوابير التى أصبحت طواحين يتم فيها طحن البشر ، وتختلط النساء بالرجال وبالأطفال ، ولم يعد أحد يعرف أى شئ ، ولولا تدخل أحد المواطنين الذى يخاف منه أصحاب المخبز لا يمكننى أن أحصل على خمسة أرغفة كل يوم !

ويقول " محمد عبد المجيد " – موظف – أنه وقف بالطابور ووقف أمامه أحد المواطنين ، وفجأة وجده يضيف أبناءه الستة إلى الطابور ، أعمارهم تبدأ من خمس سنوات إلى ١٨ سنة ، وفوجئ بآخر يقوم بنفس الفعل ، لأن الفرن لا يعطى إلا بجنيه واحد لكل مواطن .

وتقول " أم سمر " – عاملة – أنها تقضى فى اليوم ما لا يقل عن أربع ساعات أمام الفرن ، فيومها يبدأ من الساعة الرابعة صباحا وتقف حتى تستطيع أن تلحق بعملها في الثامنة صباحا ، وتجهز الإفطار لأبنائها ، " فالحياة لا يمكن أن تستمر هكذا فى ظل الإهانة والألفاظ والمشاجرات أمام الفرن " .

وفى اليوم نفسه تنشر جريدة البديل تحقيقا تقول فيه أن قرى ومدن محافظة القليوبية شهدت حالة من الفوضى فى أول أيام تطبيق نظام " تكييس العيش " ، وقد أصرت لجان التموين على حصول كل أسرة على كيسين فقط ١٦ رغيفا ، مقابل جنيه واحد دون مراعاة لاختلاف عدد الأفراد من أسرة إلى أسرة .

ما أن علم المواطنون بهذه الأزمة الجديدة حتى سارعوا إلى حجز مكان فى طابور العيش الجديد ، وخرج الأب مصطحبا معه زوجته وأبناءه فى حلقة جديدة من انتفاضات الجياع .

الغريب فى الأمر أن بعض الشباب العاطل والبلطجية استطاعوا أن يحصلوا على أكبر كم من أكياس العيش ليعيدوا بيعها للمواطنين مرة أخرى بسعر مضاعف ، علما بأن وزن الرغيف انخفض من ١٣٠ إلى ١٠٠ جرام .

وقد شملت هذه الصورة أغلب مخابز محافظة القليوبية التى يصل عددها إلى أكثر من ١٠ آلاف مخبز ، وبكلمات يملؤها الحزن والهم والذل تحدث المواطنون للبديل ، فيقول أبو هانى ، وهو موظف متقاعد : حسبنا الله ونعم الوكيل ، ماذا نفعل فى حظنا ونصيبنا ؟ نحن نقف فى الطابور بالخمس ساعات والست من أجل ٥ أرغفة نوفرها لأطفالنا ، ولكم أن تتخيلوا قدر المهانة والذل الذى نلاقيه ، فلا أحد يحترم أحدا .

وأضاف أن أخبار قتلى طوابير العيش تتصدر الصفحات الأولى للصحف لتدق ناقوس الخطر لثورة جياع قادمة .

أما محسن شعراوى ، مدرس رياضيات بالتعليم الإعـدادى ، فقـال إن طابور العيش فى بلدنا خير دليل على فقرنا وصعوبة ظـروف الحيـاة التـى نعيشها ، فأنا مدرس ، ورغم الاتهام بأننا نعطى دروسا خصوصية ، فـإننى لا أستطيع شراء العيش السياحى ، فهذا يحتاج إلى ميزانية خاصة ٠ أنـا كـرب أسرة وأب لثلاثة أطفال ، إذا فكرت فى شراء العيش السياحى لن يكفينى الشراء بخمسة جنيهات يوميا ، أى ١٥٠ جنيها فى الشهر للعيش الحاف فقط ، وهو ما يعادل أساسى مرتبى من الوظيفة !!

ونقرأ فى جريدة صوت الأمة فى عدد ٢٣ مارس ٢٠٠٨ أن حرب الخبز قد اندلعت وتساقط القتلى والمصابون ، والحكومة تتفرج على الأحداث وعاجزة عن إيجاد حل للأزمة على الرغم من تأكيد رئيس الدولة على ضرورة إنهـاء الأزمة والخروج من المأزق الذى تسبب فى فضيحة مدويـة للنظـام ، إلا أن المواطنين حملوا الأسلحة للحصول على ارغفة الخبز ، ففـى كارثـة جديـدة أصيب بائع بأحد منافذ الخبز بمركز الغنايم بشلل نصفى وفقد إحدى عينيه للأبد بعد نشوب مشاجرة بينه وبين موظف بمجلس مدينة الغنايم بأسيوط ٠

كذلك فإن محكمة جنايات أسيوط أسدلت الستار على قضية مقتل " إسلام نجم " الذى لقى مصرعه فى مشاجرة على أسبقية شراء الخبـز فـى مركـز البدارى بعد أن سدد له وليد عبد الموجود خمس طعنات نافذة قضت على حياته واشترك فى الجريمة شقيقه ووالده ٠ وفى حكم جديد بنفس المركز تمت معاقبة الجناة الذين قتلوا عادل عثمان بخمس سنوات سجنا إثر مـشاجرة أمـام أحـد المخابز !!

وهكذا لم تعد المسألة مسألة طوابير تمتد طويلا ، ويستغرق المواطف فى الوقوف فيها ليحصل على قوت يومه وعياله ،وإنما امتدت لتنـتج مـشاجرات وإصابات وقتل وتشوهات !!

التوظيف السياسى :

فيما قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ كان الشارع المصرى يموج فى كثير من الأحيان بالمظاهرات التى تتفاوت قوة وضعفا ، والتى غالبا ما كانت تقوم لأسباب سياسية كاحتجاج ، مثلا ، على تصرف أو تصريح صدر من قبل إنجليز ، الذين كانوا يمثلون القوة اللاعبة الأساس على المسرح المصرى ، وربما يكون الباعث احتجاجا على تصرفات وزارة قائمة •

وكانت المظاهرات تبلغ أحيانا من القوة الحد الذى يمكن لها فيه أن تسقط وزارة قائمة ، وخاصة من وزارات ما كان يسمى بوزارات الأقلية •

وكان الجمهور الأساسى للكثرة الغالبة من مظاهرات ما قبل الثورة هم الطلاب ، وأحيانا ما يكون العمال •

لكن مجئ الثورة غيّر حال مظاهرات الشارع •••

فى كثير من الأحيان ، كان رجال الثورة يجوبون البلاد طولا وعرضا ، يسيرون فى مواكب مكشوفة ، فتصاحبهم جموع حاشدة من الناس ، من طوائف شتى : طلاب ، عمال ، موظفين ، فلاحين ••إلخ ، وعلى عكس ما كان الأمر سابقا ، حيث الموقف العدائى دائما للسلطة ، كان المتظاهرون يهتفون لرجال الثورة ، وخاصة زعيمها الأول محمد نجيب •

ودون استطرا فى تفاصيل ، نجد من أصبح يقود البلاد ، جمال عبد الناصر ، وكأنه ساحر الجماهير ، ما أن يظهر فى الشارع أو الميدان أو الساحة حتى تتدفق مئات الألوف الذين يلهثون هتافا وترحيبا وتأييدا ، ووصل الأمر بالزعيم الكبير أن تؤثر خطبه لا على رجل الشارع فى مصر وحدها ، بل فى معظم أنحاء الوطن العربى !!

حتى كانت هزيمة يونيو ١٩٦٧ ، فإذا بجماهير من الطلاب والعمال خاصة ، فى فبراير ١٩٦٨ على وجه التقريب يهتفون ، ولأول مرة ، ضد السلطة احتجاجا على ما سمى وقتها بأحكام قادة الطيران فى الجيش المصرى

لمسئوليتهم عن الهزيمة ، حيث شعر الناس بأن الأحكام لا تتناسب وحجم الكارثة التى وقعت .

وكان من قوة تأثير هذه المظاهرات أن أعلن عبد الناصر عن جملة تغييرات فى الوزارة وفى الاتحاد الاشتراكى ، وإعلان ما عرف وقتها ببيان ٣٠ مارس .

ثم عادت المظاهرت لتندلع مرة أخرى فى نوفمبر من العام نفسه ، ولكن فى الاسكندرية ، وإن كانت السلطة قد قابلتها هذه المرة بشئ من العنف ، بل لقد كانت هذه المظاهرة – فيما قيل – سببا فى التفكير فى إنشاء قوة بوليسية ، خارج نطاق الشرطة المعروف تسمى " الأمن المركزى " لحماية السلطة والنظام السياسى ، حيث كان شعراوى جمعة هو وزير الداخلية فى ذلك الوقت ، وكان لهذه القوة أبلغ الآثار فى مواجهة أية مظاهرات تندلع بعد ذلك محتجة على فعل من أفعال السلطة .

ومنذ تولى السادات رئاسة البلاد عام ١٩٧٠ ، ثم مبارك عام ١٩٨١ ، ظلت قيادة المظاهرات للطلاب بدرجة أساسية ، وللعمال بدرجة أقل ، وخاصة فى عام ١٩٧٢ ، وكان أبرز مظاهر الاحتجاج وأعنفها ما شهدته مصر فى ١٨ ، و ١٩ يناير ١٩٧٧ ، احتجاجا على رفع الأسعار ، حيث تحولت المظاهرت إلى ما يشبه الثورة ، لكنها سرعان ما وئدت بتراجع الدولة عن قراراتها .

الغريب أن ما تشهده مصر منذ أول عام ٢٠٠٨ من ارتفاعات متوالية لأسعار مختلف السلع وخاصة الأساسية ، يفوق ما أعلن عنه فى يناير ١٩٧٧ وأحدث ثورة ، ومع ذلك ، فالسلبية أصبحت نهجا حياتيا مصريا ، حيث يكتفى الناس بالشكوى لبعضهم البعض ومصمصة الشفاع ، والدعاء على من كانوا السبب ،وأن يرسل الله من ينقذهم من هذه البلاء!!

ويأبى القدر إلا أن يطلعنا على مشهد عجيب حقا عام ١٩٨٦ ، فإذا بالقوة التى صنعها النظام لحمايته من الجماهير – الأمن المركزى – تنقلب هى عليه ،

فتشهد الشوارع ، لأول مرة متظاهرين من جنود الأمن المركزى ، لكن لا لأسباب سياسية ، وإنما لأسباب مهنية خاصة بأوضاعهم التى لم تكن جيدة ، خاصة الجنود ، لكن نزول الجيش إلى الشارع ، أعاد جنود الأمن المركزى إلى معسكراتهم ٠

وتشهد السنوات الأخيرة من العقد الأول من القرن الحادى والعشرين حركات احتجاج فى الشارع المصرى ، تختلف نوعيات القائمين بها اختلافا بينا ، فالوقود الأساسى للمظاهرات عبر التاريخ المصرى ، وهم الطلاب ، يغيبون عنها بصورة لا تخطئها عين ، ذلك لأن السلطة قد نجحت إلى حد كبير فى محاصرة طلاب الجامعات المصرية ، منذ عام ٢٠٠٠ ، حيث كانت الانتفاضة الفلسطينية التى عرفت بانتفاضة القدس ، فإذا بكل جامعة يحيط بها جنود الأمن المركزى بسياراتهم المصفحة المقيمة يوميا ، ومعهم ضباطهم وأسلحتهم ، الجميع فى حالة تكشير دائم عن أنيابهم لكل من تسول له نفسه من الطلاب فى التظاهر والاحتجاج !!

وحركات الاحتجاج التى يشهدها الشارع المصرى منذ عدة أسابيع ، معظمها غير سياسى ، وإنما لأسباب معيشية بالدرجة الأولى تتخلص فى تلك الهوة التى أصبحت قائمة بين دخل الفرد ، ومتطلبات المعيشة ، ولو ضربنا مثالا واحدا من حياة الكاتب الشخصية ، ومثله فى ذلك مثل آلاف ، فقد كان المرتب الذى أتقاضاه كخريج جامعة عام ١٩٦١ هو ثلاثة عشر جنيها ونصف ، وكانت تكفينى فردا ، بل وأقتطع من المرتب جزءا لإعانة الأب والأم ، فإذا ما نظرنا إلى أجر خريج الجامعة اليوم ، نجد أنه رغم ارتفاعه عن مرتب الستينيات لا يكاد يكفى أسبوعا ، لو كان ينفق على أسرة ، والتفسير ليس صعبا ٠٠إنه الارتفاع فى تكاليف المعيشة الذى زاد بمعدلات تفوق معدلات زيادة الدخول ، أو هو الانخفاض الذى حدث فى قيمة العملية النقدية ، وهو كذلك فى استحداث مطالب معيشية لم تكن قائمة ، فالمحمول لم يكن قائما منذ عشر

سنوات فما قبل ، وهو يشكل بندا رهيبا فى الاستهلاك ، ولم تكن الدروس الخصوصية بهذه الدرجة من الضراوة ٠٠٠وهكذا ٠

لقد أصبح عنوانا متكررا فى الصحف يوميا : اعتصام عمال ٠ ٠وقفة احتجاجية لموظفى ٠٠٠التهديد بإضراب عمال ٠٠٠وهكذا

مع ملاحظة أن الصحف الحكومية غالبا ما تتجاهل مثل هذه الظاهرة ، وربما تشير إلى أى منها عندما تنتهى ، أو عندما تستجيب الدولة لمطالب أصحاب الإضراب أو الاعتصام !!

وقد نشرت جريدة الدستور فى عددها الصادر فى ٢١ مارس ٢٠٠٨ تقرير عن هيئة الإذاعة البريطانية " ب٠ب٠سى " رصد كاتبه جانبا من الأنشطة الاحتجاجية لحركة " أطباء بلا حقوق " مشيرا إلى توحد أعضاء الحركة فى مطالبهم بغض النظر عن أى انتماءات دينية أو سياسية ٠

ويشير الكاتب إلى أنه مع تصاعد حركات الاحتجاج فى المجتمع المصرى يشعر الحكم فى مصر بمزيد من القلق ومشهد رجال الشرطة وعناصر الأمن فى زى مدنى من فوق مبنى نقابة الأطباء وهم يراقبون الأطباء المتظاهرين هو مشهد مؤثر ، فهم يشعرون بالملل بينما ينقلون المعلومات عن المظاهرة إلى مسئولى الأمن عبر أجهزة الهواتف النقالة ٠

ويكتب الكاتب أنه كان قد شاهد من قبل كيف تصدى رجال الأمن للمتظاهرين بطريقة " وحشية " مستخدمين الهراوات ضد المطالبين بالديمقراطية ، وقد تعلم المتظاهرون عدم مقاومة الاعتقال لتفادى الضرب فى الشارع رغم أنهم يعلمون جيدا أن الضرب فى أقسام الشرطة قاس جدا ٠

وفى جريدة البديل ٢٠٠٨/٣/٧ نقرأ أن ائتلاف القوى الوطنية بالبحيرة نظم وقفة احتجاجية بميدان الأوبرا الجديد بدمنهور للتنديد بالمجازر التى تحدث فى غزة والتنديد بغلاء الأسعار ، شارك فيها جور إسحقاق وعبد الحليم قنديل (من حركة كفاية) ، ونددت الهنافات بالتخاذل العربى والتطبيع مع إسرائيل

وسط مجازر فلسطين المحتلة . وأضاف المحتجون في هتافاتهم التنديد بالأوضاع الداخلية وزيادة الأسعار وحماية الفاسدين ، وقالوا " أوبرا إيه أوبرا إيه ؟ كيلو العدس بعشرة جنيه " .

وتذكر الجريدة أن الائتلاف يضم العديد من أعضاء مختلف الأحزاب التي توصف بالمعارضة .

وفي عدد واحد من جريدة البديل (٢٠٠٨/٣/٢٤) نقرأ عن عدة مظاهرات وإضرابات في مواقع مختلفة ، منها على سبيل المثال تظاهر العشرات من النقابيين والعمال الذين تعرضوا للاضطهاد من إدارات شركاتهم ومن التنظيم النقابي الرسمي أمام مجلس الشعب يوم ٢٣ مارس ، ورفع المتظاهرون لافتات تقول " لا للتعسف ضد عمال شركة أطلس بسبب مطالبهم ، ولا لوقف نشاط النقابة وتنازل النقابة عن حقوق العمال ببنك المصرف المتحد ..." إلخ

وكذلك موضوع آخر عن إضراب ١٢٠٠ سائق وفني ومحصل وحرفي عن العمل في اليوم نفسه ، ٢٣ بمشروع النقل الداخلي بمدينة الزقازيق وسيارات النقل للمراكز بالشرقية التابعة للمشروع بالمدينة للمرة الرابعة ، وقالوا إن إضرابهم جاء احتجاجا على انخفاض الرواتب وعدم وجود علاوة وضياع مستحقاتهم المالية بالمقارنةمع أقرانهم السائقين بالقطاع الخاص .

وخبر آخر يتعلق بما شهده حي أبو سليمان الشعبي التابع لدائرة قسم الرمل ثان بالإسكندرية حيث شهد تظاهرة ليلية بعد صلاة العشاء ورفع المتظاهرون لافتات نددوا خلالها بالغلاء الفاحش وارتفاع أسعار كل السلع الأساسية . وهتف المتظاهرون ضد النظام الحاكم وطالبوا برحيله عبر هتافهم " ياالله ياالله شيل الظالم واللي معاه " . وفوجئت أجهزة الأمن بخروج المظاهرة ولم يجدوا وسيلة لفض المتظاهرين سوى قطع التيار الكهربائي تماما عن

الشارع الذى تظاهروا فيه ، حتى عجز المتظاهرون عن رؤية بعضهم بعضا ، مما أدى فض المظاهرة ، وبعدها عاد التيار الكهربائى !!

أسماء الشوارع :

فمن المفروض أن تكون هناك قاعدة متفق عليها لتسمية الشوارع ، وغالبا فإن المعيار الشهير هو " الوزن التاريخى " لصاحب الاسم الذى يطلقونه ، ويكون هذا غالبا بالنسبة للقدماء من أعلام التاريخ ، لكن الأسماء التى تتعلق بمحدثين أو معاصرين ، فغالبا ما يحكمها النفاق السياسى إلى حد كبير ، ولو تأملنا – مثلا – فى اسم محطات مترو الأنفاق فى القاهرة ، فسوف نجد أن عملاقا مثل جمال عبد الناصر يطلق اسمه على محطة فرعية قياسا لمحطتى رمسيس والتحرير ، حيث حملتا اسمي الرئيس الحالى ، والرئيس السابق ، الذى بدأ مشروع المترو فى عهده ، وقس على هذا اسم أحمد عرابى ، وسعد زغلول .

وهناك أسماء ارتبطت بالمسمى نفسه ، مثل " باب اللوق " فى القاهرة ، فأرض اللوق هذه كانت تغمرها مياه النيل أيام الفيضان ، ثم تنحسر عنها فتتركها لينة لا تحتاج إلى " حرث " ، تماما مثل أراضى الحياض فى الصعيد التى كانت تغمرها مياه الفيضان شهور الصيف ، ثم عندما تنحسر عنها المياه تصبح أرضا صالحة تماما للزراعة ، وهى ما كنا نسميها الزراعة الشتوية ، قبل إلغاء نظام رى الحياض وتحويلها إلى نظام للرى الدائم بعد السد العالى .

هذه الأرض اللينة كانت " تلاق لوقا " ، أى تبذر فيها البذور ويضغط عليها بألواح خشبية حتى تغوص البذور داخل الأرض ، التى لم تكن بحاجة إلى الرى حتى تمام نضج النبات بسبب المياه التى تشبعت بها التربة خلال شهور الغمر طوال الصيف .

هذا أحد تفسيرات مختلفة لسبب التسمية .

وقد يكون سبب التسمية أن صاحب الاسم شخصية علمية قدمت إنجازات علمية تستحق التقدير ، مثل شارع الفلكى بالقاهرة ، نسبة إلى محمود باشا الفلكى الذي ولد عام ١٨١٥ ، وشارع على باشا إبراهيم ، عالم الطب الكبير ، والذى ترأس الجامعة المصرية (القاهرة) فترة من الفترات .

لكن السياسيين هم أصحاب القدح المعلى فى تسمية الشوارع ، مثلما نجد شارع محمد على ، وشارع نوبار ، وشارع عدلى ، وشارع يوسف الجندى ، وشارع كلوت بك ، وشارع شريف باشا ، وشارع محمد بك الألفى ، وشارع طلعت حرب ، وشارع سليمان باشا ، وشارع محمد فريد ، وشارع عبد الخالق ثروت ، ومعظم هذه الشوارع ، بوسط القاهرة .

ومعظم هؤلاء من زعماء العصر الحديث ، لكن هناك شوارع متعددة تحمل أسماء زعماء من العصور الإسلامية ، مثل شارع المعز لدين الله ، وشارع السلطان الغورى ، وشارع أحمد بن طولون ، وشارع طومنباى (بالزيتون) .

واشتهرت بعض الشوارع فى القاهرة الإسلامية بأسماء فئات من أصحاب الحرف والمهن المختلفة ، فنجد : القفاصين ، والمغربلين ، والنحاسين ، والحيامية ، والصنادقية ، والكحكيين ، والفحامين ..وهكذا

وورثت بعض الشوراع اسما مسبوقا بكلمة (خان) ،والتى تعنى وكالة تجارية أو " دكان " ، ومن هنا نجد (خان الخليلى) ، و(خان جعفر) و (خان أبو طاقية) .

ومن الملاحظ أن الثقافة الشعبية لها موقف مما يحدث من تغيير لبعض الأسماء وفقا للتغيرات السياسية ، لعل أبرز مظاهره هو مقدار السهولة واليسر ، ففى الوقت الذى تقبل الناس فيه الإسم الجديد لميدان الخديو إسماعيل عندما غيرته ثورة يوليو إلى " التحرير " ، حيث هذا أسهل من الأول ، لم يتقبل أحد

تغيير اسم شارع فؤاد (الملك أبو فاروق) ليقولوا شارع ٢٦ يوليو ، واستمر الناس حتى الآن يقولون بشارع فؤاد ، إلا الجهات المعاملات الرسمية .

وتقبل الناس تغيير اسم الميدان الشهير " باب الحديد " ليصبح (ميدان رمسيس) ، لا لأسباب قومية تاريخية بقدر ما أشرنا إليه من حيث سهولة النطق .

متفرقات :

ويزخر الشارع بعدد آخر من الظواهر التى لها من غير شك دلالاتها الثقافية والتربوية نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :-

- فهناك عدة فئات تسعى إلى التكسب وتتخذ من الشارع موقعاً لها ، فهناك فئة الشحاذين ، والحق أنها موجودة فى مجتمعات عديدة حتى المتقدم منها ، ربما يظهر الفرق عندما تجد شحاذين فى بعض المواقع بمدينة لندن أو بعض المدن الكبرى فى الولايات المتحدة ممسكا آلة موسيقية واضعاً أمامه صندوقاً ليضع فيه المارة ما يجودون به من نقود ، على الرغم من أن أحدا لا يقف لكى يسمع ما يعزفه الشحاذ الفنان ، لكن شحاذينا يغلب عليهم استخدام عاهة أصابتهم سواء كانت هذه العاهة حقيقية أو مصطنعة ، كذلك يستخدمون صغار الأطفال ليستدروا عطف الناس وخاصة إذا كان الشحاذ امرأة ، وربما يمسكون بشئ رخيص الثمن راجين إياك الشراء منه وهم واثقون أنك ستدفع الثمن دون أخذ هذا الشئ (كيس صغير مثلا لبعض المناديل ، أو كتيب صغير به بعض الأدعية أو الآيات القرآنية ..وهكذا) .

وكبار السن قد لا يحتاجون إلى استخدام وسيلة ما على أساس أن هذا الكبّر يحتاج إلى الشفقة والعطف .

وربما يصيح الشحاذ بأنه مضطر إلى إجراء عملية كبيرة تتكلف مئات الجنيهات على أقل تقدير ، وغالبا ما تتجاوز بضع آلاف ،وهو يريد استكمال ما

معه من مال من أولاد الحلال ،ومثل هؤلاء لا ترى ثيابهم رثة أو من ذوى العاهات ، حتى يُكسبون دعواهم مصداقية تضغط عليك بالدفع ٠

والشحاذ كما تدل روايات كثيرة يكسب بدرجة جيدة ، لكن غير وارد أبداً أن يقتصر الواحد منهم على ما كسب خلال فترة ليستغل حصيلة ما كسبه فى عمل صغير لا يقتضى منه جهداً بدنيا يدر عليه كسبا مستمرا .

وانتشار هذه الظاهرة بشكل زائد إنما يشير إلى معان متعددة ، إنها النصب والاحتيال ، ومنها التواكلية والاعتماد على الآخرين ، ومنها ضعف التكافل الاجتماعى فى المجتمع ، ومنها قلة الاكتراث بقيمة الإنسان وعدم اعتداده هو نفسه بكرامته الشخصية .

وعندما شرعت فى إعداد الدراسة للنشر فى الكتاب الحالى وجدت على موقع (المصريون) الإلكترونى ، فى ٢٠٠٧/١٢/٢٩ ، خبرا عن تقرير لمنظمة العمل الدولية يفيد أن مصر يوجد بها مليون متسول ينتشرون فى الأماكن والمواصلات العامة وأمام أماكن العبادة ، دخلهم اليومى لا يقل عن ٣٠٠ جنيها ،وتبدأ أعمارهم من السادسة ٠

وأكدت مصادر بوزارة الداخلية ل " المصريون " أن العام الحالى (٢٠٠٧) شهد أكثر من ١٩ ألف قضية تسول فى القاهرة فقط ، مشيرا إلى أن صورة المتسول فى مصر اختلفت كثيرا عن زمان ٠وأوضح أن المتسولين أصبحوا يبتكرون طرقا جديدة للتسول ، حيث كانوا يتسولون أمام المساجد الشهيرة مثل السيدة زينب والسيدة نفيسة والحسين ، لكن تغيرت الصورة ، حيث تجد فتاة ترتدى ثيابا أنيقة تقف فى الطريق وتستوقف المارين مؤكدة لهم أنها فى غاية الأسف لأن فلوسها ضاعت منها وتريد السفر إلى الإسكندرية ، مثلا ٠ وقال إن أخطر أنواع التسول هو تسول الأحداث ، وتتجلى أحدث صوره فى قيام أطفال يرتدون زيا مدرسيا ، حيث يؤكدون أنهم بحاجة إلى نصف جنيه للأكل أو لشراء كراسة أو قلم !

بل لقد امتد التسول إلى مترو الأنفاق المعروف بأن أحدا لا يستطيع الدخول إليه إلا عبر بوابة إلكترونية تتطلب شراء تذكرة ، حيث أكد أحد مفتشى المترو أن المترو أصبح يعانى من ظاهرة التسول ، فأصبحنا نشاهد رجلا فاقد القدمين يسير وسط الركاب ويطلب المساعدة ، وآخر يرتدى نظارة سوداء على عينيه ويقول : ساعدوا عاجز النظر ! وأخرى ترتدى نقابا وحاملة لآيات قرآنية وتطلب المساعدة !

وإذا كانت شرطة المترو تلقى القبض على أعداد كبيرة من المتسولين بالمترو ، إلا أنهم يقومون بسداد غرامة عشرجنيهات فى النيابة ، ليخرجوا لممارسة التسول مجددا !

لكن هناك فئة أخرى بدأت تظهر فى السنوات الأخيرة من النشالين ، لقد كان المكان المعتاد للنشالين هو وسائل المواصلات مثل الاتوبيسات خاصة ومعظمها مزدحم ، لكن الفئة الجديدة فئة أكثر تقدما فقد يكون النشال راكباً دراجة عادية أو بخارية ويمر بسرعة البرق بجوار فتاة أو امرأة تكون سائرة ليخطف حقيبتها أو يشد بسرعة وعنف مجوهرات تلبسها حول العنق أو حول معصم اليد .

ومن هذه الفئات أيضا ، الباعة الجائلون بمختلف نوعياتهم ينادون على بضاعتهم . وهؤلاء فى تزايد واضح منذ عدة سنوات ، حيث تتفاقم مشكلة البطالة ، فضلا عن استخدام بعض ذوى المحلات أو الورش الصغيرة ": تسريح " مثل هؤلاء الباعة نظير أجر معين ،

ومنهم تلك العمالة (الرثة) حسب الاصطلاح الشائع ، وتتمثل هذه الفئة فيمن يقفون عند إشارات المرور كى يبيعون مناديل ورقية أو فوط أو يدعون تلميع زجاج السيارة فى لحظات وقوفها ... وهكذا .

وكثير من هؤلاء يمارسون عملهم داخل المواصلات العامة ، بحيث يمكن أن تجد من يبيع " سكر نبات " وينادى " سكر نبات يعطر الفم ويجلى الصدر "!

وقد يبيع الواحد منهم أقلام الكتابة التى قد يضعها فى صندوق خشبى صغير أو كيس كبير .

ومنها البومات لحفظ الصور أو حفظ البطاقات الشخصية ..إلخ

ومعظم هؤلاء يبيعون داخل المواصلات العامة إذ يصعد الواحد منهم الأتوبيس أو القطار يقوم بتوزيع بضاعته على كل راكب فى العربة ، أملا فى أن يدفع هذا الزبون للشراء ، ثم يعود " لِلَمّها " إذا لم يرغب الزبون .

وكثيرا ما يعرض البائع سعرا مرتفعا ، ثم ينبه إلى أنه ينزله إلى كذا ، لعل هذا يغرى بعض الزبائن ، ثم يظل يهبط بالسعر عدة مرات ، مما يدفع البعض فعلا للشراء ، ويظل سؤال : افرض أن أحدا اشترى بالسعر الأول ، ماذا يكون حاله ؟ يبدو أن الناس قد تعودت على هذا ، فلا تبادر بالشراء لأول سعر يعرضه البائع .

وعلى سبيل المثال ينادى البائع : " معانا الشيكولاتة المحشية ، اللى تكبر الشباب وتجوّز البنات ، مين يقول : هات ؟ ، الواحدة بنص جنيه والاتنين بجنيه . طيب ورسول الله وآخر كلام عندى ، هنبيع الأربعة بجنيه ، ويعوض علينا ربنا " .

وإذا كان الباعة الذين يقفون عند إشارات المرور وداخل المواصلات العامة يبيعون ما خف ثمنه ، ورخص سعره ، فإن هناك نوعية من السلع لا تباع إلا على الأرصفة أو من خلال عربة خشبية يجرها البائع بنفسه أو يستعين " بحمار " لجرها ، فمثل هؤلاء يبيعون عادة الفاكهة والخضروات ، وقد يبيع البعض ملابس جاهزة .

وتتنوع أساليب المناداة على السلعة ، فبالنسبة للكرنب ينادى (البلدى يا كرنب) ، وللطماطم عادة ما ينادى (مجنونة يا قوطة) ، حيث أن أسعارها متذبذبة بين ارتفاع وانخفاض مما دفعهم إلى وصفها بالمجنونة !

ولأن " الثوم " عندما يباع عاة ما يكون " أخضرا " يشتريه الناس في موسم معين ، ثم " يخزنوه " ويكون ذلك "بتعليقه " في البلكونة ، حيث الهواء الطلق ، مما يحول بين رائحته النفاذة وبين أن تملأ الشقة السكنية ، ومن هنا ينادي بائعه بقوله (بتاع الخزين يا ثوم) !

وينادي بائع الباذنجان الأسود غالبا قائلا : " يا أسود بس قلبك أبيض يا باذنجان " !!

وأحيانا ما يعمد البائع إلى السجع من أجل لفت النظر إلى سلعته ، فينادى مثلا (قرب قرب قبل ما نشطب) ، و (بتلاتة ونص تعالى وبص) ، و (معايا الشيكولاتة اللى تعلم الألاطة) و (معايا الفلاية اللى تطلع الأملاية) !

وبائع الخضار والفاكهة الجائل قلما يسمح للزبون بأن ينتقى ما يريد ، لأنه فى كثير من الأحيان " يغش " سلعته ، فيظهر الكميات السليمة ذات المنظر المغرى أعلى " الكوم " أو " القفص " ،بينما يخفى تحت ذلك ما قد يكون غير طيب .

وغالبا أيضا ما يكون غير محدد السعر ، فكل زبون و " شطارته " ، ومن هنا يكثر " الفصال " وتشيع المساومة .

والجمهرة الكبرى من البائعين الجائلين أميين أو يكتفون بمعرفة القراءة والكتابة ، وربما منهم من يحمل شهادة متوسطة لكنه لا يظهر ذلك خجلا ، ولشدة حاجته إلى الجرى وراء الرزق .

وإذا كانت هذه الحرفة تكثر بسبب البطالة ، إلا أن هناك ما يغرى فى احترافها ، فهى لا تتطلب مؤهلات دراسية ، ولا تدريب ، فضلا عن أن ممارسها غير محمل بمطالب الضرائب والتصريحات والرخص الرسمية .

- الظاهرة الثانية هى الخاصة بالمعاكسات ... إنها ليست جديدة على شوارعنا وإن كانت قد تطورت فى أساليبها ومظاهرها بتطور الزمن ، لقد كان الانفصال واضحاً وحادا بين الجنسين ومن هنا فقد كان سير أنثى فى الشارع

مسيلا للعاب بعض الرجال كى يعاكسوها إذا كانت تسير وحدها بكلمات بسيطة ساذجة " يا باشا " ، " يا بدر منور " ... الخ .

لكن الاختلاط قد أصبح هو السائد وانكسرت حدة الحياء وكثرت وسائل الاتصال وفى مقدمتها التليفون ، وبدأ الفاكس يظهر على خريطة الاستعمال ، ولم تعد هناك حاجة لكتابة رسالة غرامية ومحاولة تسليمها لمحبوبة تسير فى الطريق، وازدحمت النوادى ومحلات الأكل وصالات الرقص والغناء ، والمقابلات أصبحت سهلة ، والحب الرومانسى والغرام الأفلاطونى بدأ يتوارى فأصبحت بعض المعاكسات عنيفة وسريعة وفاجرة وأبرزها الخطف والاغتصاب .

- وتتميز المساكن المصرية وخاصة المطلة على الشارع بكثرة الشرفات (البلكونات) ... صحيح أنها قد توجد فى بلد أخرى لكنها غالباً لا تستعمل إما بسبب الحرارة الشديدة للغاية ، وإما بسبب البرد القارص والأمطار الكثيرة ، لكنها فى مصر تعتبر " متنفساً " رئيسيا ومقوما لا غنى عنه لكل ساكن .

لكن المشكلة تكمن فى أن الكثيرين ينسون أن (البلكونة) هى منطقة مشتركة بين الخصوصية والعمومية ، فصحيح أنها جزء من الشقة السكنية فيتصور أصحابها أنهم أحرار يفعلون بها وفيها ما يريدون ، ولكنها مكشوفة للمارة ولكل الجيران وتطل على الشارع مما يحتم أن يدخل هذا فى الاعتبار .

ففى ليالى الصيف خاصة تمتلئ البلكونات بالرواد الذين يسهرون إلى ساعات متأخرة من الليل وغالباً يكونون جماعات ، يمارسون خلالها لعب الورق أو الطاولة أو الشطرنج ، أو غير هذا وذاك من تلك الألعاب الثنائية أو الثلاثية أو الرباعية ...

ولا بأس فى ذلك بطبيعة الحال ...

لكن البأس يظهر عندما ترتفع أصوات المتحدثين وقهقهاتهم ، وكثيراً ما تصحب هذه السهرات بمشاهدة التليفزيون ، أو الراديو فتخترق الأصوات

جدران وآذان كل المحيطين بالموقع الصاخب ... ونفس ما سبق أن أشرنا إليه عند الحديث عن ضوضاء الشارع يمكن أن يقال كذلك هنا .

ويصل الأمر بالبعض أن يتصور أنه جالس داخل الشقة فيجلس أو يتحرك فى البلكونة بالملابس الداخلية .

وللبلكونات وظيفة أخرى فى مصر ، فعبر (حبالها) ينشر الغسيل حيث يمكن أن تنزل قطرات ماء منه على آخرين فى طابق أسفل يطلون أو ينشرون غسيلا قارب على الجفاف ، وإن كان الانتشار التدريجى للغسالات الحديثة (كاملة الآلية) قد بدأ يجعل هذه الظاهرة تنحسر تدريجياً .

ومن وظائف البلكونات أيضاً أن منها يتم (تنفيض) السجاجيد بالمضارب الخرزانية فيتساقط غبارها على من هم أسفل وخاصة إذا كان هناك غسيل أسفل ، وتنشأ ألوان من الشجار بين السيدات ، لكن انتشار المكانس الكهربائية هنا أيضاً قد بدأ يزيل هذه الظاهرة سيئاً فشيئاً .

- وأيضا فإن نظافة الشارع مشكلة كبرى فى شارعنا ، ففضلاً عن تراخ واضح ومشهود للجهود المسئولة عن النظافة فإن كثيرين من المواطنين يساهمون فى تفاقم هذه الظاهره بما يلقونه دائماً من مخلفات فى الشارع ، فضلاً عما يسببه الباعة الجائلون ، وكثيراً ما تتساقط من جامعى القمامة أشياء يتركونها تزيد الشارع سوءاً .

وهذه القضية لا تحتاج منا إلى إفاضة فى بيان ما تتضمنه من مفاهيم وقيم واتجاهات تتعلق بالصحة والجمال والذوق والأداب العامة ، والنظام ، والشعور بالهدوء ، والحرص على الصالح العام وفرط من " الأنامالية " والتمركز حول الذات .

وما يلفت الانتباه المصحوب الغيظ أحياناً ، أننا نرى فى بعض اللافتات المحرضة على المحافظة على النظافة حرصا على أن تبرر ذلك أحياناً بضرورة أن تظهر مدينتنا نظيفة أمام (السياح) ! وهذا أمر طيب على كل

حال ، لكن السؤال هو : هل نطلب النظافة من إن هذا قد يعنى أنه إذا لم يكن هناك سياح فلا بأس من انتشار القذارة !

ولعل اختفاء التخطيط في مدننا بصفة خاصة يتيح الفرصة لشارع ذى عرض قصير للغاية أن ترتفع فيه العمارات العالية بدرجة لا تتناسب أبدا مع عرض الشارع ، مما يشكل ضغطا طبيعيا على إمكانات النظافة ، وبالتالى يتعرض للتلوث أكثر من غيره ٠

- وظهرت ظاهرة جديدة منذ فترة قصيرة ضمن وسائل المواصلات فى مصر ألا وهى ما عرف باسم " التوك توك " ، وهى ثلاثية العجلات ، تجمع بين وظيفة " الحنطور " الذى اشتهرت به بعض شوارع المدن الكبرى فى مصر ، وخاصة تلك المطلة على النيل ، وكذلك وظيفة الدراجة البخارية ، فثمنها ليس مكلفا مثل السيارة ، مما أتاح الفرصة لكثيرين ، وخاصة من صغار السن أن يقتنوا بعضها أو أن يعلموا لحساب آخرين ، مثلما يحدث بالنسبة لسيارات الأجرة ٠

وفى البداية حارت فيها وزارة الداخلية ، من حيث ما يجب عليها من ترخيص ، وخضوع للمحاسبة ، وخاصة أن من يقودنها صغار ، يفتقدون الحكمة والوعى والحرص ، لجدة الوسيلة وعدم وجود بند خاص لها فى قانون المرور ، وحاول بعض المحافظين منعها ومحاربتها ، لكنها قاومت وثبتت ، ذلك لأنها أثبتت أنها ذات وظيفة وجدوى بالنسبة لفئات بسيطة من الناس ، سواء من حيث أجرة الركوب أو ثمن الامتلاك ، أو يسر الحركة وخفتها ، فضلا عن تفاقم مشكلة المرور وخاصة فى القاهرة ، وتزايد حدة الأزمة كلما مر بنا الزمن دون حلول جذرية ، وهى ظاهرة مستوردة من إحدى البلدان الأسيوية ، ولعلها الهند ، إن لم تخنى الذاكرة ٠٠

وبعد ...

فما زال الشارع المصرى مليئاً بظواهر أخرى لا يتسع المقام للحديث عنها ، بل إن ما أشرنا إليه إنما هو لمحات عابرة (انطباعية) ، وكل منها يحتاج إلى دراسة علمية مستقلة تتناولها من جوانبها المتعددة اجتماعيا ونفسياً وتربوياً وثقافياً ، ولابد من أن نذكر هنا أن الزميل الراحل الدكتور حسان محمد قد قام بدراسة علمية عن الشارع باعتباره " وسيطا " تربويا لابد من أخذه بعين الاعتبار ، ونتمنى أن يجد باحث أو أكثر الجرأة التى تجعله ينظر إلى شارعنا باعتباره ظاهرة مجتمعية وتربوية فريدة تستحق البحث العلمى المنهجى الذى يستغرق وقتا طويلا ، سعيا نحو مزيد من التعمق والتحليل بحيث يمكن تحويل هذا الشارع من قوة سلب إلى قوة إيجاب ٠

العَــوَر الفــكرى*

الخالق القائل لعباده : (من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) ، والذى قال : (لكم دينكم ولى دين)، والذى قال : (لست عليهم بمسيطر) ، لابد أن يلتزم عباده بنفس النهج فيحرصوا على أن يحترموا موقف الآخرين الفكرى ، مهما كان مخالفا ، ومهما جاء مباينا ٠

وإذا كان هذا مما لابد أن نلتزم به ، فإننا نتوق شوقا كذلك إلى أن يلتزم بـــه الطرف الآخر إزاءنا ٠٠أن يحترم ما نؤمن به ونعتقد فى صحته ولا يسخر منه ٠٠٠

والسخرية قد تجئ باللفظ الصريح ، وقد تجئ بصورة أخرى ، تفرض ما لم يقله طرف ، وتعرضه بالشكل الذى تريد ، بالصياغة التى تهــوى ، وتختــار وتجتزئ منه ما تشاء ، كى يكون متهيئا للنقد والهجوم ٠

أقول هذا بمناسبة رسالة علمية شاركت فى مناقشتها ، وكـــان ممـــا تناولـــه الباحث موضوع بعنوان (الديموقراطية فى الفكر الإسلامى) ، فإذا به يعمد – فى الغالب والأعم :

أن يتحدث عن بعض المفكرين الإسلاميين ، من خلال ما كتب عنهم ، وليس من خلال كتاباتهم هم إلا فيما ندر ٠

خطورة هذا هو أننا لا نضمن أن من تحدث عنهم قد فهم من كتب عنهم مـــا قرأ فهما سليما ٠

ولا نضمن أنه لم يجتزئ مما قرأ فأشار إلى جزء وترك الآخر ٠٠

وسوف نأتى بأمثلة لذلك ٠٠

والأمر الثانى أنه اختار أفرادا بعضهم من العسير أن نتصور تمثيلهم للتيار

---

* جريدة آفاق عربية فى ٢٠٠٦/٩/٤

الإسلامى ، وترك آخرين هم أبرز من يمثل الفكر الإسلامى .

وخطورة هذا أن الممثلين الحقيقيين من عظماء المفكرين يحسنون عـرض هذا الفكر ، أما الممثلون من الدرجة الثانية أو الثالثة ، فلربما تخونهم عباراتهم أو تضعف لديهم الحجة والدليل ، ومن ثم يسهل الهجوم عليهم ، على عكس ما يمكن أن يحدث بالنسبة لعتاولة المفكرين .

ونجئ لبعض تفصيل :

بعد عنوانه الرئيسى (الديموقراطية فى الفكر الإسلامى) ، يجئ عنـوان فرعى : " الاتجاه الرسمى القابل للديموقراطية " !

توقفت أمام العنوان حائرا : ماذا يقصد بصفة الرسمية هنا ؟ إنها تعنى فـى الغالب والأعم ، موقف حكومة ودولة ، لكن كل الأسماء التى وردت تحت هذا العنوان من المستحيل أن تمثل رأيا حكوميا ، فمنهم الطهطاوى ، والأفغـانى ، ومحمد عبده ، والمودودى ، والقرضاوى ، وخالد محمد خالد !!

ومن معانى الرسمية أن يكون المفكر أو الكاتب ممثلا لتيار بعينه أو جماعة ينتمى إليها ، لكننى لم أجد واحدا من هؤلاء ينطبق عليه هذا إلا فيما ندر .

ويجئ التصنيف من هنا تشويها وإساءة فهم ، لأنك عندما تضع " أنواعـا " متعددة فى فئة واحدة ، لابد أن تشيع غموضا يضيع المعانى ، ويشوه الأفكار .

وهل الطهطاوى يمكن أن يكون زعيما للاتجاه الإسلامى ؟ ألا يتناوله عدد من المفكرين والكتاب باعتباره مؤسس حركـة التنـوير ، والمبـشر بالثقافـة الغربية؟ وهل كان هناك فى ذلك الوقت تصنيف إلى ما هو إسلامى ومـا هـو غير إسلامى ؟ لقد كانت مصر تعتبر نفسها بغير حاجة فى ذلك الوقت المبكـر لأن تعلن هويتها الإسلامية ، لأنها كانت كذلك عبر قرون طويلة من الزمان ، تماما كما لا يتحدث الإنجليز فى بلادهم عن هويتهم ، ولا الفرنسيين ولا الألمان ..وهكذا ، لأنهم قد استقروا منذ زمن طويل ، تماما كما كان الأمر فى مصر ، حتى إذا بدأ التغريب ، بدأ الاختلاف ، وبدأ كل يتصور الهوية كما يريد .

ويجيء ليقول أن محمد عبده – دون الاستناد إلى كتابات منه مباشرة ، وإنما نقلا عنه من مصدر آخر – فى محاولة للتوفيق بين المبادئ الإسلامية وبعض الأفكار الغربية أن يقابل مصطلح " المصلحة " ، بمصطلح " المنفعة " عند الغربيين ، وبأن " الشورى " تقابل الديموقراطية ، وأن الإجماع يقابل رأى " الأغلبية " ، فهل هذا صحيح ؟

" الإجماع " مصدر من مصادر التشريع يتصل بمسائل بعينها فيها احتمال انتقال من إيمان إلى كفر ، ومن حلال إلى حرام أو العكس ، وهو نادرا ما يتحقق إلا فى الأصول ، أما " الأغلبية " ، فهى شأن آخر يلجأ إليه فى معظم شئون الدنيا التى نود أن نتخذ قرارا بشأنها .

وهل يمكن أن تساوى فكرة " المصلحة " ، فكرة النفعية ؟ شتان بين الأمرين .. المصلحة في الفقه الإسلامى مصلحة الجماعة .. ومصلحة الدين ، والمنفعة في الفكر الغربي قد تكون منفعة جماعة ، وقد تكون مصلحة فئة ، وقد تكون مصلحة فرد ، وتقرير هذا أو ذاك يخضع لمساومات وتبادل منافع ، وآراء شخصية ، لكن تقرير المصلحة له شروطه الشرعية وضوابطه من القرآن الكريم والسنة النبوية .

وهو يسمى المجموعة المكونة من أمثال فهمى هويدى ، وأحمد كمال أبو المجد ، وطارق البشرى ، والعوا " الإسلاميين المستقلين " ، ولا أدرى مستقلين عمن ؟

التوصيف الذى يقولوه عن أنفسهم هو أنهم يمثلون تيار الوسطية فى الفكر الإسلامي ، حيث يضاف إلى الأسماء السابقة ، الراحل الشيخ محمد الغزالى ، والدكتور القرضاوى ، ومحمد عمارة .

مرة أخرى ... خطأ فى التصنيف ، من شأنه فى الغالب أن يؤدى إلى سوء الفهم والتقدير .

ثم يجئ إلى تصنيف آخر يعنون له ب (الاتجاه الأقل رفضا للديموقراطية) ، فى مقابل تيار اعتبره رافضا لها ، وهو الممثل فى جماعات العنف ٠

أعجب ما كتبه الباحث تحت هذا العنوان رأيا للراحل حسن البنا يرفض من خلاله الحضارة الغربية الحديثة " باعتبارها حضارة نصرانية وكافرة " ٠ والحق أقول أنى أشك كثيرا فى أن تصدر مثل هذه العبارة عن حسن البنا ، فضلا عن صعوبة تصور أحد يرفض الحضارة الغربية الحديثة هكذا على الإطلاق ، وإنما يقصد بعض المظاهر ٠

والأشنع كذلك أن يقول أن الشيخ " يرفض التعليم الحديث ويرفض المدارس الحديثة " ، فهل هذا معقول ؟ أم أنه ينقد أيضا بعض جوانبها ، أو بعض ما أدت إليها من سلبيات ؟ وأين النصوص الدالة على ذلك ؟

إن من الملاحظ أن من يكتبون عن التيار الإسلامى من خارجه ، خاصة إذا كانوا من موقف عداء ، يلجأون إلى أسلوب الاصطياد ، الذى يدفعهم إلى اقتطاع عبارة ربما جاءت ضمن سياق ، إذا انتزعت منه ربما تؤدى إلى معنى مختلف ، فيسهل الهجوم ويتحقق التشويه ٠٠٠

فليرفضوا الاتجاه الإسلامى كما يريدون ٠٠٠وليعتنقوا من الأفكار والآراء ما يؤمنون ، لكن ، بأى منطق ، وبأى منهج يتم تلبيس آراء الإسلاميين بزى يختلف عما قصدوه وأرادوه ؟

إن الشجاعة الحقيقية هى فى مناقشة الأفكار الصحيحة التى كتبها بالفعل هذا المفكر أو ذاك من الإسلاميين ، ومن خلال سياقات لابد أن تبرز ، ومناسبات لابد أن توضع فى الاعتبار ٠

كان موقف الباحث هذا مذكرا لى ، بموقف مشابه ، حدث منذ أكثر من عشرين عاما لتلميذ لى – وكان حاضرا المناقشة – عندما كنت أناقشه فى رسالته للماجستير ، فإذا بى أجده يكتب عن حسن البنا من خلال كتاب لقيادى ماركسى فى حزب التجمع ، كيف يكون هذا كلاما علميا ؟ كنت أقول له : لابد

أن تستند فى كتابتك عن البنا على ما قاله الرجل بنفسه ، ولك بعد هذا أن تقول ضده ما تريد ، والغريب أن هذا المنهج غير العلمى يبرر بأن الباحث لابد أن تكون له " إيديولوجيا " تكون هى المرجعية والحكم ... هذا صحيح ، ولكن وفق حدود ، فهل يستقيم مع العلمية أن يسمع قاض من شخص ما يقوله عن آخر دون أن يسمع لهذا الآخر - ما دام موجودا - بادعاء أن التحيز الإيديولوجى فريضة فكرية ؟ !

والأكثر غرابة أن يشير الباحث فى رسالته إلى أن هناك عددا من المفكرين الإسلاميين والكتاب يرفضون الديموقراطية وفكرة تطبيقها فى البلاد العربية ، ويعدد من هؤلاء المزعومين الدكتور محمد عمارة ! إن لم يكن هذا افتراء وكذبا ، فبالله ماذا نسميه ؟ وهو يشير إلى عمارة عدة مرات ، ولا يرجع إلى أى من كتاباته ، ودائما ، نقلا عنه !!

وآخر غرائب الافتراء القول بأن خالد محمد خالد ممن حاولوا التشكيك فى ديموقراطية الغرب في كتابه (الديموقراطية أبدا) !

إن هذا غير صحيح بالمرة ، فالرجل كانت قضية الديموقراطية بالمعنى الغربى تملأ عليه عقله ووجدانه ، وكرس لها العديد من الكتابات ، حتى إنه هو المثقف الوحيد الذى وقف أمام جمال عبد الناصر فى ذروة تألقه وزعامته ، وأمام المؤتمر الذى عقد لما سمى بقوى الشعب العامل عام ١٩٦١ أو ٦٢ ، يناقش ويدافع باستماتة عن مفهوم الديموقراطية السياسية معارضا ما كان يطرح عبد الناصر من ديموقراطية اجتماعية ، والتى أدت - فى التطبيق - إلى غياب معيب للكثير من صور حرية الرأى ، بحجة حماية البلاد من أعدائها .

مرة أخيرة ... ليس من الشجاعة وليس من العلمية ، وليس من الأمانة أن تأخذ رأيى الخاص مما يقوله هذا أو ذاك عنى ، وتقتطع منها ما تريد ، ثم تنقد وتناقش وترفض ... الشجاعة أن تقرأ ما أكتب ، ولا تقتطعه من سياقه وأن تناقشه وترفض عندها ما تريد وتقبل ما تشاء .

إدارة المقهورين* !

ليس القهر فقط بالسياط والرصاص والسجون والتعذيب ، وإنما قد يكون بمجموعة من القوانين والقواعد والإجراءات والنظم تشعر أمامها بالقهر ، حيث تصاب إرادتك بنوع من الشلل تقف أمامه دون أن تقدر على دفع ما يقع عليك من قهر ، فأنت لا تكون بمواجهة قوة بوليسية تقاومها ، ولا مطاردة تحاول أن تهرب منها ، وإنما وضع إذا حاولت التمرد عليه أُعتبرت مذنبا بالضرورة ، وحاق بك قهر أوسع وظلم أكبر .

كثيرا ما أكون سائقا سيارتى على الطريق الصحراوى بين مصر والإسكندرية ، وتكون السيارة فى حدود السرعة المسموح بها ، وهى المائة ، فأرى سيارات أخرى تسير بسرعة الصاروخ ، مما يزيد على المائة بالتأكيد ، وغالبا عندما أنظر إلى مثل هذه السيارات أراها من النوع الفخم ، على عكس سيارتى التى عادة ما يكون نوعها من النوع البسيط الذى يقف ثمنه عند الحدود الدنيا لأسعار السيارات ، فأتساءل بينى وبين نفسى : هل توقع جزاءات على مثل هذه السيارات الفخمة المتجاوزة لحدود السرعة المسموح بها بكثير؟

سيقول أولو الشأن : نعم ، وأقول : لن أصدق إلا إذا اطلعت على قائمة المخالفات وأجد من ضمنها ركاب هذه السيارات ، من الوزراء واللواءات والعمداء من الشرطة والجيش ، وكبار رجال الأعمال وأبناء كل هؤلاء ، وأنهم دفعوا الغرامات المقررة !

مثل هذا الحال سوف تجده دائما فى الدول التى يعيش شعبها فى حالة قهر ، لكن لن تجده أبدا فى الدول التى يتمتع فيها مواطنوها بما لهم من حقوق مثلهم فى ذلك مثل الوزراء وكبار رجال الأعمال وكبار ضباط الشرطة والجيش ،

---

* جريدة الوفد فى ٢٦/٩/٢٠٠٦

وعائلاتهم ، ولو دققت التأمل ، فسوف تجد أن الدول المقهورة شعوبها هى دائما متخلفة ، ضعيفة ، تابعة ، ذليلة ، وأن الدول الأخرى ، دائما متقدمة وقوية وذات سيادة حقيقية ٠

حتى شعوب المنظومة الاشتراكية سابقا ، والتى أوهمتنا بإحراز صور تقدم كبير عددا من السنين ، انكشف أمرها بعد سنوات ، فسقطت غير مأسوف عليها لأن مواطنيها كانوا قد سقطوا من قبل تحت براثن القهر والاستبداد ٠

إنها سنة الله فى خلقه ، لا يرتفع قدر دولة وإنسانها ذليل ، تحت الأقدام ...

وأرجو أن يتسع صدر القارئ الكريم لما أرويه اليوم ، فهو يدور حول قصة قصيرة للغاية ، يواجهها آلاف من المواطنين يوميا ، وقد استسلموا لها ، باعتبار هذا " نظاما " قانونيا لابد من الامتثال له ، وقدر لا قبل لهم بدفعه٠٠٠

ليس المهم اسم المكان ، وليس من المهم اسم هذا الشخص أو ذاك ٠٠٠وإنما المهم هو ما تحمله جملة الوقائع من دلالات ، وما تشير إليه من معان تؤكد على أن القهر يمكن أن يتخفى فى مجموعة ظروف ونظم وإجراءات وقوانين ومعاملات ٠٠

صاحبنا أستاذ جامعى كبير ، ترك سيارته التى مضت عليها سنوات طوال إلى ابنه المهندس يستعين بها فى حياته العملية والأسرية ، وأراد الإبن المهندس أن يريح والده الذى بلغ من العمر عتيا وأصبح يتوكأ على عصاه حماية له من عثرات الطريق ، من أن يجئ بنفسه للقيام بإجراءات تجديد رخصة السيارة ، فكان أن ذهبا سويا إلى إحدى إدارات المرور بالقاهرة لعمل " توكيل " إدارة وتشغيل سيارة ، ثم إذا بموظف الشهر العقارى يكتشف أن الرخصة قد مر على انتهائها يومان ، نسيانا وسهوا ، فطلب ما يسمى " شهادة بيانات " ٠٠٠

نزل الإبن إلى القسم المختص ، وكانت الساعة هى الثالثة ، والمفروض أن هناك فترة مسائية للعمل ، ففوجئ بمن يقول له : اليوم حرام فيه العمل للفترة

المسائية ، فلما سأل عن السبب ، قيل : علشان مؤتمر حزب الحكومة الذى ينعقد من أجل إسعاد المصريين !

طبعا كان الأب والإبن قد تركا أعمالهما التى يتعيشان منها ، فإذا بساعات تضيع ، وجهد يبذل هدرا بغير جدوى!

جاءا فى اليوم التالى ، فى العاشرة صباحا ...

وقف الأب على مدخل الصالة المخصصة لأعمال الرخص والشهادات مذهولا من هول ما رآه من ازدحام مخيف ، عدة شبابيك ، لا طوابير أمام كل منها ، وإنما مجموعة من البشر يكاد " يركب " كل واحد منهم الآخرين .. لا إعلان على أى شباك يعلن اختصاصه ، فيقف الداخل حائرا : إلى من يتوجه ؟ فيضطر إلى محاولة اختراق الجمع الحاشد عند أول شباك ليسأل : أنا عايز أعمل شهادة بيانات ، أروح لمين ؟ وأمواج من البشر تسيل إلى الداخل ، وأمواج منهم تسيل إلى الخارج ، وكل منهم لابد أن يتدافع فيصطدم كل دقيقة بغيره ، لا فرق فى ذلك بين عجوز بعكاز مثل الأب المسكين ، ولا بين سيدة أو آنسة أو سيدة عجوز !

ثم غلالات من دخان السجائر فى هذا الزحام الكبير ، مع مئات الأنفاس ، وروائح العرق المعطر بالغبار والرطوبة والأجساد المتهالكة المتدافعة ...

تذكر الأب عندما جاء لأول مرة إلى نفس المكان منذ عام ١٩٧١ ، حيث امتلك سيارة شعبية لأول مرة ، ولم يلحظ أى درجة من التطوير والتقدم ، بعد مرور خمس وثلاثين سنة ... انهار فيها الاتحاد السوفيتى والدول المتحالفة له ، وظهر النظام العالمى الجديد ، وكثر الحديث فيها عن العولمة ، وثورة المعلومات ، وثورة الإلكترونات ، وما بشر به حزب الحكومة من " فكر جديد " ..

آسف ، لقد تنبه الأب أخيرا إلى بعض مظاهر التطوير ، إذ لاحظ أن الأرض أصبحت من الرخام أو السيراميك ، وأن الأنوار أصبحت " نيون " ،

وأن هناك تلفزيونا كبيرا معلق على الجدار ، طبعــا لا يعمــل ، لأن أحــدا لا يجلس ليتفرج ، فالجميع يلهثون جريا ، وصعودا وهبوطا وراء ورقة ، أو ختم ورقة ، أو شراء لورقة ...

كان الإبن يقف فى الطابور حيث لا يتحمل والده ذلك ، حتى إذا جاء دوره ، نادى والده ليحل محله أمام الشباك ..طبعا ، عدة مرات ، كان يحدث فيهــا دائما ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ...

فى وسط هذا الزحام المخيف ، حيث لا نظام وإنما تكدس وتدافع ، والكثير من أدخنة السجائر ، ورائحة العرق ، تجد الباب يفــتح تلقائيــا للكثيــر مــن السلوكيات المؤسفة ، فكل فرد يقف على أعلى درجات التوتر والنرفزة ، فــلا تسامح يطرح على الساحة (فقط يطرح عندما تضربنا إسرائيل أو تفتــك بنــا أمريكا) ، فتكون التربة مهيأة لسوء العلاقات ، ويكن الجو مهيأ بشدة لاستخدام الوساطات ، حتى ينقذ الفرد من العذاب ، وتكون الجيوب مفتوحــة لتــصدير الرشوة وأخذها ، تحت شعار " يا روح ما بعدك روح " ، واحتمالات ضــياع نقود وأوراق !!

مر ما يقرب من الساعة والنصف ، لا أريد أن أغرق القارئ فيما مر بــه الأب العجوز ، الأستاذ الكبير ، الذى علّم آلافا لا فى مصر وحدها وإنما فــى بلدان عربية كثيرة ، من عذابات ، كان أثناءها يقف " غلبانا " أمام هذا الموظف وذاك ، مطيعا ، لا حول له ولا قوة ، حتى عندما صاحت موظفة فى وجهه – حيث أتاها عدة مرات – يا أخى إنت زهقتنى – بنبرة زاعقة وحادة ، لم يكــن ينقصها إلا أن تمد يدها لتصفع الأستاذ الجامعى الكبير !

دفع الأب الأستاذ – مثل غيره – واحدا وثمانين جنيها سعرا لشهادة البيانات ، ونظر فيها فوجد أنها مجرد ورقة كتبت عليها نفس البيانات التى على رخصة السيارة ؛ وتساءل بينه وبين نفسه : لماذا هذا العذاب كله من أجل بيانات هــى مدونة بالفعل على رخصة السيارة ؟ وما حجم وقيمة السلعة التى تــستحق أن

يدفع عليها كل هذا ؟ بالنسبة إليه ليس المبلغ صعبا ، ولكن يظل التساؤل مشروعا : مجرد خمس أو ست معلومات ، كل منها جملة تقل عن نصف سطر : ما الجهد المبذول الذى يستحق دفع هذا المبلغ ؟ لكنك لا تستطيع إلا أن تدفع صاغرا !

وبعد ساعة ونصف أخرى ، عندما وقف فى المرحلة الأخيرة أمام موظفة التوثيق يسألها : أليست هذه البيانات التى طلبتموها ودوختونا يومين وعشرات الجنيهات والعذاب وتضييع ساعات طويلة وتوتر أعصاب هى نفسها البيانات المدونة على الرخصة ؟ فتجيب : لأن الرخصة انتهت منذ يومين ، فيجيبها : لكن بيانات السيارة هى هى لم تنته مدة صلاحيتها ؟ فسكتت الموظفة ، ربما لأنها لا تملك إجابة ، غير : النظام كده !

مرة أخرى ، أعرف أن القصة عادية ، وأنها تتكرر يوميا لآلاف من المواطنين ، لكن ما أردنا إبرازه ، هو ما تحمله من دلالات تنبئ بأن النظام ، فى بعض قواعده ، يحمل فى طياته قهرا للمواطنين ، وتكراره ، ومرور الآلاف به يوميا جعله أمرا عاديا ، فلقد ألف الموطنون أن يعيشوا قهرا ، دون أن يشعروا بأنهم كذلك ، وهذا أقصى درجات القهر .

وإذا كانوا يقولون : معظم النار من مستصغر الشرر ، فإننا هنا نردد كذلك : إن الاستسلام لأقصر وأبسط مواقف القهر ، هى التى " تعود " المواطن على القهر الأكبر !

فى ظلال القهر ،
تزدهر الفردية* ••

ليست الفردية دائما أمرا مرذولا ، ففى مجال الإبداع والابتكار ، نجد أن العمل كلما كان " متفردا " كلما كان " أصيلا " • وفى التعليم الحديث ، هناك سعى نحو ما يسمى ب" تفريد " التعليم ، بمعنى ألا يتم التعليم بهذا الشكل التقليدى " جماعيا " داخل قاعات الدروس ، فالطلاب مختلفون فى القدرات والاستعدادات والميول ، ولابد من وسيلة ما بحيث نقلل من " الجماعية " ونتيح الفرصة لكل فرد أن يتعلم وفق قدراته واستعداداته وظروفه •

وفى الرأسمالية ، تبرز الفردية عاملا من عوامل النجاح ، والشعار هنا " الزبون على حق " ، وقد جربت بلدان كثيرة فكرة القطاع العام ، فثبت أنه أقل كفاءة إنتاجية ، وأن الإنسان كلما شعر بأن القرش سوف يدخل جيبه هو وأن الخسارة سوف تخرج من جيبه هو ، كان هناك حرص أكثر على مزيد من الإنتاجية وحرص أكثر على ترشيد الإنفاق وتجنب الخسارة •

والمسئولية فى المحاسبة يوم القيامة سوف تكون " فردية " :

(وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (٨٠)) سورة مريم •

(وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥)) ، سورة مريم •

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) سورة الأنعام ، الآية ٩٤

تلك صور ومجالات ، نقدر فيها الفردية ونرفع من شأنها •••

لكن الفردية التى نقصدها هنا هى تلك التى تتضح بالأنانية والاعتماد على الحل الفردى ، والتمحور حول الذات ، التى تعبر عنها العبارة الشهيرة " يا أرض ما عليك قدى " !! ، و " ياللا نفسى " !!

---

* جريدة المصريون الإلكترونية ، فى ٢٠٠٧/١٠/٣

فى تشبيه مشهور ، أنك إذا أردت أن تعرف أخلاق شعب وطبيعته ، انظر إلى حالة المرور فى شوارعه ، فسوف تجدها تمثل نموذجا جامعا شاملا مجسدا ينطق بالصدق والصراحة !

ومن هنا انظر إلى حالة سائقى السيارات ، وكأن كل واحد يرى الشارع وقد شق ورصف من أجله هو ، لا يريد أحدا أن يسبقه ، يمكن عند إشارة أن يجئ من أقصى اليمين ليدخل شمالا ، معطلا عشرات غيره ، ويعجب إذا احتج غيره ، ولم لا ؟ فهو لابد أن يكون مقدما على غيره !

وانظر إلى هذا الذى لا يلتزم مسارا موحدا وإنما هو يسير بالتواءات بين السيارات ، لا من أجل كسب وقت ، وحرص على الزمن ، وإنما لأنه يرى أن الكل يجب أن يخلى له الطريق حتى يتقدم هو ، وربما يخطئ المراقب من غير أهلنا فيتصور أنه يريد أن يكسب وقتا ، مثل سيارات الإسعاف والنجدة ، كلا ، إذ ربما نراه بعد ذلك ، يجلس على مقهى يلعب الكوتشينة أو الطاولة ، ويشرب الشيشة ، أو مسترخيا فى بيته يقزقز لبا ويشاهد مسلسلا !!

تكون هناك جمعية علمية تسعى إلى إثراء تخصص معين بالفكر والبحث والدراسة ، من خلال قنوات معروفة مثل المجلة المتخصصة ، والمؤتمرات والندوات ، والمفروض أنه كلما تجمع أصحاب التخصص كلما زاد التجمع قوة وزاده ثراء ، لكنك تفاجأ يوما بعد يوما بشخص آخر ، من نفس الدائرة ، يقوم بإنشاء جمعية أخرى ، وقد تتصور أن فى هذا تعددا يثرى المجال ويغنيه ، لكن ، كلا ، فهو يكرر ما هو قائم ، ولا ينفرد بأسلوب جديد أو فكر مستحدث أو منهج مبتكر ، وكأن لسان حاله يقول : ولم لا أكون أنا أيضا رئيسا لمجلس إدارة ، ورئيسا لتحرير مجلة ، ومنظما لمؤتمرات ؟ !

وهو الأمر نفسه الذى تجده عندما يجتهد إنسان ما فينشط فى مجالات متعددة ، ويلتف حوله المريدون والناس ، ويتردد اسمه فى المحافل ، ويكسب كل يوم خطوة إلى أمام ، فلا تجد بعض الكبار يؤازرونه ، وإنما يتصورون أنه

ينافسهم ، وأنهم لابد أن يظلوا هم الأعلام الكبار المنفردون فيحاربون ويشوهون وينثرون الأقاويل حتى يحكموا محاصرة الناجح ، فتبتهج قلوبهم !

منذ سنوات ، عندما كان هناك بعض احترام للممارسة الديمقراطية التى تعطى أعضاء هيئة التدريس الحق فى اختيار عميد الكلية ، أعرف واحدا كان من أمهر ما يمكن تصوره فى القيادة والإدارة وقوة الشخصية والسرعة فى الحسم والحزم ، صاحب " كاريزما " واضحة ، يمكن أن يقود كليته بنجاح باهر ، لكن للغرابة تجمعت قوى كبرى متعددة مستهدفة إفشاله ، وتم لهم ما أرادوا ، حيث الاتجاه إلى اختيار من يجيد الطاعة والاستماع لغيره ، لأن المقصد ليس هو " الجماعة " و " المؤسسة " وإنما هو لهذا وذاك من أصحاب المصلحة الفردية ...

أمثلة كثيرة ، لا أظن أنى أنفرد بها ، ففى جعبة كل منا ربما عشرات المواقف والأمثلة التى تؤكد هذه النزعة الفردية الغالبة ، حتى شاعت مقولة محزنة ، تؤكد على أننا ننجح فرادى ونفشل مجتمعين ، وذاك إسفين كبير يصيب الجماعة الوطنية بأضرار جسيمة ويقعدها فى الصفوف الخلفية فى النهوض الحضارى .

فى يقينى أن العلة الأساسية فى تمكن هذا المرض الاجتماعى الثقافى فى الجسم المصرى هو أنه يعيش قرونا بعد قرون تحت وطأة القهر والاستبداد ، فعندما تشتد وطأة الظلم ، وتقوى سواعد القاهرين ، وتدوم ضربات السياط تلهب ظهور المقهورين ، يتمحور التفكير حول الذات وكيف يمكن أن تخلص من سياط الجلادين وعِصِىّ القاهرين ، ويبرز الشعار الشهير " ياللا نفسى " !

وليت الأمر يقف عند هذا ، بل تتم تلك العملية التى يعرفها جيدا علماء النفس ، وهى " التوحد مع المعتدى " ، فلأن المقهور يعيش عذابا وظلما ، دون أن تتاح له فرصة رد الظلم ومقاومة القهر ، يعود إلى من يصغره مقاما وشأنا

ليرد الانتقام فى شخصه هو ، فيتحول إلى فرعون صغير ، فإذا " بالفرعنة " أو " القهر " تصبح نهجا مجتمعيا ، وبالتالى تترسخ النزعة الفردية •

والقهر المعزز للفردية لا يظهر فقط فى صورة اعتقال وسجن وتعذيب بدنى ، ولكنه يمكن أن يظهر فى صور مختلفة ، فأنت عندما تذهب إلى إدارة حكومية ، لتتبع ورقا لك يحتاج إلى توقيع هذا وذاك ، تسمع العبارة الشهيرة فوت علينا بكرة " ، ونسمى هذا " كسلا " ، بينما هو صورة من صورة ممارسة القهر ٠٠إن الموظف هنا يعيش مستنقع الظلم الاجتماعى ، ويتنفس هواء الاستبداد فى كل مكان ، ويجد نفسه عاجزا عن الرد ، فينتهزها فرصة أن تكون مصلحتك بيده ، " فيتأمّر " عليك وكأنه قد أصبح فرعونا كبيرا وأنت مضطر إلى أن ترضخ وتحايله وتدعو له وتبتسم ، وأنت داخل قلبك تريد إحراقه !!

فى سنة من السنوات ، كنت أستاذا زائرا فى جامعة أم القرى بمكة المكرمة ، وقيل أن هناك أستاذا سوف يأتينا من الإخوة السودانيين لينضم على الهيئة التدريسية ، فماذا فعل السودانيون الموجودون ؟

اجتمعوا معا ، ووضعوا أمامهم قائمة باحتمالات ما قد يحتاجه القادم الجديد ، ثم وزعوا المهام على كل واحد منهم ، فهذا عليه أن يبحث عن سكن جديد ، وذاك ومعه آخر ليشترى مستلزمات السكن من تجهيزات ، وهذا وذاك على امرأة كل منهما أن تجهز " طبخة " تحفظ فى ثلاجة القادم الجديد ، حتى لا يحمل هم إعداد الطعام فترة من الوقت ، وذاك لشراء " التموين " من سكر وشاى وصابون وزيت وما إلى هذا وذاك ٠٠٠إلخ ، بحيث جاء الضيف الجديد معززا مكرما ، لا بجهده الفردى الشخصى ، ولكن بجهد " الجماعة " التى ينتمى إليها •

عكس هذا – فى أغلب الأحوال – كان يتم بين المصريين – إلا من رحم ربى – فلا مساعدة جماعية ، وإنما إذا وجدت ، فبصفة أيضا فردية ، من هذا

أو ذاك ، وأحيانا ، وليس دائما • بل وكل مصرى عمل فترة فى إعارة يعلم جيدا كيف أن وقتا طويلا من الفترة التى أمضاها ، لابد أن يكون قد استغرقها فى معارك شخصية سخيفة بين المصريين ، وكأنهم " الإخوة الأعداء " ، هذا يطعن فى ذاك . وهذا يدس لذاك ، وهذا يغتم إذا وفق غيره ••

وفى أثناء حديث بينى وبين أحد الإخوة السعوديين فى تلك الفترة ، جاء ذكر هذا الذى يحدث بين المصريين ، وكنت أبدى أسفى وحزنى ، فإذا بالزميل السعودى يعلق مازحا " هذا من كرم ربنا علينا ، فالمصريون هنا كثيرون ، ولو اتحدوا لأصبح لهم هم الأمر ولسنا نحن أصحاب البلد " !!

وفى مناخ القهر ، يتم الاختيار للمواقع والمناصب واللجان والمجالس ، لا وفق قاعدة علمية موضوعية ، وإنما وفق المعرفة الشخصية ، والرضا من " اللى فوق " ، والتوافق ، وتبادل المصالح ، وغير هذا وذاك من مواصفات كلها تخرج عن طريق الموضوعية ، وهذا من شأنه أن يزرع أخلاقيات النفاق والمسايرة ، وتصبح هناك " سباقات " تعتمد على المهارات الفردية فى المديح والمطاوعة وتقديم الخدمة لمن يعلو ، فتزدهر الفردية وتنمو ، ويتسع سوق النفاق !

ولقد خبرنا نحن فى الجامعات مثالا لذلك ، عندما كان هناك انتخابات لاختيار العميد ، فبعد إلغائها ، صار هناك تنافس مخز بين المشتاقين للموقع ، لا يكون من أسلحته : المكانة العلمية ، والإنجازات المهنية ، والكتابات الفكرية ، والقدرة على المناقشة والمطارحة ، والمهارة فى الاعتماد على المنطق ، والمهارة الإدارية والخبرة الفنية ، وقوة الشخصية ، وإنما الاعتماد على " من تعرف من بين أصحاب السلطة ممن لهم القدرة على اتخاذ القرار ؟ " •

لا يمكن أن ننكر استثناءات بحيث نجد الاختيار قد تم لمن يستحق ، لكن غالبا ما يكون هذا نادرا ، لأن المرض المزمن فى مصر هو هذا الذى يحدث من ضرورة " الرضا الأمنى " ، هذا الرضا الذى يمكن ترجمته إلى مفردات

كثيرة ، أبرزها ، ألا يكون المختار ممن يملكون فكرا مستقلا ،والأدهى والأمر – من وجهة النظر الأمنية – أن يكون صاحب فكر مخالف للسلطة الحاكمة ، حتى في أبسط الأمور وأتفهها !

فى مثل هذا المناخ الملوث ، يستحيل أن تبرز " المؤسسية " أو " الجماعة العلمية " ، لتكون هنا المقررة ، ولكن تبرز المهارات الفردية بالمعنى الشخصى الأنانى المتمثل فى الشعار الشهير (اللى تغلب به إلعب به) ٠

إن هذا المرض المجتمعى لهو أخطر فيروس يمكن أن يصيب الجسم الوطنى ، ولا خلاص منه إلا بالخلاص من حال القهر والاستبداد ٠

خدعوها فقالوا بتحريرها* !

لست بحاجة إلى سوق ما يصعب حصره من الأدلة والبراهين التى تؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن خلق الله للمرأة لم يكن بأية صورة من الصور ولا أى حال من الأحوال خلق عبد لسيد وإنما خلق " شريك حياة " ، وأن التمايز بين فطرة كل من النوعين هو تمايز يتيح فرصة أكثر للتكامل والتعاون لا للقهر والاستعباد والاستغلال ، تماما كما أدرك مفكرنا العظيم ابن خلدون ما بين أبناء البشر من تنوع واختلاف وتغاير ، وأن هذا يؤدى إلى نعم لا تحصى تجعل كل منا بحاجة ماسة إلى الآخر وأن أحدنا مهما أوتى من قدرات وإمكانات فسوف يظل فاقدا للكثير مما يتوافر لدى غيره .

أقول هذا بصفة خاصة وقد بلغت من الكبر عتيا ووهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ، حيث كنت أتصور كما يتصور كثيرون أننا ما دمنا قد تجازنا مرحلة المراهقة ، وكذلك مرحلتى الشباب وما يليها من نضج ورجولة ، وخفت الصوت الجنسى إلى حد كبير ، أن الحاجة إلى المرأة سوف تضعف بالتبعية ، خاصة وأنها نفسها تفقد القدرة على الإنجاب ، وتضعف بنيتها الجسمية بحيث لا تستطيع أن تقوم بأدوار عدة كانت تقوم بها من قبل ، فإذا النتيجة عكسية ، أن نشعر بالحاجة إليها أكثر ، وأنها بالتالى ليست مجرد مثيرة للشهوة ، وليست فقط مؤدية لأدوار منزلية ، أو حاملة أطفال ، وإنما هى تظل دائما طاقة حب وحنان ورقة ، ومصدرا يشع بإمارات العطف والرعاية ، وصدرا نريح عليه رؤوسنا طلبا للطمأنينة وراحة البال ، وكأن الواحد منا سفينة طال بها السفر فى ظل أنواء شديدة وعواصف رعدية طاغية ، وتحتاج إلى أن تحط رحالها عند ميناء الوصول .

---

* جريدة الدستور فى ٢٠٠٧/٨/١٩

لكن شرائح عدة من الرجال ، لا سامحهم الله ، تصوروا أنها خلقت فقط لتخدمهم ، وأنها مجرد موضع شهوة ، وحاملة للأولاد ، فانطلقوا يقهرونها ويستذلونها ويقسون عليها ، حتى شاع القول بأن المرأة تعيش محرومة من الكثير مما ينبغي أن يكون لها من حقوق ، وأن حياتها تقوم على القهر ٠ وعزز من موقف هؤلاء فهم مغلوط لمبدأ قوامة الرجل على المرأة المنصوص عليه في القرآن ، تلك القوامة التي لا تتضمن قهرا واستغلالا ، تماما مثلما نقول بمبدأ أن يكون للعمل أو للمؤسسة رئيس ، فإذا استبد هذا الرئيس وقهر وظلم ، فليس معنى هذا أن الرئاسة بطبيعتها تستتبع الظلم والقهر ٠

ثم إذا بأديبنا العظيم الراحل ، نجيب محفوظ في رائعته (بين القصرين) يساهم من حيث – ربما – لا يقصد في تدعيم المقولة الخاصة بأن المرأة تعيش معظم حياتها مقهورة ، نسلبها الكثير من الحقوق ونحاسبها حسابا عسيرا بينما لا يسري هذا المنطق على الرجال ، وذلك من خلال تصويره للسيد عبد الجواد في علاقته بزوجته أمينة ، فهو يفعل ما يحلو له حتى ولو كان سهرا وعربدة وسكرا ، بينما يرغى ويزبد لمجرد أن زوجته خرجت بدون إذنه ، حتى ولو كانت هذه الزيارة لبيت كبير من بيوت الله !!

وكما تحول اسم حاتم الطائي إلى صفة تدل على الكرم والأريحية ، تحول اسم " سي السيد " إلى صفة تشير إلى قهر الرجال للمرأة ، ولم يقر في ذهن الناس إلا سلبيات هذه الشخصية ، مع أن هناك إيجابيات لا يمكن أن تغفل ، فقد كان هذا الرجل المستبد ، يقوم بتوفير كافة احتياجات الأسرة ، ومن ثم لا تتعرض الزوجة للكثير من " المرمطة " في سبيلها ، هي نفسها صورة من صور القهر نغفلها ، وكان هو أيضا المسئول عن الأولاد ، وحماية الأسرة ٠٠٠وهكذا ٠

لا نقول هذا نفيا لما كانت المرأة تتعرض له من صور ظلم وقهر ، فتلك حقائق تاريخية واجتماعية لا ينكرها إلا جاحد ظالم لنفسه وللتاريخ والمجتمع

قبل أن يكون مشاركا من حيث لا يدرى فى ظلم المرأة ، وإنما هى محاولة منا لتعديد زوايا الرؤية ، هذا التعديد الذى يشير كذلك إلى رجال لم يكونوا مثل " سى السيد " ، بل لقد كانت هناك نساء هن اللاتي كن - من حيث المكانة والدور - مثل سى السيد ، وأن رجالا كانوا ، من حيث المكانة والدور ، مثل الست أمينة !!

وبفعل عوامل متعددة حفلت بها آلاف الصفحات من الكتب والدراسات والجرائد والمجلات ، وتنادت بها مؤتمرات وندوات لا حصر لها ، إذا بنا نشهد طوفانا من الأحاديث التى تلح على تحرير المرأة ورفع ما وقع عليها من صور ظلم وقهر . وإذا كان هذا قد بدأ بصور فردية عن طريق مفكرين كبار مثل الطهطاوى وعلى مبارك وقاسم أمين ولطفى السيد وغيرهم ، فقد أصبح فى عصرنا الراهن يتم عن طريق قوى سياسية ، وتنظيمات دولية واتفاقيات عالمية ، حتى أصبحت تلك الدول المسكينة ، الملحقات بذيل النظام العالمى الجديد ، تتبارى فى إظهار استجابتها لتحرير المرأة ورفع شأنها بالإعلان عن تعيين مديرة جامعة أو وزيرة وأكثر ، وكأن هذا هو جوهر القضية .

إن جوهر القضية فى رأينا أننا خدعنا المرأة ولم نحررها ، وإنما زدنا سبل القهر والظلم لها ...

ليس القهر والظلم قهر الزوج وظلمه أو قهر الأب وظلمه ، وإنما الأشد من ذلك عندما تتحول الظروف المجتمعية نفسها ، ويصبح " النظام " هو الذى يقوم بأفعال القهر والظلم !

روى زميل من الزملاء كيف كان يقوم بالاجتماع بتلاميذه فى أوقات منتظمة ، فلاحظ أن إحدى تلميذاته ، وهى سيدة متزوجة وتعمل ولها أطفال ، تغيب كثيرا ، فلما جلست إليه تستمع إلى عتابه الذى علت حدته مرة ، إذا بها تتفجر فى الحديث وكأن " دملا " متضخما قد " فُقع " :

إنها أم لأربعة من الأولاد ، كبروا ويذهبون إلى المدارس وكل واحد منهم له حكاية بل وحكايات ، والزوج يعمل بعيدا فيغيب كثيرا ، وهى تعمل فى عمل يضطرها فى بعض الظروف إلى التأخر إلى نهاية اليوم !

قال لها الأستاذ متسائلا : فلم ورطت نفسك فى متابعة الدراسة العالية وهى التى تتطلب قدرا من التفرغ ، والجهد الكثير ؟

قالت : أو ليس من حقى أن أنظر لنفسى ، فأسعى إلى ما ينميها ؟ هل يقف دورى عند خدمة الزوج والأولاد – وإن لم تقصد بذلك تضررا من هذا – دون التفات إلى مصلحة تخصنى أكثر ؟

ها هنا تتكشف لنا الأمور :

فالزوج – وخاصة فى بلادنا العربية – إذا كان قد رضى بخروج المرأة وذهابها للتعلم ، والتحاقها بعمل ، لكنه لم يتنازل أبدا عن مطالبتها بدورها التقليدى الموروث : دور الزوجة التى تراعى زوجها وتحرص على تحقيق متطلباته ، ودور الأم التى ترعى أبناءها فى مختلف الجوانب ، ربما يكون أبسطها إعداد الطعام ورعاية البيت !

وزاد من الطين بلة ، أن المرأة أصبحت تدفع ثمنا باهظا نتيجة سوء الخدمة التعليمية وخاصة فى مصر ، فمن المعروف أن المدرسة لم تعد بيئة تعليم وتعلم بقدر ما أصبحت مكان إيواء ، وفشت الدروس الخصوصية بصورة وبائية .

هنا نجد أن الكثرة الغالبة من الأمهات المتعلمات يقع على كاهلهن عبء المتابعة المدرسية والتعليمية للأبناء فى المرحلة الابتدائية ، وربما شطرا من المرحلة الإعدادية ، حيث يكون من السهل لها أن تقرأ الدروس وتشرحها لهم .

من هنا تجد الأم حال رجوعها من العمل ، منهكة ، لا أحد يعترف بهذا الإنهاك ، إذ عليها أن تعد الطعام للجميع ، حتى إذا انتهوا من ذلك ، شمرت عن ساعديها لتجلس مع الأولاد ، تساعدهم فى حل الواجبات المدرسية ، وشرح بعض الدروس ...

فإذا ما تقدم الأولاد فى مراحل التعليم وعجزت عن مساعدتهم ، تجد بعضهن ممن يمتلكن سيارة تصبح هذه السيارة مصدر لعنة ، ، إذ لا تستبعد أن تُطالب المرأة بأن تذهب بهذا الإبن أو تلك الإبنة إلى مواقع الدروس الخصوصية ، ثم تعود لتحضرهم مرة أخرى !

ولا ننسى أن الأم هى المطالبة بأن تستيقظ قبل الجميع لتعد لأعضاء الأسرة وجباتهم للفطور ، و" سندوتشات " الأولاد التى لابد من أن يخذوها معهم بالمدرسة ٠

هكذا تجد المرأة نفسها تعمل ما لا يقل عن ثمانى عشرة ساعة متصلة ، لا يتبقى لها من اليوم إلا ساعات محدودة للنوم !

ألا يكون هذا صورة من صور القهر " المنظم " ٠٠٠تتوارى أمامها الصور القديمة لقهر الزوج والأب الشائعة ؟

وليت الأمر يقف عند هذا الحد ، إذ أحيانا ما يصاحب كل هذا محاسبة مستفزة : أنت لم تفعلى كذا ٠ أين المكوى ؟ هذا الطعام متكرر ٠ هذا الطعام معد منذ أيام ٠ البيت فوضى غير منظم !

والأدهى من ذلك وأمر ، اتهام مستمر بأن المرأة الأم مهملة فى ملبسها وهندامها فى المنزل ، ولا تظهر بتلك الهيئة البهية الزاهية التى تروق للزوج ، وكأنها " متفرغة " للزينة والإثارة ، مع أنها تكاد تنسى أنها امرأة من كثرة وشدة ما حُملته من أعباء ومسئوليات !!

من المرجح ، والمرأة تقوم بكل هذا أو بمعظمه ، أن يكون أداؤها فى بعض هذه الأمور منخفضا ، فيكون هذا مصدرا للقيل والقال بأن المرأة ليست كفأة فيما تكلف به من أعمال فى مواقع العمل الخارجى ، وهى بالفعل أحيانا ما تلجأ إلى " التزويغ " أو خفض معدل الأداء ، وكثرة طلب الأجازات ، ويكون هذا مدعاة أيضا للوم وتوجيه الاتهامات ، حتى أصبح من المشهور أن المسئولين عن بعض الأعمال يفضلون الرجال عن النساء !

إن المشكلة تكمن فى أننا بعيدون عن " النظرة الكلية " ، التى كان ينبغى أن تنظر إلى خروج المرأة للعمل بأنه ليس هو المعبر الجوهرى عن التحريـــر ، وأن التحرير هو " حزمة " متكاملة من الاتجاهات والقيم والتنظيمات التى لابد أن تتكامل وتتعاضد بحيث لا ينقلب التحرير إلى نقمة ، حيث أن الخسارة هنا لا تقف عند حدود المرأة وحدها وإنما تمتد إلى أجيالنا الجديدة التى فقدت الكثيـــر مما يصعب تقديره نقدا وعدا ، وذلك ما يحتاج إلى حديث آخر ٠

صناعة القهر*

خبرة مهمة أطلعتنى عليها باحثة دكتوراه متميزة ، وهبها الله رجاحة عقل تجعلها تلتقط بسرعة بواطن الأمور ، كما وهبها من رهافة الحس ما يجعلها تألم لما يألم كثيرون ...

جاءت إلىّ منذ عدة شهور تروى مشاهد محزنة لعدد من أبنائنا فى المدارس ، جلست إليهم فى ندوة دُعيت إليها فى إحدى المدارس ، فكأنها لم تزر مدرسة وإنما " بؤرة " تفوح منها روائح كريهة ، لكنها فى الوقت نفسه مؤلمة تنبئ بمستقبل مخيف ينتظر هذا البلد الذى سوف يتولى هؤلاء الأبناء أمر قيادته وإنتاجه وخدماته ، إلا إذا تحقق ذلك الوصف الموروث لمصر " المحروسة " ، فأرسل لها المولى عز وجل من عنده قوما أولى بأس شديد وقوة يقيلونها من عثرتها .

قلت لها أننى لست مندهشا مما رأت وإن كنت مفجوعا ...

قالت : كيف لا تدهش وهذه المدارس مفروض أنها " مصانع " تقوم بصناعة " بشر على مستويات عالية من التربية والمعرفة ؟ أو لسنا نحن فى كليات التربية نكرس جهودنا عبر سنوات طويلة لنعد معلما يقوم بمثل هذه المهمة ؟

قلت لها أن المدرسة ليست " صوبة " أو " غرفة عناية مركزة " تعيش فيها المدرسة فى عزلة عما يجرى حولها ، إذ لابد أن يتنفس كل من وما فيها ، الهواء الملوث نفسه الذى يتنفسه سائر المواطنون خارج المدرسة ، وإذا كنت قد كتبت منذ أسبوعين عن كيف ينتج التعليم ثقافة مقهورين ؟ فلنتجه هذه المرة إلى " مصنع " آخر هو أخطر من المدرسة والجامعة ، فيها توضع البذور

---

* جريدة الوفد فى ٢٠٠٧/٥/٥

الأولى ، وفي يقضي الإنسان أكثر ساعات عمره متلقيا كافة ما فيه من مؤثرات.

قالت : لابد أنك تقصد المنزل ؟

قلت على الفور : نعم ، ولتكن الأسرة هي مناط حديثنا ...

انظري إلى أي شاب ممن تقذف بهم الجامعات إلى السوق سنويا ، وقد ظنت جمهرتهم أنهم قد انتهوا من مرحلة التحصيل والإعداد ليشمروا عن سواعدهم ويمضون إلى سوق العمل ، ينتجون ويكسبون ما يتيح ليم فرصة الاستقلال الاقتصادي ، والذي يكون خطوة أولى نحو الاستقلال الاجتماعي ، فيصبح الواحد منهم صاحب بيت وأسرة ويكون له أولاد ، فماذا تجدين ؟

الظاهرة الشائعة الآن هي ألا يجد الشاب (أو الشابة طبعا) هذا العمل الذى ظل سنوات يعد نفسه له وينتظره ، ويقيم عليه كل ما سوف يضمه مستقبله .

هذه البطالة نفسها تعد تربة مخيفة للكثير من الآفات الاجتماعية والجراح النفسية التي تفعل فعلها المحزن ، فكأنها " سوس " ينخر في عظام الشخصية وعمدها الأساسية ، فإذا بالشاب يحس بأنه واقع تحت قهر الجوع والخوف ونقص في الأموال ، بل وعدم وجودها أصلا .

ولنفرض جدلا أنه استطاع ولو بعد حين أن يجد ما يعمله ، إلا أنه لن يجد بين يديه إلا هذه الجنيهات المحدودة التي يتسلمها ، تكاد تكفيه هو بصفته الفردية ، وكأنها " مصروف شخصي " !

لكن ابننا هذا يريد أن يتزوج ..والزواج يحتاج إلى كذا وكذا وكذا مما هو معروف ، وهو بهذه الجنيهات المحدودة يعجز كلية عن التحصل عليها ، فها هنا ينجرف هذا وذلك من البنين والبنات إلى ما يشبع ما يصرخ في جوانبهم من طاقات جنسية في تلك الصورة التي شاعت بكثرة مخيفة منذ سنوات ألا وهي ما يسمى بالزواج العرفي ، حيث يتحقق الإشباع الجنسي ، دون تكلفة

مالية ، خاصة وأن الأطباء الآن أصبح الكثير منهم يملكون الحلول اللازمة للتغطية على أى آثار سلبية جانبية نتيجة هذا الزواج السرى ٠

وهنا يجد الآباء والأمهات أنهم أخطأوا عندما تصوروا أن أبناءهم عندما سيتخرجون ، سيعملون ويستقلون ويتزوجون وينجبوا لهم البنين والحفدة ، فيستريحون من جزء كبير من النفقات ، ويسعدون بالحفدة ، ذلك أنهم يجدون أنفسهم مكلفين بتحمل كافة المتطلبات المادية اللازمة لتزويج الأولاد ٠

وهكذا يجد الآباء والأمهات أنفسهم فى حاجة أشد إلى المزيد من الدخل حتى يوفروا لأولادهم الكبار ما يحتاجون ٠

وبهذه المناسبة أذكر حديثا مؤلما ، لكنه أثار شيئا من الابتسام ، فقد أسرّ أحد الأصدقاء مرة أنه من جيل تعس حقا ، فعندما تخرج وعمل منذ عدة عقود كان التقليد القديم سائرا ألا وهو أن يدفع الإبن الذى تخرج وعمل ، جزءا من راتبه ليعين به أبويه ويعوضهم عن سنوات التعب التى تكلفاها تربية له وتنشئة وتعليما ، فلما جئنا للزمن الحالى وجد الصديق نفسه مطالبا أن يستمر فى الإنفاق على ابنه ، حتى بعد أن يتخرج ويعمل لأن دخله لا يقدره أبدا على استمرار الحد الأدنى من الحياة الكريمة !

وهكذا يجد الآباء والأمهات أنفسهم فى حاجة إلى مضاعفة الجهد وبذل المزيد من العمل ، فإذا بكليهما يمضيان معظم ساعات يومهما خارج المنزل ، كدا وكدحا ، وإذا بالأولاد لا يجدون أمامهم أبويهما ، وإن وجدوهما ، لم يجدوا أمامهم إلا عقلا مكدودا وجسدا منهكا ، وصبرا نافذا !

لكن الأولاد لهم مشكلات ، ولهم قضايا ، إلى من يُسرون بها ؟ إلى من يتجهون ليرشدهم إلى سواء السبيل والصراط المستقيم ؟

ما زلت أذكر عبارة كتبتها ابنة أرانيها أحد الزملاء الذين كانوا يعملون فى إحدى الجامعات العربية خارج مصر ، تستحلفه بالله أن يعود إلى مصر ، فهى بحاجة إلى " أب " لا إلى " بنك " !!

الأول ، يرسل حبا وحنانا ورعاية وتوجيها ، والثانى هو الذى يرسل النقود ، كثرت أو قلت ٠٠لقد أوجعت الكلمة قلب الأب المسكين ، وأوجعتنى أنا أيضا ، فعاد الرجل إلى مصر لتجد ابنته ما كان ينقصها بالفعل ، مما لا يُقدر بمال قارون ٠٠الأب ، الموجه ، الراعى ، المرشد ٠٠٠

لقد غاب الأبوان فى مصر عن معظم البيوت ، وأصبح الأبناء لا يجدون أمامهم إلا " الشارع " ، بالنسبة للكثرة الغالبة من أبنائنا ، حيث لا نوادى ولا مراكز اجتماعية ، وحيث رفاق السوء ٠

قالت الباحثة، إن ما شاهدته من حالات يكاد يقدم براهين حية على ما تقول ، فهل أقرئوك بعضا منها ؟ قلت : هات ما عندك ٠٠٠

قالت : هذه فتاة متفوقة ويشهد لها الزملاء والمدرسون والمدرسات بذلك ، وتتألم كثيرا بسبب عدم اكتراث الأسرة وعدم تشجيعها لما أحرزته من نجاح ، وذلك لانشغال الوالدين بالعمل خارج المنزل ، وضغوط الحياة الأسرية ومطالبها ٠٠٠

قالت لها الفتاة : لماذا أتفوق إذا لم أجد أى تشجيع ؟

قلت : فهل من مزيد ؟

قالت : وهذه فتاة أخرى تجد تعويضا عن حنان الأسرة المفقود مع صبى فى مثل عمرها أو يكبرها قليلا ، تلتقى به خارج المدرسة بعد الانصراف ، فتخلع ما كانت ترتديه من ملابس أنيقة كانت ترتديها تحت زى المدرسة ، وتضع مساحيق التجميل وتتخلص من حجابها ، وتتنزه مع صديقها وتعبث ، وتعود إلى منزلها فى الخامسة مساء ، فلا تجد الأب أو الأم ، حيث ما زالا فى العمل ، ويعودان مكدودان ليجلسا أمام شاشة التلفاز ، ولا يدريان إلى ماذا صارت حالة ابنتيهما ، وهى فى الطريق إلى أن تضيع ، لا يعوض ضياعها ما يكسبانه من أموال ، مهما كثرت ٠

وعندما سألت الباحثة التلميذات عن المذاكرة والتعنيم ، قالت أكثرهن أن " مذكرات الدروس الخصوصية " يكفى الإلمام بها فى الشهر الأخير من " التيرم " أو العام ، للدخول إلى الامتحانات حيث لا تخرج الأسئلة عما يرد فى المذكرة ، أما منذ بداية العام الدراسى حتى الشهر الأخير " فاحنا بنعـيش حياتنـا " !! فكان أن استفز هذا باحثتنا الواعدة ، فسألتهن : كيف تعشن حياتكن ؟

قلن بالإجماع على وجه التقريب أنهن يحرصن على ارتداء الملابس الأنيقة وخاصة " الجينز " ، والذهاب إلى السينما ، وإقامة حفلات أعياد الميلاد فى أحد المنازل ، والاجتماع يوما بعد يوم فى أحد منازل إحدى الـصديقات للـضحك والفرفشة وتناول الطعام والرقص ، وهذا فـى وجـود الأب والأم ، أو عـدم وجودهما !!

وسألت الباحثة التلميذات عما إذا كن يحضرن الحفل الختامى للمدرسة فـى نهاية العام فرددن : " حفل مدرسة إيه ؟ إحنا بنعمل " بروم " ؟

ولم تكن باحثتنا تعرف ما هذا " البروم " المشار إليه ، فسألتهن عنه ، فقلن أنه يعنى حفلة كبيرة فى نهاية العام تضم جميع المدارس الأخرى للغات ، وكل فتاة تدفع ٣٠٠ جنيها رسم اشتراك الحفل فى أحد الفنادق ، وفى هـذا الحفـل يجتمع صبيان وبنات من مدارس أخرى ، ويدعون أحـد المطـربين الجـدد ، وأشرن إلى أنهن سوف يدعون العام الحالى المغنى " ..." " لأن صوته جميل ومؤثر وعاطفى جدا ، واحنا بنموت فيه " !!

وتسأل الباحثة عن نوع الملابس التى يلبسنها فى مثل هذا الحفل ، فقالت لها طالبة : " أنا بفصل فستان مكشوف من الظهر والرقبة ، وهـو فـوق الركبـة بحاجة بسيطة ، وهاعمل شعرى عند الكوافير ، وسأضع مكيـاج ، و أركـب عدسات لونها رمادى أو أخضر أحسن "

ولما سألت : متى تبدأ الحفلة ؟ قلن التاسعة مساء وتنتهـى حتـى الـساعة الرابعة فجرا !!

ثم تسأل : هل يذهب آباؤكن معكــن ؟ ضـــحكن ســـخرية ، وقلــن أنهــم يوصلونهن بسيارتهم ، وفى نهاية الحفل ، يقوم الشباب المـــشاركون بتوصـــيل الفتيات إلى بيوتهن ، حيث أن الآباء لا يستطيعون السهر حتى هــذه الـــساعة المتأخرة " وعلشان نقدر ناخد راحتنا فى الرقص والغناء ٠٠" !!

للوهلة الأولى يتصور القارئ أن ها هنا ممارسة لحرية ، فأين القهر ؟ لكن الحقيقة أن الحرية الحقيقية هى ما نسميه " بالحرية المسئولة " ، أما هذا العبــث والتسيب فهو خضوع واستسلام لقهر " الرغبة " ، وقهــر الغفلـــة ، واســـتبداد الظروف ٠٠٠

إن شباب هذه الأمة يسير فى طريق الضياع ، وإن لم نتدارك الكارثة فـــى بدايتها ، فسوف يكون فى هذا ضياعا لمستقبل هذه الأمة ٠٠٠ألا من مجيب ؟!

هل تتحول المرأة إلى
حصان طروادة للغزاة الجدد* ؟!

كل من يقرأ آيات القرآن الكريم من المسلمين ، وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم علم اليقين أن من القواعد الأساسية فى التعامل مع غيرنا من الناس الدفع بالتى هى أحسن والجدال بالحسنى والرفق والرحمة وعفة اللسان ، إلى غير هذا وذاك من قيم واتجاهات من شأنها أن تشيع الحب بين الناس والتكافل والترابط والتعاون ، لكن الأزمة الكبرى هى فى انحراف عدد منا عن هذا النهج مما يترك الفرصة مع الأسف الشديد للمتربصين كى يقفزوا على المنطق فيحكموا على الحق بالرجال ، بينما القاعدة المنطقية تؤكد على أن المحاسبة للرجال تكون من خلال الحق !

ومن أبرز المجالات التى تكشف عن مثل هذا ، وبشكل صارخ : ما يتصل بالمرأة ...

فالمرأة بالنسبة للمسلم ، بل ينبغى أن تكون هكذا بالنسبة لأى إنسان ذى قلب سليم ، هى أمه أو شريكة حياته أو ابنته أو أخته ، فى سوائها سواء للأمة وفى انحرافها وسوء حالها انحراف للأمة وسوء لحالها ، وكل ما يشيع لدى مسلمين مما يخالف هذا النهج فى التعامل العام مع الغير ، وفى التعامل مع المرأة بصفة خاصة ، هو مما يرد حقيقة إلى جملة من العادات والتقاليد والانحرافات ، وخاصة فى فترات التراجع الحضارى ، وفى زمن التخلف والجمود ، فما استطاعت أمة النهوض الحضارى والمرأة فيها ذليلة مقهورة ، لأن مذلتها وقهرها سوف ترضعه لأبنائها ، فيشيع الشعور بالقهر فى الأمة ، وتنتشر أخلاقيات العبيد .

---

* جريدة المصريون الإلكترونية ، فى ٢٠٠٧/٣/٢١

وإذا كانت الخمسينيات والستينيات قد شهدت أفول الاستعمار بشكله التقليدى المتمثل فى جند وسلاح يحتلون البلدان ، فقد تمخض التطور والتغيير فى السنوات الأخيرة عن شكل ، أو قل أشكال جديدة من الهيمنة ، هى أشد خطرا وأقوى على التدمير والإفساد على الشعوب المنكوبة بنظم ضعيفة تستمد قوتها من الحراسة الأجنبية ، لا من أصوات جماهير ، تضمها صناديق انتخاب .

من ذلك ما تعودنا عليه من التسليم للغير من القوى المهيمنة بأن يحددوا لنا قائمة أولويات الإصلاح والتطوير والتجديد ، وأبرز مثال على ذلك هو هذا الإلحاح الغريب على الحديث عن المرأة فى العالم الإسلامى وكأن الغربيين أحرص منا نحن على ما يقوى بنيتنا المجتمعية ، وكأن الغزاة الجدد أدرى منا بما نحن فى حاجة إلى النهوض به ، وإلا ، فلم لا نرى إلحاحا مماثلا لما نعيشه من تخلف تقنى ؟ ولم لا نشهد معايرة لنا باستمرار جيوب أمية ؟ ولم لا نلمس أحاديث مستمرة عن الوضع المتردى لحال التنمية ؟

هذه القضايا الأخيرة ، النهوض فيها يشكل قوة لنا ، وطرقه معروفة تقوم على العلم والمنهج العلمى والإنتاج والعمل ، مما ليس فيه خلاف كبير ، لكن مجالا مثل مجال الأسرة والمرأة مجال يمكن أن تنبث من خلاله ما يصعب حصره من القيم المدمرة والمفاهيم المغلوطة والاتجاهات المناقضة للثوابت الدينية ،وبالتالى يتم التحكم بالأجيال الناشئة ، ونشهد جموعا من المواطنين وقد زيفت أفكارهم وسطحت عقولهم ، وجُرفت شخصياتهم !

لكن من حسن حظ هذه الأمة أنها لا تعدم أبدا وجود نفر ممن يستمر وعيهم بالتيقظ ..هم الذين يقفون حراسا على ثغور الإسلام ، يقرعون الأجراس ،ويرشدون إلى مكامن خطر ، وسبل هداية ورشاد واستقامة طريق .

فمن ذلك رسالة تلقيتها من ائتلاف المنظمات الإسلامية حول المسودة المقدمة من لجنة مركز المرأة بالأمم المتحدة فى الجلسة الحادية والخمسين (٢٦ فبراير - ٩ مارس ٢٠٠٧) ، تتصل بمشروع وثيقة القضاء على كافة

أشكال التمييز ضد الطفلة بكل موادها ، فكان أن هرعت إلى كتابة هذا المقال المتواضع أساهم من خلاله بما يمكن من نشر الوعى بخطورة القضية ، حتى تتحفظ دولنا على القبول الكامل للوثيقة ، حيث أن بعض موادها تتعارض كثيرا مع الثوابت الدينية الإسلامية ، بل والمسيحية كذلك .

ومن أسف فإن بعض الدول العربية بدأت تستجيب للضغوط الواقعة عليها ، حيث رفعت كل من سوريا ومصر تحفظاتهما على اتفاقية حقوق الطفل ، بل ووعدت سوريا برفع التحفظات على اتفاقية سيداو - القضاء على كافة أشكال التمييز ضد المرأة .

إن العناوين فى شكلها الظاهرى تخلب اللب وتثير الإعجاب ، فمن ذا الذى يرضى بالظلم للمرأة ؟ ومن ذا الذى يرضى بألا ينال الطفل حقوقه ؟ لكن يبقى السؤال حول ما يعتبر تمييزا ضد المرأة ، ويبقى السؤال حول ما يعتبر حقا للطفل ..ففى التفاصيل ، تسكن الشياطين !

ويكفى على سبيل المثال أن يُنظر إلى " قوامة الرجل " على المرأة ، المقررة بنص صريح وواضح فى كتاب الله عز وجل باعتبارها صورة من صور التمييز الذى يجب التخلص منه ، دون ما تفكير رشيد يعترف بأن هناك بالفعل صورا وأشكالا تكشف عن إساءة رجال لهذا الحق ، فلا يكون العلاج فى مناقضة نص دينى صريح ، وإنما هو فى كيفية وضع ضمانات تكفل محاصرة سوء استعمال بعض الرجال له ، خاصة فى ضوء نصوص دينية كثيرة تأمر بحسن المعاملة والرفق مما أشرنا إليه فى صدر المقال .

وقس على هذا أمورا أخرى ..

ومن ذلك أيضا إحلال مصطلح " الجندر " - النوع - Gender محل مصطلح " الجنس " Sex والذى يعنى ذكرا كان أو أنثى ، ذلك لأن مصطلح الجندر يشمل كلا من الذكر والأنثى ، والشاذ والشاذة .

وفى مجال مواجهة مرض الإيدز ، تنسب الأمم المتحدة انتشار المرض إلى وصمة العار Stigma التى تمنع المريض من الإفصاح عن مرضه ، وكأن هذا هو السبب الرئيسى فى انتشار المرض ، وليس ممارسة الشذوذ أو الزنا .

وبدلا من القول بأن سبيل مواجهة هذا المرض اللعين هو نشر ثقافة العفة والاستقامة الخلقية فى المجتمعات ، ترى الأمم المتحدة أن وصمة العار سببها وجود العادات والتقاليد والأديان ، وبالتالى يكون السبيل للمواجهة والوقاية ، التخلص من العادات والتقاليد والأديان !! ويكون ذلك عن طريق العديد من البرامج الإعلامية والتعليمية ، وتوفير الدعم المالى المطلوب لها ، سواء لسد بند المكافآت السخية ، أو المادة المعرفية ، ووسائل الممارسة والتطبيق .

وإذا كانت كثير من الدول الإسلامية قد تحفظت على مثل هذه البنود والأفكار ، حيث أنها تخالف صريح العقيدة الإسلامية وشريعتها ، فإن الجهات المعنية لا تيأس من استمرار الضغوط التى تمارس سواء عن طريقها المباشر أو عن طريق " كتيبة " من الكتاب الذين كانوا يقفون فى جانب اليسار رافعين شعارات التقدم ومناصرة المستضعفين ومقاومة الامبريالية ، ويضمرون كراهية للدين والمتدينين ، أخفوها طويلا ، حتى إذا سقطت المنظومة الاشتراكية ، توافقت كراهيتهم للدين مع كراهية عدو الأمس الامبريالى ، فإذا بتحالف عجيب نشهده على الساحة نرى من خلاله أن ابرز من يروجون للمقولات الأمريكية والهيمنة الجديدة هم من هذا الصنف الذى طالما وثقنا به وأعجبتنا طروحاته فى التقدم ومقاومة الاستغلال .

تعتبر المنظمات غير الحكومية التى تعتمد فى تمويلها على الأمم المتحدة هى الذراع الطويلة داخل الدول الإسلامية ، حيث لا يقتصر التمويل على الأمم المتحدة وحدها ، وإنما يمتد ليجئ من مؤسسات غربية متعددة ، بحيث يجد العاملون فى هذه المنظمات سيلا من الأموال يتدفق إليهم ، ويحدث ما هو معتاد ، حيث يستغرق العقل فى ثبات عميق عندما تنتفخ الجيوب والمحافظ ، إذ يبدو

إن الطوفان نكاد نبصره بأعيننا من خلال مثل هذه الأفكار المدمرة للأسرة التى هى خط الدفاع الأساسى فى بنية الأمة . لقد اخترقوا أجهزة الإعلام وتـــم تسييسها ، واخترقوا أنظمة التعليم ومناهجه ، ولم تبق إلا الأسرة ، صحيح أنها قد أصيبت ببعض ما ينشره الإعلام وما يتم تعليمه فى السنوات الأخيرة مما هو مضاد لهوية الأمة ، لكن ، ما تزال الأسرة هى الحصن الأخير ، فمن يـــنهض دفاعا عن هذا الحصن ؟!

خرافة الدولة الدينية* !

الذين نشأوا فى الريف أمثالنا منذ عقود عدة يعرفون كيف أن المزارع المصرى كان حريصا على وضع ما عرف " بخيال المآتة " الذى كان يشبه شخصا دون أن يكون كذلك بالفعل ، لمجرد إيهام بعض الطيور التى تغريها الحبوب المزروعة فتنقض عليها طلبا للغذاء فيصيب المحصول ضرر كبير .

ويتقدم الزمان فيبتكر الإنسان وسائل أخرى ، لكن فى الشعوب المتخلفة يظل خيال المآتة هذا فى اللاوعى ليظهر فى صور مختلفة ، عاكسا منطقا للتفكير تجاوزه الزمن ، لكن ...هكذا المتخلف ، إذ ما معنى أن يكون إنسان متخلفا ؟ أى يظل مرتبطا بحالة من التفكير تجاوزها الزمن ، أو يظل متمسكا بأساليب كانت تجوز وفقا للمستوى الفكرى والعقلى الذى كان قائما ، لكن مع مزيد من التنور يتكشف للناس أن الأمر لابد وأن يتسق مع حالة التنور المستحدثة .

والذى لا شك فيه أن نظامنا القائم هو من أجلى الأمثلة على التخلف ، وكل مقال نكتبه ، وكثير غيرنا ، إنما يبرهن على استحكام هذا التخلف ، إلى الدرجة التى أصبح فيها بمثابة " وسواس قهرى " ، لا يستطيع منه تخلصا ، ولا يقوى على تجاوزه وكأن الموت ينتظره إذا تخلى عنه !

ومن آيات التخلف القائمة ذلك " الهوس " الذى يشغلنا به النظام من حين لآخر ، ذلك الهوس المسمى بالدولة الدينية ، وليس محزنا أن يتوهم النظام أن هناك فى الإسلام دولة دينية ، فذلك اختراع معروف سبب ادعائه ، وهو رعب النظام من فئات يعلم علم اليقين أنها تغزو الساحة المصرية بكثافة لا تنكر ، ويتصور أنها تهدد كراسى حكمه التى تجمد عليها منذ أكثر من عقدين من نهاية القرن الماضى حتى يلطف بنا الله ، أو يلطف الشعب بنفسه وبالتاريخ ونسترجع

---

* جريدة الوفد فى ٢٠٠٧/٢/٢٧

وطننا المخطوف ، لكن المحزن والمفجع حقا هو أن يرضى عدد ممن يسمون أنفسهم بالمثقفين لأنفسهم أن يرددوا دعاوى النظام الوهمية ، فيعينونه بذلك على مزيد من البطش والفساد ، طمعا فى مغنم أو دفعا لمضرة !

ودارسو علم الاجتماع ، والثقافة ، والتاريخ ٠٠٠بل وكل العلوم الاجتماعية والإنسانية يعلمون علم اليقين أن السياقات الحضارية تتبائن بتباين الزمان وتتعدد بتعدد المكان ، ووفقا لهذا وذاك تتباين المعايير وتختلف القيم الموجهة ، بحيث يكون من السفه الحكم على ثقافة فى مجتمع بما حدث فى مجتمع آخر بينما سياقات كل منهما تتباين تماما ، زمانا !

ومن مظاهر ذلك ، أن شعوب أوربا قد عرفت بالفعل نظاما يقوم على الدولة الدينية ، ساعدت على قيامه ظروف وأحوال لا يتسع المقام لبيانها ، لكن كان من ضمنها أن الكنيسة عرفت ما يعرف برجال الدين ، وهم شرائح وطبقات لها نظامها الخاص فى التأهل والانتقال والترقى والوظيفة ، فجاء زمن طويل سيطرت فيه الكنيسة على نظم الحكم ٠

ووفقا للقاعدة الشهيرة أن احتكار السلطة المطلق يؤدى إلى فساد مطلق عرفت الشعوب الأوربية صور بطش وفساد من رجال الكنيسة ، المسيحية منها براء ، فكان السعى الحثيث من كثير من الفلاسفة والمفكرين إلى تحطيم هذا الاحتكار ، فكان عصر النهضة ، وكان الفصل بين الدين والسياسة ، وكانت انطلاقة أوربا بالفعل عقلا وعلما فأنتجت للبشرية هذه الحضارة الرائعة فى كثير من جوانبها والتى ما زلنا ننعم بثمارها حتى الآن ٠ ووقر فى أذهان الغربيين أن ما أحرزوه من تقدم ما كان له أن يتحقق إلا بمحاصرة الدين داخل الكنائس ، والحيلولة بينه وبين اقتحام عالم السياسة ٠

لكن القوم عندنا ذكرونا ببعض ما يحدث فى عالم الأطفال ، فهذا طفل عانى فى طفولته شقاء وحرمانا نتيجة ظروف متعددة ، فماذا يمكن أن ننتظر منه سلوكا وعلاقات ؟

يمكن أن تجد واحدا يصبح على درجة عالية من الحساسية نتيجة ما مر به من شقاء وحرمان ، فإذا به لا يطيق ظلما لأحد ، وإذا به يمتلىء حبا وحنانا لكل طفل يمر بظروف صعبة ...

فهل نقيس على هذا ونحكم بحالة طفل آخر يمر بظروف حرمان وشقاء ، أنه سوف يكون عادلا يمتلىء قلبه حنانا وشفقة على المظلومين ؟

بالطبع كلا ...

إذ يمكن أن يحدث العكس ، ويمتلىء قلب هذا الطفل غلا وحقدا وحسدا ، ولربما يصبح مجرما ، يريد أن ينتقم من هذا المجتمع الذى سمح بمثل ما مر به من ظلم وشقاء !

القياس الفورى فى الأمور الإنسانية والاجتماعية خطر كبير يمكن أن يؤدى إلى فساد فى النتائج مما لا تحمد عقباه .

الغريب أن أهل الحكم – أحيانا – يظهرون وعيا بهذه الحقيقة عندما نسوق لهم أمثلة من ديموقراطية الحكم فى أمريكا أو بريطانيا أو غيرهما من الدول المتقدمة مما نتمنى مثله أو حتى نصفه ، فيردون علينا : دى أمريكا ...دى بريطانيا التى والتى ، بينما نحن ظروفنا مختلفة !

وفى ظروف أخرى يهرعون إلى " الزن " على آذاننا بأن كذا وكذا لابد من فعله مثلما يحصل فى أمريكا وبريطانيا ...!!

وعندما بشر الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بالإسلام ، قضت ظروف الجماعة الإسلامية أن يكون النبى هو فى الوقت نفسه الحاكم ، ولا مجال لبيان هذه الظروف التى اقتضت ذلك ، لكن المؤكد أن أبا بكر الصديق وكذلك عمر ابن الخطاب ، ومن جاءوا بعدهما ، لم يكن هناك تمييز لديهم بين رجل دين ورجل دولة ، وكانت المعرفة الدينية من البساطة والقلة الكمية بحيث لا يصعب على كثيرين أن يلموا بها ، خاصة وأن الكثرة الغالبة كانوا من صحابة رسول الله تلقوا عنه مباشرة كل ما يتصل بأمر الدين .

ومما هو معلوم للقاصى والدانى ممن لهم معرفة ببعض الثقافة الدينية الإسلامية أن الإسلام لا يعرف فئة اسمها " رجال الدين " ، وأن هذا المصطلح جاءنا من الثقافة الغربية ، وأن الشائع والمعروف عبر قرون هو " علماء الدين " ، وفرق كبير بطبيعة الحال بين المصطلحين .

وربما اختلف الأمر بالنسبة للشيعة بعض الشئ ، وخاصة الشيعة الإمامية ، ومن ثم فإن حديثنا لا يشمل مذهبهم فى هذه القضية ، وإنما نقتصر على ما هو شائع ومعروف عند أهل السنة وهم الكثرة الغالبة من المسلمين منذ قرون وحتى الآن .

وفضلا عن ذلك ، فمن المعروف أيضا أن خط الاتصال بين المسلم وربه مباشر يستطيع أن يتجه إليه بالخطاب من غير وسيط ، إن توبة أو رجاء أو دعاء .

فلما أن مرت السنون وتضخمت المعرفة الدينية وتفرعت إلى علوم وأنساق وحقول معرفية متعددة ، كان لابد من تفرغ بعض الدارسين للتخصص فى هذا العلم أو ذاك من أصول فقه وعلوم قرآن وعلوم حديث ..وهكذا ، وأصبح هؤلاء يسمون " علماء الدين " ، وهى فئة يستطيع كل من يجد فى نفسه القدرة على التحصيل العلمى أن يلتحق بها ويصبح عالما فى الدين مثلهم .

فإذا نظرنا إلى الخلفاء الذين حكموا العالم الإسلامى فى العقود الأولى ، يصبح من الخطأ أن نتصور أنهم حكموا باعتبارهم رجال دين أو حتى علمائه ، بل إن مقدار ونوع المعرفة الدينية كان يتضاءل شيئا فشيئا بمرور السنين لدى من يتولون السلطة ، ورأينا منهم من كان سئ الخلق ، وخاصة فيما بعد أثناء قيام الدول الأموية والعباسية والمماليك والفاطميين وغيرهم ، بل كان منهم من قتل وشرب الخمر وفسد ، مثلما يحدث لأى فئة بشرية .

لكن الذى لا ينكر أن المرجعية الرئيسية للحكم فى معظم القرون فيما يسمى بالعصور الإسلامية كانت هى المرجعية الدينية الإسلامية ، دون أن ينفى

هذا تناقضا بين ما جرى فى ظلال بعض النظم من ممارسات وبين هذه المرجعية ٠ ولا يستطيع أحد أن يدعى أن رأى أهل العلم الدينى كان مسموعا دائما ، بل إن واحدا مثل الإمام أحمد بن حنبل سجن وعذب لأنه رفض أن يقول بما قال به الخليفة العباسى المأمون ، فيما عرف بفتنة خلق القرآن ٠

وهكذا نستطيع أن نقول أن الإسلام لا يعرف ما يسمى بالدولة الدينية ، ولكنه عرف ما يسمى بالمرجعية الدينية لنظام حكم يتولاه ساسة ربما أو عسكريون ، أو غير هذه وتلك من الفئات والشرائح المتعددة ٠

والضرورة التى دعت إلى وجود " المرجعية الإسلامية " ، أن الإسلام لا يقف عند حد تنظيم العلاقة بين الإنسان ونفسه ، وبينه وبين ربه ، بل حرص على أن ينظم العلاقة بين الإنسان وغيره من الناس ٠

وهو فى كل هذا يقتصر على " كليات " ٠٠قواعد كلية ، حتى يترك الفرصة واسعة متاحة لاختلاف الزمان والمكان ، فيُعمل العلماء عقولهم ويجتهدوا ، وفقا للقاعدة المعروفة بأن النصوص متناهية ، والوقائع متجددة ، فلابد من الاجتهاد ٠

ومن المعروف أيضا بين المتخصصين أن مساحة الفروع والجزئيات الخاضعة بالضرورة للاجتهاد وفقا لتغير الزمان والمكان واسعة للغاية ، حيث لم يُفصّل فيها القرآن ولا السنة ، حتى لا يضيقا على الناس ، والمثال الشهير الذى يمكن أن يساق هنا هو نظام الحكم ، حيث كان إلحاح النصوص على " العدل " وعلى التشاور ، أما أن يكون النظام خلافة أو جمهورية أو ملكية ، فهذا شأنه شأن المصلحة المجتمعية ، وشأنه شأن ما يصل إليه الناس ٠ أن يكون هناك برلمان من مجلس أو مجلسين ، فذاك أمر متروك للناس ٠٠٠وهكذا ٠

من هذا الذى يتصور أن يقوم رجال دين – الأصح علماء دين – بحكم البلاد ، فضلا عن أن يطالب بذلك ؟

هل يتصور عاقل فى مصر أن يطالب بأن يكــون وزيــر الــصحة شــيخا أزهريا؟

وهل هناك عاقل يطالب بأن يكون وزير المالية فقيها فى علوم الدين ؟

لا يمكن أن يفكر عاقل فى هذا ، فأحد علامات يوم القيامة فيما تحدث بــه رسول الله أن يُوسد الأمر لغير أهله ، أى لا يكون الرجل المناسب فى المكــان المناسب ، وفقا لتعبيرات عصرنا ٠

ويقرر القرآن بنصوصه وجوب أن يرجع المسلمون إلى أهل " الــذكر " ، والذكر المقصود هنا " المتخصصون " ، " العــالمون " ٠٠أصــحاب الــرأى والدراية والفهم والعلم والخبرة ٠

هى إذن " فرية " يستخدمونها " فزاعة " لمحاربة فريق من أهل مصر لهم فكرهم الذى من حقهم أن يطرحوه على الناس ، مهما كنا لا نرى مثله ، ويجب أن يواجه بما يقابله من فكر لا بما يخنقه من جند وسجن وتشريد وتعذيب !

ومثلما يتهم أهل النظام غيرهم من رافعى الراية الإسلامية بأنهم يــستغلون الدين فى السياسة ، فهم يفعلون الشئ نفسه ، و إلا فماذا تعنى المادة الثانية من الدستور التى تؤكد على أن الشريعة الإسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع ؟ وماذا يطلب أى منتم للمرجعية الإسلامية أكثر من هذا ؟

إنهم يُبقون عليها تملقا للناس وكسبا لمشاعرهم ، وفى مقابل ذلك يمــررون نصوصا أخرى تؤكد احتكار السلطة و" دسترة " قانون الطوارئ ، وسد المنافذ على القوى الأخرى أن تقرب من السلطة ، التى هى مــن حــق أى مــصرى بالوسائل الديموقراطية ٠

وانظر أيضا إلى وجود وزارة أساسية فى الحكم اســمها وزارة الأوقــاف والشؤون الإسلامية ٠٠٠

وانظر إلى وجود إذاعة متخصصة اسمها القرآن الكريم ، تسجل كل استطلاعات الرأى التى يجريها اتحاد الإذاعة والتليفزيون احتلالها المرتبة الأولى فى المتابعة والاستماع ...

وانظر إلى وجود مشيخة للأزهر ، فى الوقت الذى توجد فيه جامعة الأزهر ...

كلها مظاهر وآيات على " مرجعية دينية " قائمة بالفعل ، نرجع إليها فى أمور ، لكن نعطيها ظهورنا فى أمور أخرى وفقا للهوى الحاكم !

وإذا كنا نرفض الدولة الدينية فنحن نر فض كذلك الدولة العسكرية التى هى قائمة منذ عام ١٩٥٢ ، حتى وإن اختفت الملابس العسكرية ...

وإذا كنا نرفض الدولة الدينية ، فنحن نرفض كذلك هذا التحالف المتوحش بين رجال سلطة وأصحاب رؤوس أموال مال ...

ولو حللت المساوئ التى ينتجها مثل هذين النوعين من الحكم لربما رأيتها لا تقل عن مساوئ متوقعة من الدولة الدينية التى لم توجد عندنا منة قبل أصلا!

مرة أخرى إن من تصادر أموالهم ويعتقل رجالهم وتشرد نساؤهم وأطفالهم ويرمون فى غيابات السجن ، لو حللت ما يذهبون إليه لما وجدته خارجا عن المادة الثانية من الدستور المصرى القائم ، فمن المذنب ومن الذى يجب أن يُحاسَب ؟ ومن الذى يجب أن يحاسِب ؟

استقطاب ثقافى*..!

وفقا لنظرية الأوانى المستطرقة ، لم يكن من المعقول أن يعيش المجتمع استقطابا سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ، نلمسه جميعا فى مختلف أركان المجتمع المصرى فى العضصر الحالى ، ولا يعيشه كذلك على المستوى الثقافى.

وللاستقطاب الثقافى مظاهر متعددة ، لكن أبرز معالمه حقا هو ذلك الاستقطاب القائم الآن بين " العلمانيين " و " الدينيين " ،أو " الإسلاميين " ، ولا يعنى هذا رمى أفراد الفريق الأول جميعا بمعاداة الدين على إطلاقه ، ذلك أننا لسنا ممن يسبغ الإيمان على أحد أو يسلبه من أحد ، فالله وحده هو المطلع على السرائر ، ولكن المقصود هنا هو الاتجاه إلى التعامل مع " الإسلام " باعتباره " منهجا شاملا للحياة ، أو قصره على أن يكون علاقة خاصة بين الإنسان وربه ، تتبدى فقط فى أداء الشعائر الدينية ، وإبعاد الدين تماما عن مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغيرها .

صحيح أن العلمانية كانت طوال تاريخها تدعو إلى هذا الفصل بين الدين والدنيا ، بحيث لا تكون للأول سيطرة على الثانية ، وإنما يكون العقل الإنسانى وحده هو الموجه ، لكن الجديد حقا هو تلك التصنيفات التى تغيرت فى العقود الأخيرة ، وخاصة هنا فى مصر ، فقد كان الشائع أقرب إلى البعد السياسى عندما كان التقسيم إلى " يمين " و " يسار " ، و " رجعية " وتقدمية " ، وانصرفت الرجعية إلى اليمين ، أما التقدمية فانصرفت إلى اليسار ، ولم يكن الوصف بالعلمانية على نفس الدرجة الحالية من الشيوع ، خاصة وقد اختفى التصنيف السابق ، بعدما اختفت منظومة الدول الاشتراكية من على خريطة الدنيا .

---

* جريدة آفاق عربية ، فى ١١ ، ١١/٢٥ ، ٢٠٠٤/١٢/٢

كان اليساريون فى مصر حريصين إلى حد كبير على ألا يقربوا المسألة الدينية بالنقد ، على الرغم من أن أكثر فرق اليسار ، ألا وهم الماركسيون ، معروف عنهم مقولات سلبية شهيرة تجاه الدين ، لكنهم فى مصر تعاملوا بذكاء شديد مع هذه المسألة ،ذلك لإدراكهم أن الدين ، كما هو معروف ، من أبرز النقاط الحساسة بالنسبة للمصريين ، لا فيما يخص الإسلام ، ولكن طوال تاريخهم ، حتى قبل ظهور الأديان السماوية ، وفى قطاع الأقباط معروف أنهم أكثر الطوائف المسيحية التصاقا بالدين ... وهكذا ، ومن ثم فإن الحرص على اجتذاب الناس إلى اتجاههم دفعهم إلى هذا الموقف •

وأذكر أننى عندما كنت أكتب بكثرة فى جريدة الأهالى فى الثمانينيات ، وكان الفصيل الماركسى فى حزب التجمع هو الموجه لها ، وكان بعض الزملاء ينتقدنى بشدة لكتابتى فيها ، كان ردى دائما أن الجريدة لا تمس الدين بضر بأى حال من الأحوال ، وكانت مقالاتى فى كثير من الأحوال تحمل عناوين من القرآن الكريم ، دون أن يتدخل أحد فيها ، وأروج لكثير من المفاهيم والمقولات الإسلامية أيضا بغير اعتراض من أحد ، على أساس احترام متبادل بينى وبين القائمين بأمر الجريدة ، بل لقد عبر خالد محيى الدين فى مقابلة خاصة بمكتبه عن تقديره لما أكتب واعتباره لى من كتاب الجريدة الأساسيين!!

لكن الأمور بدأت تأخذ منحى آخر بعد تلك التحولات التاريخية التى أسفرت عن انهيار الاتحاد السوفيتى وبقية منظومة لدول الاشتراكية ، وانفراد الولايات المتحدة الأمريكية ، زعيمة العالم الرأسمالى بالساحة الدولية ، تأمر وتنهى كما تريد •

كان التصور الساذج لواحد مثلى غير خبير بالسياسة " العملية " أن لابد أن يقوم تحالف بين اليساريين فى مصر والإسلاميين فى الموقف من " العدو " الحقيقى لجموع شعوب المنطقة العربية والعالم الإسلامى ، ألا وهو دولة العدو الصهيونى فى إسرائيل ، وراعيتها الولايات المتحدة ، والتى تسخر علاقاتها مع

جملة الدول العربية بالقدر الذى يخدم دولة العدو الصهيونى • وكان المبرر لهذا الظن الشخصى أن المنطق الذى قام عليه العداء الـذى استمر عقودا بين اليساريين والولايات المتحدة لم ينهدم بانهيار الاتحاد السوفيتي ، ذلك أنه منطق قام على أسانيد وبراهين تاريخية واقتصادية وفلسفية واجتماعية وثقافية ، وأن الدولة الصهيونية إذ قامت على أساس أوهام دينية قديمة ، وعنصرية سياسية ، لابد أيضا أن تكون غير مقبولة يساريا ، وكل هذا مما يعد متفقا إلى حد كبير مع الاتجاه الإسلامى • بل إن " ستالين " نفسه، زعيم الاتحاد السوفيتى طوال أهم فترة فى تاريخه ، لم يجد غضاضة فى أن يتحالف مع بريطانيا والولايات المتحدة لمحاربة العدو المشترك المتمثل فى ألمانيا النازية فى الحرب العالمية الثانية ، وأثر عن تشرشل نفسه ، رئيس الوزراء البريطانى زمن هذه الحرب قوله أنه مستعد أن يتحالف مع الشيطان مادام ذلك يفيد المصلحة العليا لبلاده•

لكن ، منذ الانتخابات المصرية ١٩٩٠ لمجلس الشعب ، والتى قاطعتها الأحزاب المعارضة باستثناء حزب التجمع ، بدأنا نرى تحولا آخر ، يقرب بين يساريين وبين الحكومة ، حيث " سمحت " الحكومة لعدد من المرشحين من حزب التجمع بالنجاح -بلا مبالغة فى هذه العبارة ، التى لا تقدح فى شعبية هذا وذاك ، فكم من مرشحين عرفت شعبيتهم الطاغية ، لكن التدخل الحكومى منعهم من النجاح ، والعكس صحيح ، كم من مرشحين لا شعبية لهم ، أرادت لهم الدولة بوسائلها المعروفة ، النجاح •

وليست هذه هى المرة الأولى التى أشير فيها إلى هذا القضية ، فقد سبق أن دق قلمى جرس الإنذار لهذه الظاهرة ، فكتبت فى الأهالى نفسها مقالا ، ربما لآخر مرة يظهر لى مقال فيها ، كان عنوانه (حتى لا يقع اليسار فى المصيدة) فى أوائل التسعينيات ، حيث كان الراحل فيليب جلاب رئيسا للتحرير ، ثم كتبت مرتين فى مجلة " اليسار " ، آلتي كان يرأس تحريرها حسين عبد الرازق ، أواسط التسعينيات ، عن القضية نفسها ، حيث كانت الظاهرة قد تفاقمت وفاحت

رائحتها فكتبت مقالا بعنوان : (سوف تؤكلون يوم يؤكل الثور الأبيض) ، وآخر بعنوان (اليسار الذى فى المصيدة) .

كان النقاش محتدما في تلك الفترة حول الإجابة عن تساؤل : من العدو ؟ وكان من رأى البعض أن العدو هو الاستغلال والظلم والفساد واحتلال الشعوب ، ومن ثم فإن رموز هذه الشرور يجب أن تكون هى هدف المواجهة ، ورموزها معروفة فى : قوى حكومية فاسدة ، نتيجة طبيعية لاحتكار الحكم وغياب الممارسة الديمقراطية الحقيقية ، وقوى مهيمنة خارجية تتربص بشعوب المنطقة ، وأن من الضرورى التحالف مع الإسلاميين ، فهم وحدهم ، على أرض فلسطين المحتلة ، وفى جنوب لبنان ، هم الذين يحملون السلاح ضد الاستعمار الجديد .

لكن ، مع الأسف ، فقد انتصر رأى آخر يرى أن المواجهة لا تكون مع الحكومة ، بل لابد من التعاون معها لمواجهة " الإرهاب " ،وكان ذلك قبل سبتمبر ٢٠٠١ بسنوات ، حيث قدم نفر من الجهلاء المحسوبين على الإسلام ، المبرر لهذا الفريق ، عندما حملوا السلاح وقتلوا به أبرياء ودمروا منشآت ، وأشاعوا رعبا وخوفا ، مدعين أنهم فعلوا ما فعلوه من أجل الإسلام!!

وهكذا بدأت الحرب والمواجهة ، قبل أن تبدأها الولايات المتحدة ..هنا على أرض مصر ، منذ مقتل الشيخ الذهبى ، وقبلها حادث الفنية العسكرية ، ثم مقتل رئيس الدولة نفسه ، السادات ، وما تلاه من أحداث مروعة متفرقة .

واختلط الحابل بالنابل ، وأصبح الخلط صارخا بين مواجهة الإسلام ، ومواجهة عدد ممن انحرفوا عن الإسلام ، حتى أصبح كل من استمسك بدينه ورأى أنه هو الموجه للحياة ، مساندا للإرهاب ، وضاعت الحدود بين ألوان طيف متعددة فى شرائح الإسلاميين ، بحيث أصبح البعض يردد صراحة أنه لا فرق بين الدكتور يوسف القرضاوى والمرحوم الشيخ الغزالى وبين جماعات الجهاد والجماعة الإسلامية وغيرهما من جماعات العنف المسلح ،وأن المسألة

لا تعدو توزيعا فى الأدوار .

ثم إذا بالحكومة ، منذ سنوات عدة تجد نفسها بحاجة ماسة إلى الفريق اليسارى من المثقفين ، يسندونها فى محاربة الإسلاميين ، فأحلتهم مواقع الصدارة والتأثير فى أجهزة الثقافة والإعلام ، وهى الحكومة نفسها التى مضت على طريق السادات الذى كان موضع كراهية اليساريين وهجومهم الحاد ، بل إن الحكومة المصرية من بعد السادات ، لا يمر عليها يوم إلا وتمضى أكثر تطرفا وإيغالا فى النهج الساداتى من حيث مزيد من الارتباط بالولايات المتحدة ، وجنوح إلى التطبيع مع إسرائيل ، وإسراع على الطريق الرأسمالى ، ومع ذلك ، يظل السادات ونهجه موضع هجوم ، ولا ينال العهد الحالى نفس الهجوم ، مما يبرز السبب ، وهو أن الأول خاصم اليسار ، بينما الثانى احتضنه ووظفه لمصلحته هو لا لمصلحة مقولات اليسار ، وكان هذا ما يجرح كتابات البعض ويشكك فى مدى صدقها وإخلاصها لقضية هذه الأمة ومستقبلها القريب والبعيد .

وإن المرء ليحار بالفعل عندما يرى الفريق الذى كانت شرعية وجوده على الساحة أنه عدو لدود لقوى الاستعمار والهيمنة الخارجية ، إذا به يتحول إلى سند لنظم حكم أصبح ولاؤها واضحا ومعروفا لمثل هذه القوى التى : تدمر بيوت وتجرف زراعات يوميا على أرض فلسطين ، وتقتل وتذبح مئات أسبوعيا ، وما يجرؤ حاكم على أن يصدر ولو تصريحا يدين ما يتم ، وأسوأ من ذلك ما يتم يوميا على أرض العراق ، ولا صوت يعلو من هذا الرئيس أو ذاك الأمير ، أو هذا الملك . كنا زمان نسخر من أن النظم الحاكمة لا تملك إلا الشجب ، فإذا بيوم يأتى علينا نحلم فيه بأن يقوم حاكم عربى بمثل هذا الشجب ...هذه النظم ، من تعتمد عليه الآن ثقافيا وإعلاميا ؟

ويا ليت الأمر وقف عند حد المساندة لنظم الحكم العربية ، لكنه تعدى ذلك لمساندة قوى الهيمنة العالمية، بطريق غير مباشر ، صحيح أن هناك أحيانا مظاهرات ، ومقالات ، وأحاديث فى الفضائيات تتسم بالنقد والهجوم على قوى

الاستكبار ، لكن حلل ما يقوله هذا النفر من مثقفينا عن الحركة الإسلامية ، وقارن بينه وبين ما يردده كل من الصهاينة والأمريكيين ، فلن تجد اختلافا جوهريا مع الأسف الشديد .

نقول هذا الذى نقوله ، لا على سبيل " التخوين " و " التكفير السياسى " ، ذلك لأننا – مرة أخرى – أبعد ما يكون عن مثل هذا النهج ، وإنما نقوله لأخوة فى وطننا ، عتابا ونصيحة ، ولسان حالنا يقول " اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون " !

إن هذا النفر من قومنا ربما يبررون هذا الموقف الذى يقفونه بأنهم أمام خطر أكبر ألا وهو تسييس الدين – كما يتصورون – فهو يتمكن من عقول وقلوب أصحابه ، حتى ليتساوى مع العقيدة قوة وتمكنا ، وبالتالى يصعب مواجهته ، بينما قوى الاستعمار الجديد ، خطر خارجى ، لا يستحيل مواجهتها ، ومن ثم فلا مانع من التحالف معها – مؤقتا - للقضاء على ظاهرة التسييس الدينى التى تؤدى إلى العنف المسلح والإرهاب ، وبعد ذلك يمكن الالتفات إلى هذه القوى الخارجية والداخلية ومواجهتها .

هنا نجد المنطق معكوسا ، حيث نرى حكما على عقيدة ، من خلال سلوكيات نفر ممن انحرفوا عن طريقها المستقيم ، وكأن البعض يصر على ألا يرى من الإسلام إلا أفعال هذه الفئة الضالة ، ولو فتحت القلوب والعقول لعدد غير قليل من مفكرى الإسلام المعاصرين ممن عرفوا بالوسطية والاعتدال ، فضلا عن الكف عن مظاهر القهر والاستغلال والاستبداد ، سواء من داخل أو من خارج ، ولو فتحت قنوات وأبواب التعبير الحر عن الرأى ، بغير تخويف وترويع ، لاختفت ظاهرة العنف المسلح ، ولتوارى الكثير من مظاهر الإرهاب .

إن بالإسلام ظاهرة يجب أن تلفت الأنظار ، فعلى الرغم من هذه المظاهر المتعددة للحرب عليه وعلى أتباعه فى كثير من مناطق العالم الخارجى ، وفى

داخل الدول العربية والإسلامية نفسها ، نجده يزداد انتشارا وتمكنا من القلوب والعقول ، كأنه مثل " المسمار " ،كلما ضربت عليه ، كلما زاد تعمقا ، وزادت فاعليته فى اللحم بين العناصر والأجزاء .

ففى مصر على سبيل المثال : تتقلص المساحة الزمنية للبرامج الدينية على شاشات التلفزيون ، ويوسع من أغانى العرى والتنطيط ، ولا تُنتج - فى رمضان - مسلسلات دينية ، وإذا أُنتج فواحد " كفاية عليهم " ويُرمى فى توقيت ميت ، ويضيق على كل مسلمة تلتزم بالحجاب ، حتى لتحرم من تقلد كثير من الوظائف - تحت سمع وبصر المجلس القومى لحقوق الإنسان دون أن ينبت ببنت شفة - وتفتح قنوات فضائية عديدة ، ولا يُفكر فى قناة دينية ، وتقلص التربية الدينية فى المدارس ، من حيث الزمن ، ومن حيث حجم المقررات ، ومن حيث " تحييد " الكثير من موضوعاتها ،بحيث تتخفف من خصوصيتها الإسلامية ...إلى غير هذا وذاك من مظاهر يصعب حصرها فى هذا الحيز ، ومع ذلك ، فسبحان الله ، ترى مزيدا من الإقبال على النهج الإسلامى ، وتكاثرا فى الناس ، وفى مظاهر تشبثهم بعقيدتهم .

ولعل من أبرز مظاهر هذا الذى نقول ، أنه إذا كانت الدولة قد خففت فى نظامها التعليمى الرسمى من الجرعة القرآنية ، فقد سارع الناس إلى تعويض ذلك بما بدأ يظهر ويتكاثر بشكل ملحوظ فى كثير من المساجد ، وخاصة فى عطلة الصيف من مكاتب تحفيظ القرآن ، التى يقبل عليها كثيرون يصحبون أطفالهم الصغار ، وعدد منهم غير قليل من هذه الشرائح الاجتماعية ذات المستويات الاقتصادية والإدارية العالية ، بل لقد عرف التدين طريقه إلى قلوب أبناء قوى متنفذة فى الداخل سياسيا ، فضلا عما هو ملاحظ من دخول عدد من الفنانين فى ظلال الإسلام ، سلوكا وفكرا ، وكأن لسان الحال يقول : موتوا بغيظكم .

وهكذا نرى هذا النفر من مثقفينا الذين تفرد لهم الصفحات فى الصحف

الأكثر انتشارا وتوزيعا ، وساعات طويلة فى العديد من القنوات التلفزيونية ، والندوات والمؤتمرات ، وتيسير نشر كتبهم ، يسيرون فى طريق ويسيرون فى اتجاه ، وهم لا يدركون أنهم فى واد ، والكثرة الغالبة من جماهير الناس فى واد آخر ، ويتوهمون أنهم يمثلون ضمير الأمة ، وفقا للمقولة العامة عن دور المثقف ، وهو الأمر الذى لم يعد قائما فى المنطقة العربية إلى حد كبير ، لأن المثقف فى الغالب والأعم أصبح ، لم يعد هو ضمير الأمة بل ، لا نقول " ضمير " الدولة ، ولكنه قناعها بكل الأسى وبكل الأسى !

حتى فى مجال " الفن " ،نجد نه فى الوقت الذى تنتشر فيه قنوات "الفديو كليب " وأغانى العرى والرقص الخليع ، تجد الناس يعوضون ذلك بإقبال ملحوظ على تسجيلات القرآن الكريم وتسجيلات الخطب الدينية التى يلقيها كبار علماء الإسلام ، وكذلك تسجيلات الإنشاد الدينى .

وعلى الرغم من الإهمال المزرى - من حيث الإمكانات المادية - لإذاعة القرآن الكريم ، تظل هذه الإذاعة دائما فى مقدمة ما يقبل على سماعه ملايين الناس ، فى الوقت الذى تجد فيه إذاعة للأغانى ، وأخرى للبرنامج الموسيقى !

وهكذا لم نعد نجد الساحة الثقافية " تتأطر " بإطار فكرى عام واحد يعبر عن خصائص الذات الحضارية للأمة ، وتتنوع فيه الاجتهادات ، وتتعدد ألوان الطيف ، ولكن : ساحة يتجاذبها قطبان ، لا يجرى بينهما حوار فى الغالب والأعم ، بقدر ما يقوم صراع !

إن البعض ربما تصور هذا صورة من صور التعددية والتنوع ، وأن من شأن التعددية والتنوع فى الثقافة أن يبعث بها على مزيد من الازدهار ويبث فيها الحيوية ، لكن هذه الصورة التى نشير إليها ليست مما يقع تحت مظلة التعددية والتنوع ، ذلك أن " التعدد " عندما ينال " الجذور " يصيب الأمة قدر كبير من التشوش ويغرق الأجيال الجديد فى بحر من الضبابية كبير .

إننا لو سمعنا واحدا يذهب إلى القول بالتعددية فى الرئاسة ، وفى الحكومة ، وفى العلم ، والسلام الوطنى ، نظرنا إليه على أنه ، إما مخرب ، وإما على قدر عال من السذاجة ، فالبلاد لابد أن يرأسها واحد ، ولابد أن تكون لها حكومة واحدة ، كما لابد أن يكون لها علم واحد ، ونشيد وطنى واحد .

لكننا فى الوقت نفسها نجيز وجود محافظين ، كل منهم يدير الأمور داخل محافظته ، عن طريق مجلس للمحافظة ، ثم يتكرر هذا بالنسبة للمدن والقرى .

ولعل جوهر المشكلة التى يعانى منها أشقاؤنا فى لبنان هو أن التعددية قد تطرفت فوصلت إلى تعددية " جذور " ، دائما ما تستغلها قوى خارجية ، إقليمية ودولية للنفاذ إلى قلب البلاد ، فتناصر هذا على ذاك ، ويكون الخاسر هو لبنان نفسه واللبنانيون .

وهكذا لابد من أن يكون هناك ما يشبه " النوتة الموسيقية الواحدة " ، مع تعدد العازفين وتنوع آلات العزف ، فعندها يمكن أن نسمع نغما شجيا ، أما إذا كانت كل مجموعة لها نوتتها الموسيقية ، فسوف نسمع نشازا ، حتى لو عزفت كل مجموعة فى الساحة الواحدة ، وفى الزمن الواحد ، سيمفونية لكبير من الموسيقيين .

فتنة العصر* ..!

قل منا من لا يعرف قصة التحكيم بين على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان ، ومقدماتها إبان ما حدث لعثمان بن عفان رضى الله عنه مما انتهى إلى قتله ، ووصولا إلى ما حدث بعد ذلك من سيلان أنهر دم نتيجة القتال بين المسلمين ، تحت قيادات ، أصحابها من أفضل من عرفنا من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكنها " السياسة " قاتلها الله وما ارتبطت به من تنازع على السلطة.

ولأن الاختلاف فى الرأى وتباين الأفهام سنة بشرية فطر الله عز وجل الإنسان عليها ، كان لابد – بعد وفاة رسول الله – أن يبدأ ظهور المدارس والفرق والمذاهب التى أخذت تتكاثر بمرور السنين.

وكان من المفروض أن يكون السلاح الأساسى فى الاختلاف والجدل هو الحجة المنطقية والدليل العقلى والبرهان المنطقى والسند الشرعى ، لكن هذا وإن تم استخدامه بالفعل ، لكنه اختلط به سلاح آخر تسكن الشياطين خلفه ألا وهو الهوى السياسى ، فقد تحصن بعض أصحاب الهوى السياسى وراء متراس مذهبى ، وأخفى بعض المتمذهبين رأيه وراء راية سياسية ، فكان ما كان مما تمتلئ به كتب التاريخ السياسى الإسلامى من نزاعات وحروب داخلية كان لها دورها فيما بعد فى بث روح الفُرقة وتسريب جراثيم التنازع ، بل وتغليب ذلك على المصلحة الكلية لجموع الأمة .

وإذا كان الاتصال بالغرب منذ أواخر القرن الثامن عشر قد جر علينا ما يصعب عده وحصره من البلايا والمآسى ، إلا أن ما لا يمكن إنكاره أنه قد أفادنا شيئا ما فى محاولة فض الاشتباك بين ما هو مذهبى وما هو مصلحة

---

* جريدة الوفد فى ٢٠٠٧/٢/١٧

سياسية ، وبالتالى فلك أن تؤمن بما تشاء ولى أن أومن بما أريد ، لكن مصلحة الوطن وحاجات الأمة يجب أن توحد بين الجميع .

كان مما عزز هذا - مثلا - أن الاستعمار البريطانى عندما استهدف مصر وامتصاص دمائها لم يوجه وحوشه الضارية إلى سنة دون شيعة ، أو إلى حنفى دون حنبلى ، ولكن أسلحته استهدفت الجميع ، فكان على الجميع أن يحصروا تمذهبهم فى عقولهم وفى قلوبهم ، وأن يتحدوا جميعا لمواجهة هذا السرطان الغربى المميت للجميع .

وربما كان من حظ مصر بصفة خاصة ، ربما أكثر من أى بلد آخر ، أن غلبت طبيعتها المتجانسة ، وما أفرزته من ثقافة شبه متجانسة ، فلم تعرف تمذهبا ، إلا من باب الدراسة المتخصصة فى الأزهر بحيث يكون هذا الطالب حنفيا أو مالكيا أو غير هذا وذاك ، وأصبح كثيرون منا لا يسمع عن التمذهب إلا عند عقد قران ، عندما يسمع المأذون يردد أن ما يتم من إجراءات إنما يتم وفقا للمذهب الحنفى ، دون أن يدرى مغزى هذا وانعكاساته .

ثم كان ما كان عندما انتصرت الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩ وأعلنت أنها تقوم على مذهب الجعفرية (الإمامية الإثنى عشرية) ، وكانت تلك هى المرة الأولى فى العصر الحديث التى تعلن فيها دولة إسلامية أساسها المذهبى . ومع ذلك ، فقد كان هذا حقها ..أملا فى ألا تعكس هذا على علاقاتها مع الدول الإسلامية الأخرى..

هنا أطل البعد السياسى ليلوث الأجواء ...

كانت إيران فى العهد السابق على الثورة الخومينية ، فى عهد الشاه ، تعد إحدى الركائز التى تقوم عليها المصالح الأمريكية فى المنطقة ، ومن هنا فقد كان اتجاه الثورة معاديا للمصالح الأمريكية .

ومن ثم بدأت الولايات المتحدة تلعب لعبتها ، لا بطريق مباشر ، ولكن عن طريق " وكلاء " لها بالمنطقة ، يقومون بما يؤكد المصالح الأمريكية ، حتى ولو كان ذلك ضد المصالح الكلية للأمة .

هنا – ويا للأسف – برز صدام حسين ، خاصة وأن خلفيته البعثية القائمة على القومية العربية بمعناها العِرقى بالدرجة الأولى ليعلن ، ولمّا تقف الثورة بعد على قدميها ، بعد ثلاث سنوات فقط ، الحرب معها أو عليها ، ويطلق تلك الشعارات العنصرية ، بأن هذه الثورة إنما هى ثورة " المجوس " ، وأنها تشكل خطرا " فارسيا " على " العرب " ...

وتدفقت الأموال على صدام والأسلحة ، وكانت القنوات الأساسية للتمويل هى دول الخليج ، ومن وراء كل هؤلاء الشيطان الأكبر : الولايات المتحدة .. نسينا العدو الأكبر ، والخطر الحقيقى على الأمة العربية ..الولايات المتحدة ، وإسرائيل ، والتفت الجميع إلى فريق من أبناء الدين الإسلامى ليعتبروهم هم العدو الأساسى !!

ثمانى سنوات : كم أكلت نيران الحرب فيها مئات الملايين من الدولارات ، كانت تكفى لإشباع جياع العرب وعراتهم ، وتعليم جاهلهم ، وتشغيل مصانعهم ، وتنشيط متاجرهم .

وكم أكلت من أرواح عشرات الألوف من أبناء الأمة ؟

وكم ، وكم ، مما هو معروف من نتائج الحروب الشاملة ، خاصة عندما تستمر ثمانى سنوات.

لم نكن نحن منتجو أسلحة الحرب التى أنفقت عليها مئات الملايين ، وإنما هى نفسها القوة المحرضة صاحبة المصلحة ، ومن ثم كان هناك سيل من المكاسب يصب دائما فى الخزائن الغربية عامة والأمريكية خاصة .

لم يكتف صدام بذلك بل انتهج سياسة داخلية تقوم على فرز طائفى ، لا أقول ذلك اليوم ، بل قلته منذ سنوات بعيدة حيث كان لى اتصال زمن حكم صدام بعدد من ضحاياه الطائفيين .

فلما قامت أمريكا بغزوها للعراق ، إذا بطاقات غضب وكراهية مكتومة منذ سنوات تتفجر لدى شيعة العراق ، وإذا بهم يكررون خطأ صدام تجاههم ، فى تعاونهم المؤسف مع احتلال وغزو لا يمكن أن يضمر خيرا بأى صورة من الصور لأى بلد عربى ولا أى فرد من أفراد هذه الأمة ، حتى ولو كان عميلا ، فله دوره الموقوت ، وبعد ذلك يتم لفظه ، وربما اختفاءه . وإذا بهم أيضا ينسون أن الذى أضر بهم لم يكن وطنهم العراق ، ولا شعبهم العراقى ، بل هو نظام حكم ، مهما كان فأفراده معدودون ، فإذا بنار انتقام خفية تكسو أرض السواد باللون الأحمر الدامى ، ويكون هناك رد فعل مساو له فى القوة ومضاد له فى الاتجاه من الطرف الطائفى الآخر ، ويكن الوطن هو الخاسر ، ويكون المستقبل هو المهدد بالخطر.

لكن أرضا عربية أخرى كان الموقف فيها مختلفا ..ألا وهى أرض لبنان ...

لم يعرف لبنان نظاما مثل نظام صدام يضطهد ويتوحش على طائفة دون أخرى ، فكثرة الطوائف فى لبنان وقوتها فرضت " توافقا " بين الجميع ، وإلا استحال العيش على الجميع .

وكان الخطر الأساسى على لبنان هوة الخطر الصهيونى ، فضلا عن خطر الفقر ومظاهره ، فنبتت قوة مقاومة بدوافع أخرى مختلفة تماما عن العراق ، وكان مهدها بين شيعة لبنان . ولما كان الخطر الصهيونى مستندا إلى القوة الأمريكية ، كان لابد وأن ترى هذه المقاومة عدوها هو الكيان الصهيونى ومن هم وراء الكيان الصهيونى .

وواجهت القوة الغازية الأمريكية الفشل الذريع لغوها للعـراق ، وواجهـت ربيبتها إسرائيل الفشل فى لبنان ، فماذا تكون الطريقة التى تعوض بها أمريكـا وإسرائيل فشلهما ؟

هو المنطق الشهير القديم : فرق تسد ..

فليُسَق العالم العربى والإسلامى إلى أن يضرب بعضه بعضا :

تقوم حرب أهلية حقيقية فى العراق فيقتل العراق عراقيا مثله بدل أن يقتل أمريكيا أو بريطانيا ، ولتتجه رصاصات فتح وحماس إلى بعضهما بعضا بـدلا من أن تتجه إلى المحتل الصهيونى ، ويتوجه اللبنانى إلى التضييق على حزب الله ، بدلا من أن يتكاتف معه لمواجهة إسرائيل ، وتكتب الـصحف المـصرية الرسمية عن الخطر الشيعى وعن التشيع ، دون أن يوجهـوا جهـودهم إلـى مشكلات مصر المزمنة فى تدهور التعليم وانفجار الجامعات بالطلاب وتفـشى التحلل الأخلاقى ، وسيطرة رأس المال على الحكم ، والعجـز المـستمر فـى موازنة الدولة ، وتراجع الصناعة الوطنية ، وتزايـد مـساحة امـتلاك غيـر المصريين للعقار ، سكنا أو أرضا ، توحش القوى الأمنية لتبث الذعر والخوف فى القلوب فيشيع الجبن ويتأصل الانصياع وتتأكد السلبية وينتشر الخنوع بـين جموع الناس !

ألا إنها لفتنة العصر حقا ، وهى أخطر ما نواجهه منذ قرون ..أخطر ممـا واجهناه من صور استعمار مباشر ، إنها النار الحقيقية التى يمكـن أن تأكـل الإنسان والأرض ، لنصبح من الشعوب المنقرضة ، بما فيها حكامها أنفسهم ، حيث القاعدة الشهيرة أن السفينة عندما تغرق ، فلابد أن تغرق بالجميع ، إلا إذا كان الربان من هذا النوع الذى يرتب أموره مسبقا ، فيقفز حتـى لا يغـرق ، وكما تصور ابن نوح من أنه يستطيع أن ينجو من الطوفان : (وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧)) سورة نوح .

سوفسطائيو هذا الزمان*!

زمان ٠٠عرفت أثينا اليونانية نفرا من الفلاسفة عرفو بالسوفطائيين ، كان شعارهم " الإنسان مقياس كل شئ " ، فإذا رأيت أنا أن هذا حق ، فهو حق ، وإذا رأيت أنت غير ذلك فهو بالفعل هكذا لديك ، فإذا سألت : وهل يمكن أن يكون الشئ حقا وباطلا فى آن واحد ؟ قالوا أن الحق والباطل مقاييس ذاتية ٠٠ بداخلنا نحن ، ثم نسبغها على الأشياء ٠

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد ، بل كان يمكن أن أرى أنا أمرا ما حقا اليوم ، ثم أحكم عليه غدا بأنه غير ذلك ، فهل فى هذا تناقض ؟ يجيبون بالنفى ، لأن الحق أمر غير ثابت ، فقد تتغير الظروف ومن ثم لابد أن أغير رأيى ! المهم تحقيق الفوز والكسب ، أو كما نقول اليوم " اللى تغلب به العب به " ، حتى ولو كان ذلك على حساب الحقيقة والمنطق ودهس مجموعة من القيم الأخلاقية!

ومن الملاحظ أن فلسفة هذا توجهها شاعت فى فترة تفسخ وخلل هيكلى فى بنية المجتمع الأثينى القديم نتيجة حروب طويلة بين أثينا واسبرطة ، فانتهزها السوفسطائيون فرصة وراحوا يبيعون بضاعتهم الفكرية الفاسدة بتعليم الشباب الأثينى " أصول الصنعة " ، أى كيفية ممارسة الجدل بهذا المنطق ، فشاع فى العالمين مصطلح " السفسطة " دلالة على كل جدل لا يستقيم وقواعد التفكير السليم والمنطق الصحيح ٠

وإذا كان زمن هؤلاء قد ولى بانقضاء هذه الفترة من تاريخ أثينا ، إلا أن سلوكهم أحيانا ما يظهر هنا أو هناك ، ما دامت الظروف قد توافرت ، وأسلوب التفكير قد مورس ٠٠٠

منذ أيام معدودة ، سمعت أحد المثقفين العرب " الكبار " يتحدث فى راديو لندن

---

* جريدة آفاق عربية ، ٢٠/١/٢٠٠٥

عن الأوضاع فى العراق ، فكان مما قاله لا فض فوه أن توجه هذه الأعمال التى نسميها مقاومة هو توجه " سلفى " • يطلق هذه الصفة على سبيل الذم ، مع أننا لو ناقشناه فى مدلولها لتبين لنا كم يمارس منطق السفسطة بشكل عصرى ، فالسلفية إذا كانت تطلق على توجه يتصل بالماضى ، فمن بدائه التفكير أن نؤكد أن ليس كل ما مضى شرا ، كما ليس كل ما مضى خيرا ، فهل يستقيم الحكم الجازم والتعميم الجارف ؟ و•• أوليس هؤلاء الذين يرددون أفكارا قال بها مفكرون غربيون من عصور مضت يسيرون كذلك وفق المنطق السلفى ؟ أم أن السلفية مصطلح عربى فقط ؟

وكان مما قاله أيضا دفاعا عن إجراء الانتخابات العراقية فى ظل الاحتلال الأمريكى ، أن مصر أنجزت دستور ١٩٢٣ (وليس ٢٢ كما قال) ، والجميع يتغنى بمثل هذا الدستور ، ويتمنون عودته ، فى ظل الاحتلال البريطانى ، وتمت أول انتخابات نيابية فى مصر فى ظل هذا الدستور !

ماذا نقول للمفكر الذى وصفه المذيع بأنه " كبير " تصويبا لمنهج التفكير الغارق فى السفسطة ، كى يؤكد على مشروعية هذا الذى يحدث على أرض العراق الجريح ؟ لم أكن أصدق أذنى ، والمفكر " الكبير " يصف ما كان سائدا من قبل من دعوات " القومية " العربية بسخرية واضحة ، هى وما سار على الطريق من شعارات ودعوات ملأت الساحة فى الخمسينيات والستينيات ، تلك الفترة التى شكونا منها ، فإذا بنا ، قياسا لما نراه اليوم نردد (رب يوم بكيت منه فلما مضى بكيت عليه)! ، و " ياريتها دامت أيامه " ، على رأى الراحلة أم كلثوم!

هل نكرر المسلمة التى تقول أن المقارنة لا تستقيم أبدا للاختلاف الكلى بين الحالتين ، خاصة وهناك ثمانون عاما تفصل بينهما ، جرت فيها أنهار الزمن بما لم يقع فى حسبان أحد ، ولا حتى فى خيالهم ، ولو حاولنا أن نقارن لما اتسعت صفحات الجريدة كلها لذلك ويكفى أن نشير إلى أن بريطانيا لم تكن وحدها على

فى الاستعمار ، بينما الأمريكان محدثو استعمار ، فما رأينا يوما تدخلا إنجليزيا فى نظام التعليم الدينى ولا فى مناهجه ولا فى تعيين مسئوليه • أما استعماريو اليوم من الأمريكان ، فهم يدورون فى كل أنحاء العالم الإسلامى عامة ، والعربى خاصة يسعون سعيا حثيثا ، باللين تارة ، وبالتخويف تارة ثانية ، وبالتحايل تارة ثالثة " لتفصيل " التعليم الدينى وفقا لرؤاهم هم ٠٠غير المسلمين ، وخاصة نازيو العصر فى دولة العدو الصهيونى •

ثم من هم الذين يصرفون الأمور اليوم فى العراق ؟ ألم يكن معظمهم يعيش سنوات على أموال المخابرات الأمريكية ؟ من الذى اختارهم ؟ أليست سلطة الاحتلال فى الحقيقة والواقع ؟ فماذا ننتظر أن يكون سلوكهم ؟ هل كان يمكن للمحتل الأمريكى أن يسمح لهؤلاء أن يتقلدوا السلطة إذا لم يكونوا على ثقة بأنهم خير أعوان وأطوع حكام ؟

إن هذا المنطق السوفسطائى ليس منطقا يمارسه فرد حتى ولو كان مفكرا " كبيرا " ، ولكنه للأسف الشديد هو أيضا منطق دول ، وأى دول ؟ دول عربية ، وأى دول عربية ؟ إن منها أيضا هذه الدولة " الكبيرة " ، مصرنا الأسيرة ، التى تعمل وتسعى من حين لآخر فيما يسمى اجتماعات دول الجوار التى لو حللتها لوجدت أن جهدها الأساسى هو " تأمين " الحدود العراقية ، حتى لا يتسلل منها مشاركون فى المقاومة ، وهم لا يجرؤون على أن يمدوا جهدهم هذا إلى الإسرائيليين الذين أشارت إلى وجودهم تقارير ومصادر متعددة فى شمال العراق ، فوجودهم حلال ، لأن المحتل يعلم ويرضى ، بل ويطلب ويستعين بهم!

كان البعض يقول بالأمس : اللهم احمنى من أصدقائى أما أعدائى فأنا كفيل بهم!

ونحن نقول اليوم : اللهم احمنى من أهل بيتى ، أما أعدائى فأنا كفيل بهم !

ثقافـــــة التيه* !

(قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ٠٠ (١٤٤)) البقرة

طوال تاريخها المديد ،وعبر الحقب والعصور ، كانت الثقافة فى مصر فى جملتها تتجانس فى مكوناتها إلى حد كبير ، وتتشابه فى أهدافها وتـــآلف فـــى شخصيتها ، قد يكون هنا مؤثر أجنبى ، أو هناك ، وقد يكون هنا نتوء حضارى أو هناك ، وقد تكون هنا جزيرة ثقافية منعزلة أو هناك ، لكن هذا وذاك لم يكن لينقض التوجه العام والمسيرة الرئيسية الموحدة ،ولهذا لم يكن غريبا أن تتشابه مؤسسات التعليم وتتجانس ، فهى المعابد والأسرة والجيش فى مصر الفرعونية ، وهى الكنائس والأديرة والأسرة فى مصر القبطية ٠

وما أن أعز الله مصر بالإسلام ، اختلفت القبلة الثقافية لمعظم المــصريين ، واختلفت عناصر ثقافتهم فى أهدافها وفلسفتها ودوافعها وموضوعاتها ، لكنهـا ظلت من القرن السابع حتى القرن الثامن عشر ، هويتها عربية إسلامية ،عربية باللسان والحضارة ، إسلامية العقيدة والفلسفة فى الغالب والأعم ، حتى هــؤلاء المصريين الذين آثروا البقاء على عقيدتهم المسيحية تعرب لــسانهم وتعربــت عقولهم ، وتأثروا تأثرا بالغا بالإسلام كحضارة وثقافة ٠ وكان من الطبيعى أن تستجد معاهد تعليم تقدم الزاد الثقافى المناسب ، فكان المسجد ، وكان الكتاب ، وكانت المدرسة ، فضلا عن الدور الدائم للأسرة المصرية ، ووسائط التعلـيم غير النظامى ٠

ثم إذا بطرقات الحضارة الغربية الحديثة تدق باب مصر بقوة النيران ودوى المدافع فى أواخر القرن الثامن عشر ، وإذا بالنظام الحاكم الذى تمخضت عنه

---

* كلمة افتتاحية ألقيت فى مستهل مؤتمر رابطة التربية الحديثة عام ١٩٨٧ ، بتربية عين شمس ، حيث كان تحت شعار (نحو مشروع حضارى لمصر) ٠

أحداث السنوات الأولى من القرن التاسع عشر يقيم الجسور مع الحضارة الغربية فى مختلف مجالات النظم الاجتماعية ، وفى مقدمتها التعليم .

لم يحاول القائم على رأس هذا النظام ، وهو محمد على أن يتناول ما هو قائم من نظام تعليمى بالتحديث والتغيير والتطوير ، لأنه كان يبنى دولة ويؤسس لحاضر، ولم يكن يبنى مجتمعا ويستشرف مستقبلا ، بمعنى أنه كان متعجلا يريد أن يرى ثمرة التغيير فى حياته ويستمتع بها ، أما الذى يبنى مجتمعا فلا يهمه أن تمضى حياته وهو فى مرحلة وضع الأسس وبذر البذور ، فسوف توالى الأجيال التالية مرحلة الرعاية والعناية لتستوى النهضة على عودها ،ويبدأ الحصاد : تنمية وقوة ، عزة وشموخا ، حضارة وثقافة .

ومنذ أن أنشأ محمد على نظاما تعليميا على النمط الغربى الحديث ، أصبح هذا النظام يفرز إلى المجتمع عددا من المواطنين ترنوا أبصار بعضهم إلى ما وراء البحر المتوسط ، ترى فيه نبع الخير وفيض التقدم ، وتدير ظهرها إلى تراث هذه الأمة ، متوهمة فيه التخلف والتأخر ، وظل نظام التعليم القديم المتمثل فى الأزهر ومعاهده يفرز إلى المجتمع عددا من المواطنين ، يستعيذ بعضهم بالله مما وراء البحر ، وهما منهم أنه لا يجئ إلا بكل ما هو مدمر مهلك ، وتظل رقابهم ملتوية إلى خلف ، ينظرون إلى تراث هذه الأمة بقضه وقضيضه نظرة إجلال تصل إلى درجة تقديس زعما منهم أنه وحده نبع الخير ومصدر الفلاح !

وأدرك نفر آخر من الأمة أن كلا الموقفين ربما يكونا على خطأ ، إذا تصور أصحاب كل وجهة تفردهم بالحق الخالص كله ، فليس كل ما يأتى مما وراء البحر خيرا خالصا أو شرا محضا ، وليس كل ما يحويه التراث قابلا للامتداد الزمانى والمكانى مما يعين على التطور والتقدم ، وأن الوجهة المطلوبة هى عملية " انتقاء " واع ، نقدى ، يقوم على الاختيار العقلانى الحر ،معيار هذه

العملية : خصائص هذه الأمة ومـــشكلاتها ، مقوماتهـــا وروحهـــا ،تطلعاتهـــا ومستقبلها ، تقدمها وخير أبنائها .

بيد أن هذا النفر لم يكن كثيرا ، ولم يكن [illegible] وحده فى الساحة ، إذ زاحمته طوائف أخرى قامت على أسس أخرى قد تتشابه للنظرة العجلى ، لكنها تتباين للنظرة الفاحصة ، من هذه الطوائف : التوفيقية ، والوسطية ، والحيادية .

لكن هذه المسيرة لم تترك لشأنها ، فقوى الامبريالية العالمية قـد أحاطــت بالبلاد من كل جانب تتربص بها ، وهى على ما كان بينها من اختلاف وتفاوت ، إلا أنها اشتركت فى الهدف ، ألا وهو التسيد على عقل هذا المجتمع وإعــادة تشكيله وصياغته بالشكل الذى يضمن لها استمرار الهيمنة وطــول الاســتغلال وديمومة التخلف .

ومع تعدد المتنافسين ، برزت الثقافتان الإنجليزية والفرنسية فـــى مقدمـــة الصفوف حتى الحرب العالمية الثانية ، ثم انضمت إليهما ، بل وتقدمت عليهما: الثقافة الأمريكية . إزاء هذا التعدد والتصارع كان من المستحيل على هذا البلد أن تتحدد له هوية واحدة . وإذا نظرنا إلى أجهزة التعليم ومؤسساته ، فــسوف نجد أنها كانت صورة أمينة لهذا التشتت ، فمعاهد أزهرية ، ومــدارس حديثـــة تابعة للدولة ، وداخل هذه ، كانت مدارس أولية للفقراء وابتدائيـــة للأغنيـــاء ، وهناك مدارس أمريكية وأخرى إنجليزية ، وثالثة فرنسية ، ورابعة ألمانيـــة ، وخامسة إيطالية ..وهكذا

وأيا كان الرأى فى مسيرة ثورة يوليو ١٩٥٢ ، فإن الذى يستحيل إنكـــاره أنها بذلت جهدا جبارا فى " لم الشمل " ، فقويـــت قبـــضة الإرادة الوطنيـــة ، وخطونا خطوات ملحوظة على طريق التنمية الذاتية ، وتأكدت وحدة المرحلـــة الأولى ، وطور الأزهر ، ومصرت مختلف المدارس الأجنبية .

كان المعول الأول لهذه المسيرة أن النظام القائم قد بشر بمشروع حضارى قومي واحد ، مهما اختلفنا حوله ٠٠كان النظام يعرف ماذا يريد ، ويوجه ما هو قائم نحو هذا الذى يريد ٠

ولأن التجربة قامت على التنمية المستقلة والإرادة الوطنية ، كان لابد من إفشالها بإغراقها فى مستنقع المنازعات وجرها إلى وحل الحروب ، فحدث ما حدث ٠

لم نتدارس الموقف بعد هذا بحثا عن مكمن الخطأ الذاتى ، فالأعداء الخارجيون معروفون ، وجهودهم الشيطانية ملموسة ، ولكن النظام الذى قام على أنقاض النظام السابق ، استقطب المسألة كلها فى استرضاء إحدى القوتين الأعظم بكل ما استتبعه هذا من تفريق الأهل وتبديد المال ومصادقة الثعبان وسلسلة الإرادة الوطنية وسد السبل أمام التنمية الذاتية والغرق فى مستنقع الديون ٠

وينعكس كل هذا على مسيرة الثقافة وأجهزة التعليم ، ففتحت الأبواب لا على مصراعيها كما يتصور كثيرون ، لأنها لو كانت كذلك لاقتحمت ديارنا عناصر قوة مثلما اقتحمتها عناصر ضعف ، لكن الحقيقة تقول أن ما اقتحم الديار هو أسوأ ما لدى الآخرين دون خيره ٠٠وبدأنا نعيش ما يمكن أن نسميه " مرحلة الحيرة الكبرى " ٠٠٠كان فرعون مصر القديم له فى الفيوم قصر مشهور باسم " قصر التيه " ، وأصبح لفرعون مصر المعاصرة فى كل رجا من أرجاء مصر عناصر ثقافة " التيه " !

استقطاب* ...؟!

ما أن اقتربت الساعة من العاشرة على وجه التقريب من صباح أحد أيام الأسبوع الماضى ، وأنا مندمج فى عملى بمكتبتى التى تقبع فى إحدى عمارات هيئة التدريس بجامعة عين شمس ، حتى بدأ " ميكروفون ضخم " يزعق بأصوات من تلك التى يقولون أنها تغنى وما هو بغناء ، مصحوبة بدق عنيف مما يقولون أنه موسيقى وما هو بموسيقى ، وكأن الميكروفون قد وضع فى أذنى الإثنين ..وضعت قطعة من القطن ، ولم تفد ، أغلقت كافة النوافذ الزجاجية ، أيضا دون فائدة ، لقد كان الضجيج المنغم بأبشع ما يمكن تصوره من قبح ، حتى كاد إيمانى يهتز لولا لطف الله عندما ساءلت بينى وبين نفسى : كيف يقول المولى عز وجل أن أنكر الأصوات لصوت الحمير ، بينما نحن الآن نُسمع ، كرها ، بأصوات أشد قبحا واشد تنفيرا من صوت الحمير ؟

عندما مرت ساعة ، دون أمل فى أن تسكت هذه الأصوات ، أسرعت ، ولأول مرة فى حياتى أتصل بشرطة " النجدة " حتى تنجدنى ، وأخذوا البيانات الكاملة ، كنت " مغشوشا " فى قيمتى فى المجتمع ، وتصورت أننى إذ أقول للشرطة أننى أستاذ بالجامعة ، وأقوم بالبحث والدرس والكتابة ، وما يحدث يشلنى عن ذلك ، فضلا عما نسمعه كل ساعة من أننا نعيش مجتمع المعرفة ، أن القوم سوف يبادرون بإزالة أسباب الشكوى ، خاصة وأن الدولة انتفضت بسبب ما يسببه آذان يدعو الناس إلى الصلاة من إزعاج لغير المصلين وشمرت عن ساعديها ، ورصدت مئات الألوف وجندت فرقة بحثية للتفكير ، الذى لابد أن يصحبه عمل يتم عن طرق عشرات.

وانتظرت ساعة كاملة دون أن ينجدنى أحد ، فعاودت الاتصال ، وكررت

---

* جريدة آفاق عربية ، فى ٢١ ، ٢٨ /١٠/٢٠٠٤

الشكوى والبيانات ، وتكررت الاستجابة " حاضر " ! ومرت ساعة أخرى ، وثالثة ، ولم يصل أحد ، فعاد إلىّ الوعى بحجمى الطبيعى ٠٠ إلى قيمتى الحقيقية فى مجتمع المعرفة كأستاذ جامعى ، متذكرا على الفور رد فعل الريحانى فى فيلم غزل البنات وهو ينطق بصوت لا أستطيع تكراره عندما سئل عن عمله ، وهو " معلم "!! ولما أخذ منى اليأس مبلغه ، كان علىّ أن أعود إلى منزلى ، ولا داعى للبحث والقراءة والدرس ، فالرقص والزمر والدق على الطبول هو أشد لزوما لمجتمع المعرفة٠٠٠

وأنا خارج من المنطقة كان لابد لى أن أمر على عدد من سيارات الأمن المركزى المصفحة التى تحاصر الجامعات منذ سبتمبر عام ٢٠٠٠ حتى الآن ، مصحوبة بأقوى الرجال وأشد الأسلحة وقعا على الجماهير ٠٠٠ فمنذ أن بدأ الإسرائيليون حصارهم للفلسطينين بدأنا أمننا المركزى حصاره للجامعات ، لكن الشهادة لله أنهم أرحم من الإسرائيليين ، فلا يضربون ويدمرون إلا إذا قامت مظاهرات ، وقد أيقن الطلاب " ألا فائدة " فركنوا إلى الهدوء ، حتى أصبح بلدنا بالفعل كما يقولون " بلد الاستقرار" !!

وعلى الرغم من مرور هذه السنوات على تعوّد عيناى على رؤية هذا الجيش الذى يحاصرنا ، لكن هذه اللحظة برق فى ذهنى خاطر مزعج٠٠٠

همة ما بعدها همة إلى درجة " تجييش " الضباط والعسكر المسلحين بأقسى الأسلحة فى التعامل مع الجمهور حتى لا يفكر أحد فى إزعاج " النظام " ٠٠٠

وتجاهل ما بعده تجاهل ، إذا كان الأمر أمر إزعاج لعشرات العائلات من خيرة " مواطنى " مصر ممن أنفقت على تعليمهم وتربيتهم وتدريبهم الكثير حتى يساهموا فى مواجهة مشكلات الحاضر وبناء المستقبل!!

مقابلة محزنة بين " أمن المواطن " و " أمن النظام" ٠٠ فنحن عموم المواطنين " ولاد الجارية " ، ومن يقفون فى سدة النظام هم " ولاد الحرة!!

" هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج!!! "

وبدأت صور عديدة تتداعى إلى ذهنى ٠٠٠

أخرج من منزلى فى النزهة بمصر الجديدة ، فأحمد الله على ما أجده من عناية ٠٠٠شوارع واسعة ، ليس بها حفر ، شرطة المرور موجودة بكل مكان ٠٠٠الأرصفة تتجدد بين حين وآخر ، حتى وصلنا إلى البلاط الملون بالأحمر ٠٠٠إلى غير هذا وذاك من مظاهر عناية٠٠

ومن المؤكد أن وجود مثلى ليس هو الدافع وراء هذا الاهتمام بمناطق مصر الجديدة وما ماثلها ، وإنما " حظنا " أن تتساقط علينا بعض النعم التى ينعم بها " ولاد الحرة " ، والحمد لله على أية حال !

ويكون لى بعض الأحيان " مشوار " تجاه البر الغربى ، مما يحتم أن أعبر شارع جسر السويس إلى مناطق حلمية الزيتون والزيتون والمطرية ، فأجد أنه على الرغم من أن شارعا واحد هو الذى يفصل بين مصر الجديدة ، وهذه المناطق لكن يخيل إليك وكأنك انتقلت من دولة من دول الشمال إلى أخرى فى دول الجنوب : اختفاء تام لأى شرطة مرور ، مما يجعل كل سيارة تسير وفقا لمنطق الغابة ٠٠ الحُفر لا أستطيع أن أعدها ولو طوال مائة متر ٠٠ الشوارع غاية فى الضيق ، فضلا عن مظاهر شتى لاختفاء النظافة والنظام ٠٠

ولا أستطيع أن نحصى مزيدا من الأمثلة الدالة على حالة التمييز والتفرقة والانحياز ، فقياسا على ما أسلفنا يمكن للقارئ أن يتصور أمورا شتى ، فضلا عن أن القارئ نفسه من غير شك يعرف ، ربما أكثر منى ، مظاهر لهذه الهوة السحيقة التى تقف بين فريقين ٠٠بين شريحتين ٠٠بين " الناس اللى فوق " و " الناس اللى تحت " ، على رأى الراحل نعمان عاشور !

وكثيرا ما تقفز إلى ذاكرتى مقولة الصحابى العظيم أبى ذر الغفارى : عجبت لمن يبيت جوعانا وجاره شبعان ٠٠كيف لا يخرج عليه شاهرا سيفه ؟ !!

ليست هذه دعوة للثورة ، وإنما هى دعوة تحذير ، بضرورة قيام العدل ٠٠

وليس غريبا هذا الإلحاح الإلهى فى القرآن المجيد على أهمية " الوزن " و "

الميزان " ، فهو علامة العدل فى الحكم وفى المعاملات ، وضرورة أن يكون سنة من سنن الاجتماع البشرى :

(وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ٠٠) سورة الحديد ، آية ٢٥

(وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩)) سورة الرحمن .

(اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧)) سورة الشورى .

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧)) سورة الرحمن .

ترى ، ما الذى أوصل مجتمعنا إلى هذه الحالة المؤسفة من الاستقطاب الشديد بحيث تنشطر الأمة فى معظم الأحيان ، وفى كثير من المجالات ، إلى " فسطاطين " ، فسطاط ينعم ، والآخر يشقى ٠٠٠ فسطاط يملك ويتحكم ويطغى ، وفسطاط ليس له من الأمر شئ يركع وينبطح تحت سياط القهر والاستغلال ؟

قضية نطرحها على بساط المناقشة والتأمل والتفكير نأمل أن نتناول أسبابها الكامنة فى البنية المجتمعية ، ثم نختار مجالا من المجالات نتفحص مظاهرها بتفصيل بعض الشئ ، وليكن هذا المجال هو المجال الذى نملك بعض المعرفة فيه ، ألا وهو مجال التعليم ٠٠٠

الطريق الشيطانى إلى الاستقطاب :

صحيح أننا نرى فى الدنيا صورا عدة لطرفى نقيض ، مثل الليل والنهار ، السكر والملح ، الحلو والمر ، النور والظلمة الحقول الزراعية والصحراء٠٠٠

وصحيح أننا نرى من سنن الاجتماع البشرى وجود ذكور وإناث ، أغنياء وفقراء ، أقوياء وضعفاء ، الخير والشر ، النجاح والفشل ، حكام ومحكومين ٠٠٠٠

لكن تلك الثنائيات شديدة الاستقطاب ، لها حكمتها الإلهية ، فما هو فى " الطبيعة " ، كل له وظيفته التى تتناقض مع الأخرى شكلا ، لكنها تتكامل معها

وظيفة ودورا ...

وفى مجال الاجتماع البشرى ، بعضها له أيضا حكم التكامل والوظيفى ، مثل الذكور والإناث ، ، لكن بعضها الآخر هو ساحات اختبار ، للإدارة المجتمعية ، كما نرى بالنسبة للعلاقة بين الحكام والمحكومين ، على سبيل المثال ، وقدرتها على ضبط العلاقة بين الفقر والغنى ...

وبعضها ساحات اختبار للفعل الإنسانى والإرادة البشرية ، مثلما يكون فى مجالات مثل الخير والشر ، والنجاح والفشل ...

هنا ، عندما تُقصر الإدارة المجتمعية فى وظيفتها ، وعندما تتخاذل الإرادة البشرية عن ممارسة حريتها القائمة على الاختيار ، وعندما يتوقف الفعل الإنسانى عن القيام على " التعقل " والاستهداء بالإيمان ، نجد صورا من الاستقطاب ، يكون موقعها من الجسم الاجتماعى هو موقع " الفيروسات " المدمرة .. بل يمكن أن نقول أنها تكاد أن تكون مثل " الإيدز " دون مغالاة فى التشبيه ، ذلك أنها تفقد الجسم المجتمعى قدرته على المقاومة حيث تضعف " المناعة " لديه ، فيسقط سقطة من فقد الحياة !

ولنتـــأمل بعض الميادين فى حياتنا المجتمعية ، وكيف أنها أصبحت تقوم على استقطاب حاد ، يبذر فرقة وتمييزا ، ويقتل عدلا وتكافوءا ، ولا يقيم الوزن بالقسط ويخسر الميزان ، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس (إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١)) سورة آل عمران .

- فى الاقتصاد : لن نستطيع أن نعد تلك الحالات التى نهب فيها أصحابها مئات الملايين من الجنيهات ، من البنوك ، والتى هى فى الأصل ودائع كثرة من المواطنين من مستويات شتى ، سطوا عليها بزعم إقامة مشروعات ، ولأنها مشروعات مزيفة ، أو غير قائمة على دراسة جدية ، أو هناك " تسهيلات " غير قانونية ، مدفوعة الأجر فى أغلب الأحوال ، يتعثر المشروع ويفشل ، ويعجز

صاحبه عن السداد ، فيهرب إلى الخارج ، أو بالداخل ..

ولأن كثيرا من المشروعات ليست من صنف تلك المشروعات التى تبنى إنتاجا حقيقيا ، فتراها تصب فى مجالات الخدمات : قرى سياحية ، تجارة عملة ، مصانع ، لكن لسلع ترفية أو تفريهية وأشياء استهلاكية ، تجد أنها لا " تنتج " مزيدا من النقود ، وإنما يحدث نوع من إعادة التوزيع ، فتجد جيوبا قد امتلأت ، وجيوبا فى المقابل قد تم تفريغها ، وهو الأمر الذى عبر عنه مفكرون بقولهم أن الأغنياء يزدادون غنى والفقراء يزدادون فقرا ...

ويكمل المأساة ، هذا التزايد المستمر من رجال الأعمال فى المجلس التشريعى ، مما يعينهم على استصدار تشريعات تعمل لصالحهم ، والحصول على امتيازات تسهل لهم تضخيم ثرواتهم ، ولعل هذا يذكرنا بالحكمة من اشتراط ألا تقل نسبة العمال ولافلاحين عن النصف حتى يكون هناك ضمان ألا يتحكم رأس المال فى الحكم ، لكن شياطين الإنس والجن قد استطاعوا أن يلتفوا حول النص ، ويفرغوه من مضمونه ونصبح أمام وضع عكس ذلك تماما .

لقد كنا نعرف ونسمع ونقرأ - زمان - أن أن فلانا بدأ من نقطة الصفر ، وصار - بعرقه وجهده - يبنى نفسه شيئا فشيئا حتى أصبح من الأغنياء لكنك ترى اليوم عجبا ، إذ من الممكن أن يقوم فلان من الناس - عن طريق الرشوة - بشراء أراض - مثلا - واسعة ، بتراب الفلوس ، ثم يقترض باسمها ملايين من البنوك ، ويقيم مشروعا أو مشروعات تدر عليه ملايين ، ويصبح من الأثرياء لا بعرق أو جهد وإنما عن طريق مهارة شيطانية ، ومن هنا يجر هذا الثراء الفاحش ، الذى جاء " بالفهلوة " وراءه قائمة طويلة من القيم الرديئة والسلوكيات اللاأخلاقية ، فنعانى من هبوط شديد فى المستويات الأخلاقية ــ وتسود شعارات من مثل " اللى ممعاهوش ما يلزموش " ، ويكاد التشاؤم يصل ببعضنا أن يخشى مجئ يوم عندما تلقى التحية والسلام فيه على إنسان ، أن يسألك عما ستدفع له من نقود حتى يرد عليك السلام ، وكأننا على وشك الوصول إلى زلزلة الساعة

(يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢)) سورة الحج.

- فإذا جئت إلى مجال المجتمع من حيث فئاته وشرائحه وطبقاته ، سوف تجد أن المقدمات السابقة لابد أن تؤدى إلى نتيجة محتومة ، ومثل هذه النتيجة لم تعد خافية على أحد ، فقد أصبح الناس يعيشونها ، والتفت إليها باحثون وكتاب ومفكرون ، يدقون الأجراس تحذيرا من خطورتها ، لكن إيقاع العمل على تلافيها لا يكاد يرى ، وإنما العكس هو الصحيح ، تسير الأحداث نحو تعميقها وتجذيرها ، ألا وهى ما نشاهده من تآكل ملحوظ فى الطبقة الوسطى ، تلك الطبقة التى يكاد علماء التاريخ والاجتماع والاقتصاد يتفقون على ضرورتها فى " التوازن " الاجتماعى ، حيث تقوم بدور الأساس للاستقرار المجتمعى وضابط الإيقاع ، والمراقب العام لاتجاهات الطرف والغلو اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا .

إن ما أصبح مجتمعنا يعيشه من مظاهر استيراد تقوم على السفه ، مما تثبته قوائم السلع المستوردة التى توجد لدى جهات الاختصاص ، حيث كنا قد أشرنا إليها منذ فترة فى إحدى مقالاتنا ، ومن صور ومظاهر كسب غير مشروع ، ومن تزايد صور تزاوج بين أصحاب رأس المال ومتنفذين فى السلطة ، كل ذلك يدفع بعض الفئات فى الطبقة المتوسطة إلى التطلع إلى المشاركة فى مولد الكسب والثراء السريع " فيعمدون إلى اللعب بالبيضة والحجر " ، للتمكن من اللحاق " بالناس اللى فوق " ، لكن الكثرة تعجز عن ذلك فتسقط إلى " الناس اللى تحت " ، فيزداد الأغنياء غنى ويزداد الفقراء فقرا ، ويتم استقطاب مجتمعى ، فلا ترى إلا أغنياء وفقراء فى الغالب والأعم ، وتختفى الطبقة الوسطى تدريجيا ، وهو خطر اجتماعى عظيم ، لكن أولى الأمر ذاهلون ، لأنهم يديرون الأمر بمنطق تأمين الذات وليس تأمين الوطن ... بناء المستقبل الشخصى ، وليس بناء أمة!

لو كان أولو الأمر قد جاءوا بطريق شرعى يقوم على الاختيار الحر من قبل الجماهير نفسها ، لحرصوا على حاضر هذه الجماهير ومستقبل هذه الأمة ، لأنهم

سيوقنون أنهم " خدام " أمة ، وليسوا أسيادها المستغلون ، حراس شعب وليسوا قاهريه ، وسوف يتذكرون قول المولى عز وجل عندما ذكر فى محكم التنزيل: : (وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥)) سورة القصص .

ومع أن المسار القائم يشير إلى سد الآذان عن مثل هذا التوجيه الإلهى ، إلا أننا على يقين من تحقق سنة المولى عز وجل (وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ٠٠٠(١٣٧) سورة الأعراف .

من الذى يهين المرأة *؟

كانت ثقافتنا قد عرفت منذ عدة عقود هجوما حادا على عدد من التقاليد المتعلقة بالمرأة ، وكان ذلك عقب أن أصدر قاسم أمين كتابيه المشهورين (تحرير المرأة) و (المرأة الجديدة) ، وكان أبرز صور هذا الهجوم الترويج لفكرة أن تفرغ المرأة لأسرتها قد أدى إلى " اعتقالها " داخل المنزل ، وأن هذا الاعتقال حرمها من فرص أن تخبُر الحياة فتثرى شخصيتها ، حيث تتعامل مع كثير من الشخصيات ، وتمر بعديد من المواقف ، بينما داخل الأسرة ، تصبح علاقاتها محدودة بأفراد الأسرة ، فيضيق أفقها ، وتصاب شخصيتها بالجدب والفقر الثقافى ٠

ولم يكن هذا صحيحا تماما ، ذلك أن الكثرة الغالبة من نساء الشرائح الاجتماعية الفقيرة والبسيطة ، لم يكن معتقلات داخل منازلهن ، والذين نشأوا فى الريف مثلى يتذكرون جيدا ، منذ أوائل الأربعينيات كيف كانت نساء كثيرات يعملن فى الحقول الزراعية خارج المنزل ، ومن لم تتح لهن الظروف ذلك ، كن يعملن فى المنزل أعمالا إنتاجية مكملة للعمل فى الحقول ، كأن تدر لبن المواشى ، وتصنع الجبن ، وتربى الدواجن ، فضلا عما يتصل بصنع الحبز ، وكم كنت أشاهد فى سوق القرية يوم الثلاثاء من كل أسبوع كيف كان يزدحم بعشرات من النساء اللاتى كن يعرضن سلعة معينة كن يبعنها للمشترين ، نساء كانوا أو رجالا ، وكانت بعض المحلات ، وأشهرها البقالة ، أحيانا ما كنت أرى إناثا يقفن للبيع ، متعاملين بذلك بطبيعة الحال مع الزبائن أيا كان نوعهن ، بغير حرج٠٠٠إلى غير هذا وذاك من أعمال ٠

والذى يستقرئ صفحات التاريخ الإسلامى ، حتى فى زمن الرسول صلى الله

---

* جريدة آفاق عربية في ٢٠٠٤/٦/١٧

عليه وسلم ، سوف يجد نماذج وأمثلة لنساء شاركن فى بعض الأعمال ، ويأتى فى مقدمتها القيام ببعض الأعمال التى كانت تتطلبها الأعمال الحربية ، والمادة العلمية الخاصة بهذا الشأن كثيرة ، يستطيع من يريد أن يرجع إلى كتب تخصصت فى هذا الموضوع.

وهل نستطيع أن ننسى معاهد التعليم التى كانت خاصة بالإناث ؟ فإذا كانت المدرسة الابتدائية للبنات لم توجد إلا بإنشاء مدرسة السنية عام ١٨٧٤ ، إلا أن أشكالا مما كان يسمى " بالتعليم الأولى " ، أو الكتاتيب كانت قائمة وخاصة بالبنات ، وتوج ذلك بإنشاء أول مدرسة ثانوية للبنات عام ١٩٢٠ ، بل وتحدث أحمد لطفى السيد عن أنه فى بداية عهده بإدارة الجامعة - عندما أصبحت حكومية عام ١٩٢٥- سمح لأربع طالبات أن يلتحقن بالجامعة ، ولكن كان ذلك سرا حيث أن الرأى العام لم يكن مهيأ لذلك . ولم تكن معارضة الرأى العام التى خُشى منها لخروج البنات وتعلمهن وإنما ، اختلاطهن بزملائهن من الشباب الذكور هو الذى كان موضع معارضة .

ورُوج كذلك للقول بأن الرجال كانوا ينظرون إلى المرأة فقط باعتبارها موضع شهوة ، ومن ثم يحرصون على ألا تتكشف على أحد ، وكأنها من الممتلكات الخاصة التى لا ينبغى لأحد ، غير الزوج ، أن يتعامل معها ، وأن فى هذا امتهانا للمرأة !

وأصبح نموذج " الست أمينة " فى رواية نجيب محفوظ الشهيرة (بين القصرين) فى تعاملها مع " السيد أحمد عبد الجواد " مثلا ونموذجا يساق دائما إشارة إلى صور ومظاهر قهر كانت تعيشه المرأة ، بحيث أصبح " سى السيد " صفة عامة كما نصف شخصا بأنه " حاتمى " عندما يكون كريما للغاية ، تشبها " بحاتم الطائى " الذى عرف بالكرم الشديد .

ودون قصد للتحيز لنموذج " سى السيد " ، إلا أن كثيرين ينسون العديد من مظاهر " العز " و " التكريم " المصاحبة لهذا النموذج ، فمختلف احتياجات

المنزل كانت تأتى الزوجة وهى فى منزلها معززة مكرمة ، بغير " بهدلة " فى الأسواق والتعرض لكثير من المضايقات واحتمالات سيئة متعددة ٠

وأنظر اليوم إلى ألوف مؤلفة من الأمثلة مما يبعث على الأسى حقا٠٠٠

كم من أم تخرج فى الصباح الباكر حاملة طفلها الرضيع ، صاعدة به " الأوتوبيس " بما هو معروف فيه من ازدحام ، كى تتركه عند أمها إلى أن تعود من عملها ، أو تذهب به إلى " حضانة " وربما لم يتجاوز من العمر شهورا أو عاما ، حضانة لا تتوافر فيها الشروط الدنيا للقيام بوظيفتها ، ويترتب على ذلك ما لا يعد ولا يحصى من أضرار نفسية وتربوية ، عندما يتربى الطفل فى مثل هذه الأجواء ٠

ألا يعد إهانة للمرأة أن نشجعها على الخروج والعمل ، دون أن نوفر لها دور حضانة تتوافر فيها الشروط التربوية والنفسية والصحية التى تعينها على حسن القيام بوظيفتها ؟

ربما يرد أحد بأن القانون يعطى العاملة حق أجازة تتفرغ فيها لطفلها ، ولكن كثرة من العاملات هن بحاجة إلى المرتب ، ولا يقبلن على مثل هذه الأجازة ٠

وعشرات الألوف من العاملات يعملن فى أعمال رثة ، وأشهرها وأشيعها " فراشات " يقمن بالكنس والمسح والتنظيف بنفس الصور والأدوات البدائية ، ويتعرضن فى الغالب إلى إهانات وشخط - وربما سب - من هذا وذاك ، فهل مثل هذه الأعمال " تحرر " المرأة حقا وتطلق طاقاتها الكامنة وتجعلها تشعر بكينونيتها وذاتها ؟

وألوف من النساء يعملن فى أعمال كتابية ايضا بنفس الصورة البدائية ، ربما لتسجيل صادر ووارد ، أو تحرير خطابات ، وهى فى كثير من الأحيان تكون مرؤوسة لموظف رجل يمكن أن " يشخط " ويأمر وينهى ليكون " سى السيد المكتبى " بدلا من سى السيد فى البيت ، فهل مثل هذه الأعمال نكرم فيها المرأة

حقا ونعززها ؟

وانظر إلى أى جهاز تلفزيون ، فى أى وقت ، وفى أى مكان فى المنطقة العربية ، وقل لى بربك : ألا يعد عرض الإناث لأجسادهن ، نصف عراة ، مصاحبات بالرقص والتنطيط ، والنفخ فى المزامير ، والدق على الطبول ، والتلوى يمينا ويسارا ، إلى أمام وإلى خلف ، مع تنويعات من حركات الحواجب والشفاه والنظرات واليدين والقدمين ، من خلال هذا الهراء المعاصر المسمى " فيديو كليب " هو الذى يعرض الأنثى باعتبارها موضع شهوة باستخدام الكثير من وسائل الاستثارة الجسدية ، لا لاستثارة زوجها " حلالها " ، وإنما لاستثارة ألوف ، وربما ملايين من الرجال ، وكأنها تقول " اللى ما يشترى يتفرج" ؟

ألا تعكس كثرة استخدام " البنات " فى معظم الإعلانات التلفزيونية نظرة دونية إليهن ، باعتبارهن " سلعا " تجارية ٠٠عينات ، تزغلل عين الزبون فيقبل على السلعة المعلن عنها ؟

من الذى يهين المرأة إذن ؟!

ليست هذه دعوة إلى أن نعود إلى أوضاع سابقة ، فلا أحد يملك قوة معاندة التاريخ ، ولكنها استغاثة يبعثها إلى عموم الناس ، وإلى من لا يزال يملك بقية ضمير من المسئولين ، " رجل " يرى أن الله إذا كان قد خلق الإنسان باعتباره أروع وأعظم مخلوقات الله ، فإن المرأة هى أروع وأعظم ما فى الإنسان ٠٠مستغيث يرى فى كل امرأة : أمه التى حملته وربته ، وأخته التى حنت عليه ، وزوجته التى سكن إليها وسكنت إليه ، وابنته قرة عينيه وحفيدته فلذة كبده ، وزوجة ابنه الأغلى فى عينيه ، ونقول للتلفزيون" : - أيا كان - " أتهلكنا بما فعل السفهاء منا " ؟

اللعـــــب بالإسلام*!

مسكين والله هذا الجيل الذى أنتمى إليه !

فبعد ميلادى بعامين قامت الحرب العالمية الثانية لتستمر ست سنوات ونذوق - بالتبعية - الكثير من تبعاتها ، جوعا وعريا ، خوفا ورعبا ٠

ولا تمر أعوام ثلاث ، حتى تشتعل نيران الحرب على أرض فلسطين ، بعد إعلان دولة العدو الصهيونى واقتصاد قطعة من أغلى أراضى الأمة الإسلامية والعربية ، ونلقى فيها شر هزيمة ، وتكشف الأيام التالية عن خيانات فى المستويات العليا ٠

وننتظر ثمانى سنوات حتى تقوم دول ثلاث بالهجوم الوحشى علينا فى مصر عام ١٩٥٦ ، مدمرة القدر الأكبر من قواتنا المسلحة ويخدروننا بانتصار تكشف الأيام التالية أنه كان موهوما ، وأنه كان نتيجة صراع القوى الكبرى ٠

ولا تمر ثمانى سنوات أخرى حتى يتوجون سلسلة الانكسارات والهزائم بزلزال الخامس من يونيو ١٩٦٧ ويتم قتل ألوف مؤلفة ، وتدمير آخر لمعظم قواتنا المسلحة ، فضلا عن وقوع ما يقرب من ثلث مساحة مصر - لأول مرة فى التاريخ - فى أيدى الاحتلال الصهيونى ، والأهم من كل هذا ، هذا الانكسار النفسى والسياسى الذى لم تشف منه الأمة العربية حتى الآن ٠٠

وكان المتصور أن يكون الانتصار الوحيد الذى شهدته فى حياتى فى أكتوبر ١٩٧٣ هو الشافى من حالة الانكسار والهزيمة القومية ، لكن إدارتنا للصراع ضيعت علينا طعم الانتصار ، فإذا به يصبح مقدمة لسلسلة أخرى ، من نوع آخر من الانكسارات المتتالية ، ربما أشد مرارة من هزائم الحروب العسكرية ، لأنها هزائم نفسية وعقلية واجتماعية وثقافية !

---

* جريدة آفاق عربية في ٧ ، ١٤ ، ٢١ ، ٢٠٠٢/٣/٢٨ .

وتتعدد المواقف المؤلمة ، وتتنوع المشاهد المخزية ، على طول بلاد العروبة والإسلام ..

فها هو حاكم باكستان " برويز مشرف " يظهرنا على مدى ما يحمله بين جوانحه من قلب يمتلئ بالعطف والرقة والمشاعر الإنسانية ، فيهتز اهتزازا عنيفا لمقتل صحفى أمريكى ، فيرغى ويزبد ، ويتوعد خافة القوى" الإرهابية " بالويل والثبور وعظائم الأمور ، ولست فى حاجة أن أسوق الأدلة والبراهين للقارئ كى أقنعه بأن هذا الوصف " الإرهابيين " كلمة حق أريد بها باطل ، وأنها أصبحت ستارا لكل ما يمكن ارتكابه من جرائم ضد قوى تؤمن بالمرجعية الإسلامية نهجا للحياة .

نحن ندين بالضرورة مقتل هذا الصحفى الذى قد لا يكون له ذنب فيما يجرى على أرض أفغانستان وباكستان ، ونؤكد أنه عمل إجرامى مشين يسئ إلى الإسلام والمسلمين ..

لكننا فى الوقت نفسه نتساءل : أين رقة قلب حاكم باكستان ، وهناك مسلمون يُقتلون كل يوم منذ سنوات ..فى الشيشان ، وفى البوسنة والهرسك ، وفى كوسوفا ، وفى أفغانستان ، والمشهد مستمر على أرض الأقصى المأسور ؟ !!

كنا ننظر إلى باكستان على أساس أنها معقل كبير من معاقل الإسلام ، بعلمائها العظماء ، بهذه الروح الدينية التى تسرى بين أبناء باكستان ، بهذه المعاهد والمدارس التى تبث العلم الدينى فى العقول والقلوب ، بهذه الكثرة البشرية التى تعد رصيدا سكانيا للأمة يمكن أن يتحول بالتعليم وبالتدريب إلى طاقة تنمية تفجر إمكانات هائلة تفيد بها ملايين المسلمين فى باكستان وغير باكستان .. وأخيرا بهذه القوة النووية التى تسعى قوى البغى أن تظل الأمة الإسلامية محرومة من امتلاكها حتى تظل فى حالة ركوع دائم .

لكن ، ها هو العد التنازلى قد بدأ منذ لحظة استسلام حاكم باكستان لقوى البغى الأمريكية عندما بدأت فى تدمير أفغانستان ، كى تعيد الحياة فيها من جديد

وفقا لما تراه هى ، وتبدأ مشاهد حرب تدريجية على تيارات إسلامية وجهود دينية ، لتلحق باكستان بقطار تركيا أتاتورك ، وتصبح والعياذ بالله شوكة أخرى فى الجسم الإسلامى!

وتحمل لنا الأنباء منذ أيام ، أن حاكما آخر هو حاكم اليمن الحبيب كان فى زيارة لإحدى الدول العربية ، فأصر أن يصحب معه فى طائرة العودة إلى اليمن خصما سياسيا كان لاجئا فى هذا البلد العربى ، ليعلن المصالحة والمسامحة .

وتبدو المسألة سلوكا نبيلا " والصلح خير " ، لكن قراءة ما وراء السطور تنبئ بأنها حركة تعتبر حلقة تنتظم فى سلسلة الحروب التى بدأت تشن على كل ما ينتسب إلى النهج الإسلامى . فالخصم السياسى (سابقا) كان من زعماء الحزب الاشتراكى الذى كان يحكم جنوب اليمن ، ثم شارك فى حكم دولة الوحدة ، ثم شن هذا الحزب حربا أراد بها الانفصال ، لكنه أخفق ، ولم تكن هناك علاقة بينهم وبين الاشتراكية حيث كانوا يحكمون بالحديد والنار ويُفقرون البلاد إلى أشد مستويات الفقر والفاقة .

كانت الزعامة اليمنية ، فى حال المواجهة مع من كانوا يسمون بالاشتراكيين ، بحاجة إلى حليف قوى ، فوجدته فى القوى الإسلامية المتمثلة بدرجة أقوى فى حزب الإصلاح ، ففتحت له الأبواب للمشاركة فى السلطة وفى مجلس النواب ، وكنت واحدا من الناس أنظر إلى هذه التجربة بإعجاب شديد ، ففى الوقت الذى كانت الأصوات تتكاثر فيه فى مصر موهمة الجميع بأن الذين يرفعون راية المرجعية الإسلامية لابد أن يكونوا إرهابيين بالضرورة ، إذا بنا لا نسمع شيئا من ذلك فى اليمن ، ولم نقرأ أو نسمع عن سوء أتى من جانب حزب الإصلاح ...

فلما تم الانتصار ، بدأت عمليات التخلص من مشاركة حزب الإصلاح تدريجيا وبهدوء ، وكانت الضربة الحقيقية ، لا لهذا الحزب وحده وإنما للتوجه الإسلامى فى كليته باليمن هى تلك التى تم فيها إلغاء نظام التعليم الدينى الذى كان

يتمثل فى المعاهد العلمية ، واستبقت اليمن بذلك المطالب الأمريكية ، حتى قبل أحداث سبتمبر .

ومثلما ظهرت الحاجة من قبل إلى التحالف مع الإسلاميين لمواجهة من كانوا يسمون بالاشتراكيين ، ظهرت الحاجة الآن إلى التحالف مع الاشتراكيين حتى يمكن استئصال شقفة الاسلاميين !!

وهى التجربة والخبرة نفسها التى خاضتها مصر منذ أوائل الستينيات على وجه التقريب ، ولم لا ؟ أليست مصر هى الدولة الرائدة فى العالم العربى ؟

كانت مواجهة علنية بين مصر والمملكة العربية السعودية من جراء تواجد عشرات الألوف من العسكر المصريين بعتادهم على أرض جنوب الجزيرة ، فى اليمن ، وكان من أسلحة الحرب السعودية على النظام الحاكم فى مصر أن يروج لمبادئ الاشتراكية تلك المبادئ المعادية للدين (هكذا تصوروا) ، بينما المملكة تستند إلى الإسلام ، ومن هنا بدأنا نجد خطوات مصرية على طريق الإسلام ، فيظهر كتاب شهير عن (اشتراكية الإسلام) للدكتور مصطفى السباعى ، ويظهر تنظيم يحمل الهوية الإسلامية تقع مسئوليته فى يد السادات ، ويغرق السوق بكتب يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، وتظهر إذاعة خاصة للقرآن الكريم .

ويبدو أن ذلك النهج لم يؤت أكله ، فقد استمر النزيف المصرى على جبال اليمن ، وكان من الضرورى تغيير الأسلوب ، فتعود المياه إلى مجاريها مع الاتحاد السوفيتى بعد فترة خصام بدأت منذ عام ١٩٥٩ ، ويجئ خورتشوف لزيارة مصر فى مناسبة ترتبط بعون بلده لنا ، ألا وهى البدء فى تشغيل السد العالى ، ويتم الإفراج عن العديد من الماركسيين الذين اعتقلوا ، ويعلن - من موسكو - اكتشاف مؤامرة على نظام الحكم فى مصر بزعامة سيد قطب ، ويبدأ التسيد اليسارى على أجهزة الرأى والإعلام ، حتى تتم المحاصرة ومحاولات الإضعاف !

وعندما تولى السادات مقاليد الحكم ، كان من الواضح أنه عازم على أن يُخرج مصر من الدائرة الاشتراكية والارتباط بالاتحاد السوفيتى ، ويدخل الدائرة الرأسمالية ويرتبط بالولايات المتحدة الأمريكية ، لكن كان أنصار التوجه الأول منتشرون ، ومسيطرون على أجهزة الإعلام ، صحيح أنه قد أصبح يملك القوة السياسية والعسكرية والأمنية ، لكنه شعر بالحاجة إلى قوة أخرى تكون أشد فعالية فى الصراع الذى بدأ فى خوضه ..

هنا ، تذكر الإسلام ، مع أنه كان أحد ثلاثة على منصة محاكمة الإخوان المسلمين فى ضربة ١٩٥٤ ، واصطنع شعارا لدولته بأنها دولة العلم والإيمان ، وعمل على تغيير أساسى فى الدستور بأن تكون الشريعة الإسلامية هى المصدر الأساسى للتشريع فى مصر .والأهم والأخطر من ذلك ، بدأ يفرج عن المعتقلين من الإخوان المسلمين ، ويشجع على تكوين الجماعات الإسلامية فى الجامعات المصرية .

هل كان الرجل مخلصا فى هذا التوجه ؟ الله أعلم بالسرائر ، لكن حدث أن شهد عام ١٩٧٩ ما جعل السادات يغير حساباته كلية ، وينظر إلى التوجهات الإسلامية نظرة خوف شديد . لقد قامت ثورة إسلامية فى إيران ، حيث كان " سميه " ، شاه إيران هو الحاكم ، فما الذى يمنع أن يحذو حذو الثورة الإيرانية فى مصر ، خاصة وقد صاحب قيام هذه الثورة تأييد عارم ، وفرحة واضحة فى الأوساط الدينية فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى ، ومنه مصر ، وخاصة أيضا أن هذه الثورة قد تبنت فى فترتها الأولى هذا المبدأ المفزع ، ألا وهو " تصدير الثورة " !

وبدأ الرجل ينكص على عقبيه ، خاصة وأن البعض فى الداخل ممن انتسبوا إلى جماعات إسلامية ، قد سلكوا هذا الطريق المشين حقا ، ألا وهو طريق العنف ، والغلو الفكرى ، وامتلأت الساحة بفتاوى ما أنزل الله بها من سلطان جعلت مساحة الحرام فى الإسلام ، أوسع من ساحة الحلال ، فحدث ما حدث من

تداعيات يعرفها القارئ بالضرورة ، والتى تجلت ذروتها فى مقتل السادات ، وهو فعل منكر من غير شك ، دون أن أقيم حكمى هذا على فتوى دينية ، فلست من أهل الفتوى ، وإنما على أقل تقدير، أعبر فى هذا عن رأيى الشخصى .

ولم يكن العام ١٩٧٩ ضربة للولايات المتحدة على يد انهيار قلعة من قلاعها فى المنطقة على أرض إيران ، فقد شهدنا كذلك دخول القوات السوفيتية أرض أفغنستان ، فكان أن رأت الولايات المتحدة أهمية أن تلبس العمامة لتظهر تعاونها مع الإسلاميين فى محاربة القوات الشيوعية التى أرادت أن تلتهم أرضا إسلاميا ، ولم يكفها ما سبق لها أن التهمته من جمهوريات آسيا الوسطى .

وتحرض أمريكا حلفاء لها من دول إسلامية لتفتح أراضيها وخزائنها لمساتندة المجاهدين الأفغان فى حربهم المقدسة ، وتم ما خُطط له ، فإذا بالاتحاد السوفيتى يذوق من الكأس نفسها التى سبق لأمريكان أن ذاقت منها على أرض فيتنام ، مع فارق كبير ، أن أمريكا استفادت من التجربة ، فازدادت قوة ، لكن الاتحاد السوفيتى شهد على الأرض الأفغانية أول صفحة فى كتاب انهياره وانهيار المنظومة الاشتراكية كلها ويتم النصر بذلك للنظام الرأسمالى .

لم تعد هناك إذن فائدة ترجوها أمريكا من الإسلام والمسلمين ، وإنما العكس هو الذى حدث ، بدأت ترى ضربات توجه لها من قوى إسلامية لأن أمريكا وضح أنها بالفعل هى مكمن خطر كبير على الأمة الإسلامية ، مثلها فى ذلك مثلما كان الاتحاد السوفيتى ، وأمريكا نفسها ، وفقا لتنظيرات مفكريها ، أصبحت تنظر إلى الإسلام على أنه العدو الجديد الذى حل محل الشيوعية ، فبدأت تتقلب على الإسلام وعلى المسلمين وتقود بنفسها حربا شرسة ضدهما متسترة بعباءة محاربة الإرهاب .

وفى مستهل التسعينيات ، بدأ العالم يشهد انهيار المنظومة الاشتراكية ، وفى الوقت نفسه ، تزايدت أحداث العنف المسلح فى مصر مع الأسف الشديد ...

هنا تلاقت رغبتان كانتا متضادتان ..

فهناك فى مصر قوى صُدمت من غير شك من سقوط المنظومة الاشتراكية ، وفى الوقت نفسه ، ففى مصر الداخل ، ظلت العجلة تدور فى التوجه الرأسمالى والارتباط بالغرب عموما والولايات المتحدة خصوصا ، فهل تظل هذه القوى عارية الظهر والبطن ، من داخل ومن خارج ؟

والقوى الرسمية ، على الرغم من امتلاكها سلطة القانون والأمن والمال ، مما يتيح لها الفرصة لشن الحرب على مرتكبى العنف المسلح ، إلا أنها شعرت بالحاجة إلى المساندة الفكرية ، ومن غير هؤلاء الذين يرفضون التوجه الإسلامى؟

وهكذا اجتمعت المصلحتان ، وإذا بأفراد كانوا ينادون بالديموقراطية والتحرر الفكرى ، وينظرون إلى الولايات المتحدة باعتبارها قائدة الشر فى المسيرة التاريخية البشرية ، يبدأون السير على طريق يباركون فيه ذبح من يخالفوهم الرأى ، ونهجا يدعم من القوى المتحالفة مع زعيمة العالم الرأسمالى ، بل ومد اليد إلى أطراف من دولة العدو الصهيونى ، بزعم الدعوة إلى تعزيز السلام وأنصاره ٠

وتشهد السجون ضيوفا من أغلى القوى البشرية فى مصر من مهنيين وأساتذة جامعات ، فلا يجدون من قوى التقدم والتحرير بالأمس صوتا واحدا يتحدث عما وقع من ظلم على من رموا فى السجون والمعتقلات ، دون أن تثبت عليهم جريمة استخدام عنف ، وإنما تناقض فى الرأى والفكر ، وتشهد أيام الأعياد إفراجا عن مساجين من القتلة والسفاحين واللصوص الذين قتلوا وشردوا وحرقوا وسرقوا ، لكن سجناء الفكر يظلون يمضون الأعياد فى محبسهم ، ولا يرتفع صوت واحد من أنصار التحرير والديموقراطية طلبا لحرية هؤلاء فى التفكير !

طبعا المبرر لهذا الموقف ، هو أن المسجونين والمعتقلين ، " يُنظرون " للإرهاب والعنف المسلح ، ويشيرون إلى نماذج تفعل هذا ، وينسون نماذج أخرى ، فى جنوب لبنان ، وعلى أرض فلسطين ، نماذج إسلامية مشرفة هى

الوحيدة فى العالمين العربى والإسلامى التى تدافع عن شرف الأمة المستباح ، بقوة السلاح ، وكذلك بهذه الوسيلة الفذة ، أن يتحول المجاهد إلى قنبلة تنفجر فى وجه الأعداء ويذهبون هم موتى شهداء ، فمن فعل مثل هذا فى تاريخنا ؟!

وفى جنوب الوادى ، رأينا مشهدا آخر يسير فى الاتجاه نفسه ..

فعلى الرغم من تحفظات لنا على نهج حسن الترابى وبعض مواقفه التى يصعب الاقتناع بها حقا ، إلا أننا لا نستطيع أن نقتلع شكا فى نفوسنا من أن فك الارتباط بين جبهته والنظام الحاكم ، جاء هكذا ، وفقا لمقتضى الحال فى السودان ، ولدوافع المصلحة الوطنية ، وإنما هو حلقة أخرى ، فى سلسلة الحرب على التوجهات ذات المرجعية الدينية الإسلامية ، مما يسير على الطريق نفسه الذى ترغبه وتعمل له ، قوى الصهيونية والبغى الأمريكى .

ونحن ممن لا يشعرون بالارتياح أن يمد الترابى يده لزعيم التمرد " جارانج "، لكن ، فيما يبدو ، أن الرجل أراد أن يلعب لعبته السياسية بالمنطق نفسه الذى يروجون له ، إذ ما دامت القوى الأخرى قد أغرت الحكومة السودانية بفك الارتباط بجبهة الترابى ، أملا فى المساهمة فى حل مشكلة الجنوب ، فها هو الترابى نفسه ، يفوت عليهم الفرصة ، ويعلن اتفاقه غير الطيب مع جارنج ، لتتدعم بذلك نظرية ميكيافللى الشهيرة " الغاية تبرر الواسطة " !

مناورات سياسية تمسك بتلابيب مناورات أخرى ، والنتيجة ؟ مزيد من الضعف والتشرذم فى الساحة العربية والإسلامية ، ومزيد من القوة للمعادين لها

أما الزعيم المعتقل ، ياسر عرفات ، فلا نريد أن نكون من الشامتين ، ونردد : ها أنت ذا تذوق نتيجة فعلتك الشنعاء فى أسلو ، حيث رميت على الأرض كافة التحذيرات التى ارتفعت من كل مكان فى الرض العربية والإسلامية ، وصدقت أن قوى العدو الصهيونى تريد السلام فعلا ، الذى أسميته ب " سلام الشجعان "، كلمة ذات رنين لفظى فارغ ، وكل ما يحدث لك الآن ينطق بذلك !

لا نريد شماتة ، لأننا نعتبر اعتقال الرجل إهانة بالغة لكل عربى ولكل مسلم

، وإن لم يعتبرها القادة العرب إهانة لهم ، لكن المشكلة فى الرجل أنه لا يريد أن يتعلم ، فهو لا يفتأ يوما بعد يوم يقدم تنازلا تلو تنازل عساهم يفكوا أسره ، فإذا بهم يزيدون فى التقتيل والهدم والتدمير ، ويزيدون فى إهانته بما لم يحدث لأحد من قبل!

هو الأسير المعتقل الذى لا يملك أمر نفسه ، ولا يملك طائرة ولا دبابة ولا سيارة مصفحة ، ولا صواريخ ، صدق النداءات المتتالية له بأن يوقف العنف ضد من يملكون الطائرات والبوارج والسيارات المصفحة والدبابات والقنابل الذرية والصواريخ ، فيسرع مطالبا أبطال فلسطين بأن يوقفوا المقاومة ، ولا يفكوا أسره ، ويوالون ضربه ، ويقوم باعتقال مجاهدين بالعشرات ، فلا يفكوا أسره ويزيدون فى ضربه ، ثم يقدم لهم أبطالا انتقموا لزعمائهم المستشهدين ، فقتلوا وزير السياحة الإسرائيلى السابق ، ويظلون على نهجهم معه ، وتصل المهانة إلى مدى أبعد فيعلن وزير الخارجية الأمريكى أن عرفات يعترف بمسئوليته عن السفينة المضبوطة ، ويحرج بذلك القيادة السياسية فى مصر التى سبق أن أعلنت أن موضوع السفينة " مفبرك " ، ولا ينال عرفات شيئا ، بل يرد عليه شارون بأنه ممنوع من الخروج من رام الله إلى مؤتمر القمة العربى ، وإذا أراد خروجا من البلدة المعتقل فيها لابد أن يقدم طلبا خطيا بذلك لينظروا فيه ، هل يمكن الموافقة أم لا ؟!

هل شهدنا امتهانا مثل هذا من قبل ؟

لقد كتب على من يمارس الكتابة ، بدلا من أن يغمس قلمه فى الحبر ، أن يغمسه فى الدموع ، وأن تتحول كتابته إلى صراخ وعويل دون أن يجد أمامه بصيصا من نور ٠

لا أدرى لم قفزت إلى ذاكرتى الآن عبارة نابليون بونابرت الشهيرة : اللهم احمنى من أصدقائى أما أعدائى فأنا كفيل بهم ، لتردد على شفتاى بصيغة أخرى : اللهم احمنا من الممسكين بزمام أمورنا ، أما أعداءنا فنحن كفيلون بهم !

أول خطوة ..

لاغتيال حرية الصحافة* !

على الرغم من تلك الصورة القاتمة التى يظهر بها عادة اللورد كرومر أول عميد للاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢ ، إلا أن مما يُذكر له حقا أن البعض ، سواء من أبناء قوة الاحتلال نفسه أو المتعاونين معه ، جاءه يوما يبدى دهشته من أنه يسكت على تلك المقالات النارية التى كانت صحيفة اللواء تحفل بها سواء من مصطفى كامل أو من غيره من الكتاب ، فضلاً عن خطب الزعيم الشاب نفسه التى ملأ بها الدنيا تنديدا وفضحا للاستعمار ، فكانت إجابة كرومر أن العربى عموما يرى أن غاية الكفاح أن يقف ليخطب خطبة عصماء أو يكتب مقالا حادا ، فإذا فرغ من ذلك شعر بالارتياح متصورا أنه قد أدى واجبه ، فتقل فرص حدوث حركات عملية على سطح الأرض ، أما إذا منعته ، فلربما أدت طاقة الغضب المكبوت إلى " تحريك " بعضهم ، فيكون هنا خطر على الاحتلال!

كانت وجهة نظر تقوم على الوقوف بالحرية عند حد أن تكون " حرية تنفيس " ، وإلا أدى الكبت إلى " حرية تحريك " !!

لكن من خلفه " اللورد غورست " سار فى اتجاه مخالف ، فكان أن أعاد قانونا للمطبوعات فى ٢٦ مارس عام ١٩٠٩، كان قد صدر فى ٢٦ نوفمبر عام ١٨٨١ يفرض العديد من القيود ويضع الكثير من العقبات أمام حرية الصحافة مما دفع عددا من الوطنيين إلى شن حملة هجوم ، لم تؤت أكلها مع الأسف الشديد ، وتحققت نبوءة كرومر ، فإذا بأول حادث اغتيال لرئيس

---

* جريدة الوفد ، فى ٢٠٠٦/٩/٢٤

الوزراء بطرس غالى بعد ذلك بما يقرب من عـام ، وبـدء تـشكيل بعـض الجمعيات السرية التى اتخذت من العنف المسلح نهجا لها لمقاومة الاحتلال ، فضلا عن أعوانه من أبناء البلاد أو المتمصرين .

وبطبيعة الحال فقد كانت صحيفة اللواء الناطقة باسم الحـزب الـوطنى – الأصلى – أولى المهاجمين للقانون ، وشاركتها صحف أخرى فى تلك الحملة .

ومما يلفت النظر أن جريدة الأهرام ، والتى كانت جريـدة " مـستقلة " ، وتحرص على ألا تقف موقفا حادا ضد الحكومة ، خرجت عن حيادها ونشرت مقالا لأنطون الجميل ، والذى رأس تحريرها بعد وفاة " داود بركات " ، وهـو صحفى لبنانى جاء إلى مصر عام ١٩٠٧ مهاجرا ، وكان نـشر المقـال فـى ١٩٠٩/٣/٢٧ ، حيث ذكر فيه " أول أمس كان مصرع الحرية قضت مطعونة بخناجر محددة أغمد فى صدرها ، مأسوفا على عهدها من كل إنـسان عـرف حقوق الإنسان ، يقف حول نعشها المجلل بالسواد كل مخبر ومحرر وصحافى وروائى وكاتب ، وكلهم مكسرو الأقلام شاقو الطروس " ! (الطروس ، هـو الصحيفة) .

وكتب " خليل مطران " فى " المجلة المصرية " التى كان يصدرها فى ١٤ فبراير ١٩٠٩ فى الاتجاه نفسه ، ومما قاله شعرا :

شردوا أخيارها بحرا وبرا ... واقتلوا أحـرارها حرا فحـرا
إنما الصالح يبقى صالحـا ... آخر الدهر ويبقى الشـر شـرا
كسروا الأقلام هل تكسيرها ... يمنع الأيدى أن تنقش صخـرا ؟
قطعوا الأيدى هل تقطيعـها ... يمنع الأعين أن تنظر شـزرا ؟
اطفئوا الأعين هل إطفاؤهـا ... يمنع الأنفاس أن تصعد زفـرا ؟
اخمدوا الأنفاس هذا جهدكم ... وبه منجاتنا منكم ، فشكـرا !!

رمضان التلفزيونى ..
غير الكريم* !

عندما نردد من حين لآخر طوال شهر رمضان عبارة " رمضان كريم " ، فإنما نعنى بذلك أشياء ومعانى ودلالات كثيرة تصب جميعها فيما تميز به هذا الشهر من فضائل ، يتوجها أنه هو الذى أنزل فيه القرآن الكريم ، والكرم المشار إليه هنا ليس مرادفا بالضبط معناه المتداول بيننا عندما نصف أحدا بأنه " كريم " ، فغالبا ما نقصد هنا أنه يتميز بقدرة ملحوظة على العطاء ، لكنه قد لا يكون متدينا ، أما بالنسبة لرمضان فهو بالفعل " عطاء " فى الخيرات ، لكن يرتبط بمظاهر تدين من حيث الصيام والإكثار من الصلاة وقراءة القرآن والإفاضة بالعطاء للآخرين ، ويصبح مطلوبا من كل مسلم أن يتمثل فى قوله وفى فعله مظاهر هذا الكرم الذى يمثله شهر رمضان .

لكن تلفزيوننا له أسلوبه الذى يتعامل به مع هذه المناسبة الربانية الفريدة حقا ، ولو قسنا هذا الأسلوب بأى مقياس من المقاييس فلا يمكن أبدا أن يتسق ما هو مفروض من مثل هذا الجهاز ، خاصة وأنه جهاز رسمى ، لدولة ينص دستورها على أن دينها هو الإسلام ، بل ويؤكد فى نص صريح اللفظ والدلالة على أن هذا الدين هو المصدر " وليس مصدرا " للتشريع ، مما يوجب أن يكون هو المصدر أيضا لكثير من المادة الإعلامية التى تقدم على شاشته . ولا نقصد بهذا أن تدور المادة الإعلامية كلها حول كل ما هو " دينى " بالمعنى المتداول ، ولكن حول كل ما هو " دينى " بالمعنى الإسلامى الصحيح ، ذلك أن المعنى الإسلامى يرى أن كل ما يدخل فى التكوين الإيجابى للشخصية بحيث تكون

---

* صوت الأزهر فى ٢٠٠٠/١٢/١٥

شخصية تنزع إلى البناء لا الهدم ، تألف الآخرين ويألفونها ، تتعقل في تفكيرها ، تتسم بالسلوك السوى ، تؤدى ما عليها من فروض وعبادات ، كل هذا يعتبر في النظر الإسلامى " تدينا " .

لكن ابدأ بفتح التلفزيون عندنا وانظر ماذا ترى ؟

المحور الأساسى للكثير ممن البرامج هو الفنانين ، وبصفة خاصة فنانى المسرح والسينما والتلفزيون ، وهؤلاء الفنانين لا نستطيع أن ننكر أنهم محبوبون من الجمهرة الكبرى من الناس ، والشخصيات التى تحظى بهذه الجماهيرية الواسعة ، يميل الناس إلى تتبع أخبارها ، لكننا فى نفس الوقت أمام مسئولية أخلاقية ، ومسئولية وطنية ، ومسئولية دينية ، إذ لا ينبغى أبدا أن نجرى وراء الرغبات والغرائز ونقول " بناء على طلب الجمهور " ، فالجمهور مثلا مغرم بتتبع الأخبار الشخصية للنجوم ، لكن هذه المسئوليات التى أشرنا إليها تلزمنا أن نتحفظ بعض الشئ على هذا فلا تكون هذه الصورة الشخصية البحتة هى العنصر الغالب .

ولو حاول أحد أن يقوم بعملية " تحليل مضمون " لما يقدم من محتوى فى البرامج الرمضانية فسوف يجد الغالب عليها هو " دردشة " ، وليس " مناقشة " حول ما يقال عن الزواج والطلاق ، والعلاقات الشخصية ، والفرق شاسع بين الدردشة والمناقشة ، ففى الدردشة ليست هناك ضوابط متفق عليها لسير الحديث ، وليس مطلوبا الانتهاء إلى قرار أو فكرة أو خطة ، بينما كل هذا منشود من المناقشة ، وإن كان يمكن أن تنتهى بدون الوصول إلى هذه النتيجة لأسباب متعددة ، ليس هذا مكان بيانها .

وإذا قلنا أن نجوم السينما والتلفزيون ليسوا هم نجوم مصر ، فهناك الأدباء ، والعلماء ، وهناك السياسيون ، والمهنيون ، بل وهناك المواطنون العاديون ، قلما يحفل بهم أحد ، إلا بدرجة منخفضة للغاية . بل إننا لو سلمنا جدلا بأن يكون الفنانون هم محور معظم البرامج ، فإن ما يتم معهم من أحاديث

لا تدور أبدا حول تحليل أعمالهم الفنية ، فذلك – فيما يبدو – حديث ثقيل الدم لا يتناسب مع الشهر الفضيل ، وما يتناسب معه أن تتم دردشة مع " لوسى " الراقصة فى برنامج ، و " فيفى عبده " فى برنامج آخر ، فى مسائل هى أبعد ما تكون عن الفن نفسه ! إنها أحاديث مسطحة ، تمتلئ بالتفاهة والسذاجة ، ومن شأنها أن تفرغ العقول من أية نزعة للتفكير الجاد أو حتى شبه الجاد ، وخطورتها أكثر على الصغار بصفة خاصة ، فهؤلاء قد يتعاملون مع هذه البرامج وكأنها تقدم لهم " النماذج " وأصحاب " القدوة " فى المجتمع ، وتقدم لهم أمثلة لأسلوب التفكير .

وعلى سبيل المثال كان هناك برنامج كان يسمى " سر التفوق " كل ضيوفه من الممثلين والممثلات ، وبطبيعة الحال فالممثلات هن الأكثر ، وقلما يكون هناك رجال ، يسيح بهم المذيع لا فى مناطق مختلفة من مصر فقط، ولكن كذلك فى مناطق مختلفة من أنحاء العالم مع ما هو معروف من التكلفة المرتفعة للتصوير خارج مصر، ولم نكن ندرى حقا ما العلاقة بين الممثلات والراقصات ، ضيوف البرنامج ، وبين عبارة " سر التفوق " ، فأى تفوق هذا الذى يبحث عنه صاحبنا ؟ إنه مثل غيره لا يناقش مسائل " فنية " وإنما هى أيضا "دردشات" فى مسائل شخصية ، وحار كثير من الناس فى " سر " هذا المذيع الذى لم أقرأ من يمدحه ، ومن كثرة الهجوم عليه رحمنا الله واختفى برنامجه عدة " رمضانات " ، ثم إذا به هذا العام يطل علينا من جديد ، وكان يتباهى بأنه ، ببرنامجه هذا يدر دخلا كبيرا على التلفزيون .. إنه نفس منطق التاجر اليهودى الذى لا يرى فى الدنيا مقياسا إلا النقود ، أما ما نخسره من وقت ، ومن قيم ، وما يبثه من " تسطيح عقلى " ومن تسييد مفاهيم وأفكار لا تثمر ولا تغنى من جوع ، فهذا لا يدخل فى الحسبان !

والبرامج التلفزيونية فى كفة ، وهذا الكم الرهيب من الإعلانات فى كفة تكاد أن تكون هى الأكبر ، فبدلا من أن نقول أن هناك برامج تتخللها إعلانات

يمكن لك أن تقول أن هناك إعلانات تتخللها بعض البرامج • ونحن ندرك الضرورات الخاصة بالإعلانات من حيث هى مصدر تمويل ، لكننا فى الوقت نفسه ينبغى أن نفكر فى طريقة تهذب هذه الإعلانات من السفه وترقيص الحواجب والأرداف ، والعبارات التى قد تبعد عن حدود الأدب ، فضلا عن إفساد الذوق والمظاهر الجمالية الحقيقية ، والمبالغة التى تفوق كل حد ، والتكرار الممل إلى حد السأم ، فمعظمها إعلانات عن مأكولات أو منظفات صناعية أو أجهزة منزلية كهربائية ، فهل هذا هو كل ما تنتجه مصر حقا ؟

فإذا ما انتقلنا إلى الأعمال الدرامية ، وهى " عماد " البرامج التلفزيونية فسوف تجد عجبا ، فما زال التلفزيون مصرا على أن الدراما الدينية هى فقط الدراما التاريخية ، وكأن " الدين " مجرد " تاريخ " ، ذهب وانقضى ، وكان له عصره الذى يمكن أن نتذكره مرة كل عام ، فهل لنا من مسئول يفتح قاموسا بسيطا ليكشف عن معنى أن نصف عملا دراميا بأنه " دينى " ؟

ومع ذلك ، فكما يقولون فى الأمثال الشعبية : " رضينا بالهم ومارضيش الهم بينا " ، فإذا بهذه الأعمال تتم فى جنح الظلام ، والناس نيام ! أى والله ، فهى لا تقدم إلا بعد الواحدة بعد منتصف الليل ، والمفروض أننا جميعا ، أو معظمنا " عاملون " ، سواء فى قطاع عام أو خاص ، لابد أن نخلد إلى النوم لنستطيع أن نستيقظ ونمارس أعمالنا ، والنتيجة أن كثيرين منا لا تتاح لهم الفرصة أبدا لمشاهدة هذه الأعمال ، ذلك لأن ما يسمى بالدراما الدينية هى " بنت الجارية " ، توضع على خريطة البرامج فى مثل هذا التوقيت الميت ، أما هذه البرامج التى يستضيفون فيها الممثلات والراقصات ، فهى " بنت الحرة " لابد أن تفرد لها تلك الأوقات الهامة التى يحظى فيها التلفزيون بأكبر نسبة مشاهدة ممكنة ، أم أن هذا فى الحقيقة أمر مقصود ؟ إن قلنا هذا فسوف يهب البعض ويتهموننا بأننا ممن يفكرون وفقا لنظرية " المؤامرة " ونتخيل أمورا لا

تحدث ، ونحن ، والله ، نريد أن ألا تثبت صحة ظنوننا ، ولكن ، كيف ، والحال على هذا النحو ؟

وحتى لا نسئ الظن ، فإن التفسير ربما يكمن فى أن مثل هذه الأعمال لا تجذب هذا الكم الكبير من الإعلانات التجارية ؟!!

لقد كتبت من قبل حول مثل هذه الأفكار فى العام الماضى ، ولا من أحد يسمع ، وأكتب هذا العام وأنا أعلم ، بكل الحزن وبكل الأسى ، أنها كلمات لن يكون لها أثر على واقع التلفزيون ، لكنها أمانة الكلمة هى التى فرضت علينا أن نقول رأينا ، ومن يدرى ، لعل وعسى أن يستيقظ ضمير هنا أو هناك فى مبنى ماسبيرو فينتبهوا إلى أن ما يقومون به يستحيل أن يصب فى مصلحة مصر وأبناء مصر ، حاضرا ومستقبلا •

سُب الإسلام والمسلمين ...
تنل الجائزة الكبرى* !

" منذ بداية الخليقة ، وحتى قيام الساعة لن تجد على ظهر المعمورة أكثر امبريالية من العرب والمسلمين لأنهم وبشكل خاص جاءوا ليدمروا الحضارات ويجبروا المخالفين لدينهم على ترك عقيدتهم ، وهذا ليس تعصبا منهم ، ولكنه أمر دينى واضح فى عقيدتهم ، حيث أن مبدأ الإسلام ينبغى أن يجُب ما قبله ويمحوه هو أحد المبادئ الأساسية لهذا الدين " !

هذه سطور قليلة من صفحات كثيرة ، تسير فى الاتجاه نفسه ، كتبها الكاتب (نايبول) البريطانى الجنسية ، الهندى أصلا ، والذى أعلن عن فوزه بجائزة نوبل للآداب فى الحادى عشر من أكتوبر ٢٠٠١ ! وكان ذلك فى كتابه " ما وراء الإيمان " Beyond Belief والذى صدر عام ١٩٩٨ ، ولم تكن تلك هى المرة الأولى التى يسب فيها الإسلام والمسلمين ، وإنما كانت هناك محاولة سابقة له فى كتاب له بعنوان (بين المؤمنين) Among The Believers الصادر عام ١٩٨١ ، مما جعل الأكاديمية السويدية ترى أنه يستحق هذه الجائزة الكبرى المرموقة .

ولنمض مع سطور أخرى لهذا الفائز الكبير لنرى أى غل أسود يحمله قلبه للإسلام والمسلمين ، وأنا أعلم أن قراءتها مؤلمة للقارئ ، ولكن لابد مما ليس منه بد ، أن نعرف على وجه اليقين ، ماذا يقولون عن الإسلام وعنا فى البلدان الأخرى ، وخاصة تلك الدول المتقدمة الكبرى التى تشن الآن حربا ضارية على ما أسمته بالإرهاب ، حتى يكشف القارئ عن زيف ما يدعون من أنهم حملة رايات العدل والحرية والمساواة ، وإن كنا نشعر أن القارئ ربما لا تغيب

---

* جريدة صوت الأزهر فى ٢٠٠٠/١١/٩

عنه هذه الحقيقة ، ولكننا نؤكد عليها ونستمر فى ترديدها حتى نحقن قراءنا بمصل يقيه شر ما يبثه الإعلام من تصريحات وبرامج يحاول من خلالها أن يقنعنا بأن الحرب القائمة هى حرب ضد الإرهاب !

ويقارن صاحبنا بين الأثر الناتج عن دخول الإسلام إلى الهند والاحتلال البريطانى ، فدخول الإسلام يسميه " النهج الاستعمارى القاسى " ، فيقول : " كان الاحتلال الإسلامى للهند أشد قسوة وضراوة من الاحتلال البريطانى ، وقاموا خلال حكمهم للهند بتدمير آثار البراهمة والسيخ والديانات الأخرى فى شمال الهند " ، ثم يذكر أنه على الرغم من استمرار حكم المسلمين لشمال الهند ما يقرب من خمسة قرون (من عام ١٢٠٠ إلى ١٧٠٠ م) " إلا أنهم لم يقدموا شيئا مقبولا للهنود ، على عكس الاستعمار البريطانى الذى سيطر على كامل الهند لمدة قرنين ، وعلى البنجاب لمدة قرن ، إلا أنهم رغم هذه الفترة القصيرة استطاعوا أن يقدموا نموذجا جديدا للتعليم الأوربى والذى لاقى احتراما كبيرا وقبولا رائعا من جانب الهنود " .

ولسنا فى مجال لمناقشة هذا الكاتب فى مقولاته المغلوطة ، وإنما يكفى أن نتساءل : فلم كانت حركة المقاومة للاحتلال البريطانى ، وخاصة على يد الزعيم العظيم (غاندى) ؟

ولا يقف صاحبنا عند هذا الحد ، بل يؤكد أن الإسلام أشد خطرا على الغرب من كارل ماركس ، وأن الشريعة الإسلامية لها قوة تدميرية لحضارة الغرب ، تفوق ما تصوره الغرب من نزعة هدامة وتدميرية فى المبادئ الماركسية .

ولسنا نحن فقط ، باعتبارنا مسلمين ، نصف هذه الأفكار التى رددها نايبول بأنها عنصرية بغيضة ، وتبعد تماما عن المنهجية العلمية ، فها هو الكاتب الفلسطينى الأصل ، الأمريكى الجنسية ، المعروف ، د. إدوارد سعيد ، يدرك مدى هذه العنصرية ، وذلك التحيز الأعمى ضد الإسلام والمسلمين ،

فيكتب ، حين ظهور هذا الكتاب (ما وراء الإيمان) عام ١٩٩٨ قائلا : " إن نايبول يختلف عن غالبية المؤلفين فى أنه لم يقم بزيارة واحدة ، بل بزيارتين إلى العالم الإسلامى لكى يتيقن من كراهيته العميقة لذلك الدين وأهله وأفكاره ، ويبين كتابه الثانى أنه لم يتعلم شيئا عن الإسلام ، بل إن مشاهداته ولقاءاته لم تزد على أن تبرهن له صحة آرائه المسبقة " • ويزيد كاتبنا العربى الكبير على ذلك بقوله : " إن هوسه العدائى بالإسلام أدى به إلى نوع من التوقف عن التفكير ، أو ما يشبه الانتحار الفكرى الذى يجعله يكرر المقولة نفسها إلى ما لا نهاية " !

إن التوقيت المريب لمنح الجائزة يفضح أولى الأمر فى الدول الأوربية والأمريكية ، فلطالما ردد الرئيس الأمريكى بوش من أن الحرب القائمة ليست ضد الإسلام والمسلمين ، وكذلك تابعه رئيس الوزراء البريطانى طونى بلير (ولا أدرى لماذا يذكرنى دائما بمسرحية ألفريد فرج : على جناح التبريزى ، وتابعه قفة !) يردد نفس المقولة ، إذ يؤكد حصول كاتب عنصرى عرف بالسب فى الإسلام والمسلمين ، أن المسألة هى فقط لجر الدول العربية الإسلامية للوقوف إلى جانب تحالف الشياطين •

وشهد شاهد من أهلها ، فها هو قاسم حمادى ينقل لنا فى جريدة الحياة فى ١٠/١٨ رأيا مترجما لنقيب الصحفيين السويديين (جان جيللو) يصف فيه توقيت اختيار نايبول لنيل جائزة نوبل فى الآداب بأنه اختيار شديد التعاسة ، خصوصا فى الظروف التى يعيشها العالم الآن ، كما يصفه بأن اختيار محزن ، وأكثر من هذا يصرح بأنه ما كان نايبول يحصل على الجائزة لولا أنه قد أعلن آراء عنصرية ضد الإسلام والعرب !!

إن هناك عدد غير قليل فى صفوفنا ، من المغرورين بهذه الجائزة التى أصبحت عناك عدة مظاهر تشير إلى أنها ليست (علمية) دائما ، فلا يغيب عن أذهاننا تلك الفترة المعروفة بالحرب الباردة قبل سقوط الاتحاد السوفيتى حيث

كانت الجائزة تمنح أحيانا لمن تمردوا على الاتحاد السوفيتى من علمائه وأدبائه ، وليتساءل كل منا ، مهما كان الموقف الفكرى من كل من طه حسين وعباس محمود العقاد ، أفلم يكونا مستحقين لها ؟

المفروض فى سبب تخصيصها أنها جائزة إنسانية تقف فى صف المظلومين والمغبونين من المجتمعات البشرية ، ولو نظر أعضاء لجنة التحكيم إلى مجمل حال الشعوب الإسلامية لوجدوا أنها تعيش تحت قوى قهر وظلم لا مثيل لها ، وأنهار دماء ملايين من ابنائها تجرى مع كل مطلع شمس ، فضلا عما لا حصر له من مظاهر البؤس والشقاء والفقر ، فهل هذا الذى يسب دين هذه الشعوب ، وأفرادها قد حقق الهدف من تخصيص هذه الجائزة ، كما أراد لها صاحبها حقا ؟

إننا نعيب على أسامة بن لادن تأجيجه لمقولة الصراع الديني بين المسلمين وغيرهم ، ونؤكد أن الحرب القائمة حرب استعمارية من الدرجة الأولى ، فهل يختلف ما كتبه الحائز على نوبل عما يردده بن لادن ؟ أفلا تؤدى آراؤه هذه إلى إشعال نيران الغضب بين المسلمين ضد غيرهم ، خاصة أن ما لا يحصى من الحجج المؤيدة تموج بها دنيانا منذ قرنين من الزمان على الأقل ؟

ليس حبا فى زيد* ٠٠!

" من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره " ، مبدأ إلهى فى المحاسبة ، فى الدنيا والآخرة ، وهو أيضا مبدأ إنسانى بحكم ما تواضعت عليه المجتمعات البشرية من ضرورة مكافأة المحسن ، ومعاقبة المسئ ، وهو من أجل ذلك مبدأ حاكم للقوانين المدنية لمختلفة التى تنظم العلاقات البشرية ٠

ومن الصعب أن يحصر الإنسان كم التجارب التى أجراها علماء التربية وعلم النفس فى حاكمية هذه السنة فى عمليتى التعلم والتعليم ، بل وفى السلوك البشرى على وجه العموم ٠

ومن هذا المنطلق حرصت دول مختلفة على أن ترصد ما تستطيعه من مال مكافأة للمتميزين فى هذا الحقل أو ذاك سواء من حقول المعرفة أو الحياة بصفة عامة ، كما نرى فى تلك الحزمة الشهيرة من الجوائز المعروفة بجائزة " نوبل " سواء فى السلام أو الكيمياء أو الأدب أو الطب ٠٠إلخ ، وكما نرى فى مصر مما يسمى بجوائز الدولة التشجيعية والتقديرية ، وغير هذه وتلك مما نعرفه فى بلدان أخرى ، أو ما ترصده بعض الهيئات والمنظمات المحلية والإقليمية والدولية ٠

ومع ذلك تأبى " السياسة " إلا أن تخترق ما هو جميل وطيب فى الحياة المجتمعية والعلمية بفيروساتها المفسدة ٠٠٠

لا نريد أن نتوقف طويلا ، على سبيل المثال ، أمام وقائع وأحوال جوائز الدولة فى مصر ، فهذا ليس موسمها ، وقد أشبعها الناقدون تعرية بما فيه الكفاية ، لكن ما يدور بخلدى دائما كل عام من تساؤلات، من قبيل : هل لا

---

* جريدة آفاق عربية فى ١٣ ، ٢٠٠٣/١١/٢٠

يستحق رجل مثل الدكتور القرضاوى مثل هذه الجائزة فى بلده مصر ؟ أو لا يتفوق الجهد الفكرى المتميز للدكتور محمد عمارة على ما برر فوز هذا وذاك ممن سبق لهم نيلها ؟ ويطول بنا المقام لو عددنا نفرا من علمائنا ومفكرينا " محرم " عليهم أن يفوزوا بالجوائز المصرية ، وعندما تسأل ، لن يجروء أحد على أن يسوق تعليلا علميا أو فكريا ، ذلك لأن السبب معروف وإن لم يصرح به أحد ، ألا وهو أنه من المستحيل على أحد أن ينال جائزة ، مهما بلغ علمه ، ومهما بلغ فكره ، إذا لم تكن الدولة راضية عنه !

ليس معنى هذا أن نطعن فيمن نالها ، ففيهم بالفعل من استحقها ، لكن فيهم أيضا من نالها من غير استحقاق ، وهناك من استحقها ولم - وأظن أنه " لن " - ينلها !!

ليس العلم إذن ، وليس الفكر من ثم ، ، وليس الجهد المتميز المبذول هى وحدها معايير الاستحقاق والجدارة ، وإنما هناك شروط أخرى ، أبرزها " الرضا السياسى " !!

ولعلنا نسارع فى التفسير فنقول أن هذا ديدن المجتمعات المتخلفة ، وتلك التى يحكمها الاستبداد والقهر وتنهج نهجا شموليا ، لكن هذا وإن كان تفسيرا مقبولا ، لكن من الغريب حقا - وقد لا يكون غريبا - أنك يمكن أن تجد ذلك أيضا فى مجتمعات قطعت شوطا طويلا فى الرقى والتقدم والعلم والتكنولوجيا ، وابرز ما يحضرنا بهذا الصدد هو الجائزة الشهيرة " نوبل " .

فلا أحد على سبيل المثال يمكن أن يمس القامة الشامخة لنجيب محفوظ فى عالم الرواية العربية ، لكننا نعلم أن " الرواية " ليست إلا شكلا واحدا من الشكل الأدبى ، ومن ثم فإن لنا أن نتساءل : وهل هناك قامة تعلو على قامة عملاق مثل عباس محمود العقاد ؟ فإذا ما فتشت فى " الموقف السياسى " لنجيب محفوظ كما عبر عنه فى بعض تصريحاته وكتاباته ، فسوف تجد أنه يضعه فى خانة هؤلاء المرضى عنهم سياسيا ، إلى الدرجة التى تحزن كثيرين - وأنا

منهم - من المعجبين بأديبنا الكبير ، بحيث أنهم تمنوا أن لو أنه لم يقرب موضوعا سياسيا واقتصر على هذا الشكل الإبداعى فى الرواية !

- وآخر ما يطالعنا فى هذا الشأن منح جائزة نوبل للسلام ل (شيرين عبادى) السيدة الإيرانية القانونية ذات ال (٥٦) عاما باعتبارها مدافعة عن حقوق الإنسان ٠

هنا أيضا قد تجد أنه من المفرح حقا أن تنال " امرأة " ، و " مسلمة " مثل هذه الجائزة ، مما قد يوحى بعدل ، وموضوعية ، لكنك لو فتشت فى دفاتر (شيرين) فسوف تجد أن القبة هى من غير شيخ يرقد تحتها!!

فهى تقف موقف المعارضة للنظام القائم فى إيران ٠٠٠ حيث تزايدت فى الفترة الأخيرة ضغوط الولايات المتحدة عليه فى برنامجه النووى ، بل واعتبرت ركنا أساسيا فى المحور الذى أسماه بوش (محور الشر) ، مما يذكرنا بفوز بعض الأدباء الروس ، وقت قيام الاتحاد السوفيتى بجائزة نوبل للأدب ، ممن كانوا على علاقة غير طيبة بالنظام السوفيتى ٠

بل إن هذا يذكرنا أيضا بموقف غاية فى السخرية حقا ، عندما منحت جائزة نوبل للسلام " لبيجن " ، مشاركة مع أنور السادات ، مكافأة لهما على توقيع اتفاقية " كامب ديفيد : عام ١٩٧٩ ، ولسنا فى حاجة إلى أن نقول من هو مناحم بيجن ، فسجله أضخم من أن تتسعه صفحات الجريدة كلها من حيث ممارساته فى القتل والتدمير والإرهاب منذ نعومة أظفاره ، حتى لقد سبب حرجا كبيرا للحكومة البريطانية وقت رئاسته للوزارة الصهيونية ، عندما أراد زيارة لندن ، لأن الإنجليز بالذات أدرى الناس بسجله الإرهابى ، حيث نالهم منه الكثير عندما كانوا يحتلون فلسطين ٠

ثم اقرأ بعد ذلك بعض آراء (شيرين عبادى) لتعرف لماذا استحقت هذه الجائزة الميمونة ٠٠٠٠

فقد أعربت عن أملها فى إلغاء حدى الرجم وقطع اليد فى بلادها ، وذلك فى مقابلة لها مع صحيفة " لوموند " الفرنسية •

وكررت دعوتها إلى فصل الدين عن الدولة ••

ولعلم القارئ فقد كان بابا الفاتيكان مرشحا كذلك للجائزة ، لكن شيرين هى التى فازت بها ، مما قد يوحى مرة أخرى بعدل وتكافوء فرص ، فها قد فضلوا امرأة مسلمة ، على زعيم العالم المسيحى الكاثوليكى ! لكن ، مرة أخرى ، فها هو " الأب رفعت بدر " يذكرنا فى رسالة له إلى صحيفة الرأى الأردنية (٢٠٠٣/١٠/٢٢) بأن البابا كان معارضا لحرب الخليج الثانية عام ١٩٩١ ، وهو قد عارض أيضا الحرب على العراق هذا العام ٢٠٠٣ ، بصوت أقوى من أصوات زعماء دول إسلامية وعربية ، وله مواقفه المتعاطفة مع القضية الفلسطينية ، وكان لاختيار أول بطريرك عربى عام ١٩٨٧ دليل على دعم القضية العربية لدى الكرسى الرسولى ، عقبه إبرام مذكرة التفاهم بين السلطة الفلسطينية والكرسى الرسولى عام ٢٠٠٠ ، ونسوا الدور المعروف لهذا البابا فى انهيار الكتلة الاشتراكية ، وهو الأمر الذى أشار إليه آخر رئيس سوفيتى ، جورباتشوف •

لم يكن حصول شيرين إذا على الجائزة حبا لها وإنما كراهية لإيران ، ورسالة واضحة للمناهضين لنظامها بأن المكافآت الضخمة والمغرية فى انتظارهم •

أخلاق الشعوب
من خلال الحالة المرورية* !

كان رائد علم النفس فى مصر ، الراحل الدكتور يوسف مراد يصدر أول مجلة علمية متخصصة فى الشرق ، فى علم النفس تحمل اسم هذا العلم نفسه حيث صدرت فى عام ١٩٤٥ ، وكان من كتابها د٠ مصطفى زيور ومحمود أمين العالم ود٠ مصطفى سويف ٠

فى عددها الثانى الصادر فى أكتوبر عام ١٩٤٥ ، كتب أستاذ الجغرافيا الراحل د٠ الصياد دراسة طريفة كانت هى الأولى من نوعها حقا بعنوان (نفسية الشعب المصرى من أغانيه) ، وكنت قد قرأت هذه الدراسة منذ سنوات بعيدة وظننت أنى نسيتها ، فإذا بها – لمناسبة ما – تبرز إلى مستوى الشعور وتلح على أن أكتب ، مجرد " إطلالة " على أخلاقياتنا ، وذلك لا من خلال الأغانى ، وإنما من خلال الحالة المرورية فى الشارع المصرى ، ذلك أن هناك بالفعل من يقول : إذا أردت أن تعرف أخلاق شعب من الشعوب معرفة جيدة ، سر فى شوارعه عدة أيام وراقب ما يحدث ، عندئذ يمكن أن تتكون لديك صورة شبه دقيقة عن أخلاقيات هذا الشعب ٠٠ودعونا نبدأ بهذه الواقعة ٠٠٠

فى أوائل التسعينيات تشرفت بدعوة من أحد الوزراء للمشاركة فى ندوة معه وآخرين فى عاصمة إحدى المحافظات ، وكان التقابل فى البداية فى مكتب المحافظ ، فلما بدأنا نهم بالقيام ذهابا إلى مكان الندوة ألح المحافظ على أن

---

* نشرت بجرؤيدة القاهرة ، فى ٢٠٠١/٨/١٤ باسم مستعار ، وإن كان هو الأسماء الثلاثة الأخيرة من اسمى الخماسى (على السيد على) بقصد اختراق حظر على أن تقبل الجريدة مقالا لى ، ولعل نشر المقال باسم آخر مؤشر على حال مؤسف فى ثقافتنا حيث لا يكون الفكر المقدم هومعاير التقبيل أو الرفض ، وإنما هو الشخص!

يصحبه الوزير فى سيارته تشرفا به واحتفاء وتقديرا ، وترتب على ذلك أن اقترح الوزير أن أركب أنا سيارته !

كانت تلك هى المرة الأولى (والأخيرة غالبا) التى أركب فيها سيارة وزير ، خاصة وقد كنت وحدى ، وهى تجربة على الرغم من أنها لم تستغرق إلا دقائق إلا أنها حفرت فى ذاكرتى بحروف حديدية من الصعب على الزمن أن يمحوها .

ما أن جلست فى السيارة وانطلقت بى حتى أحسست بأنى أتقمص ثوبا آخر غير ثوبى الفقير البسيط متواضع الحال . كان الناس ينظرون إلى السيارة وأمامها " الموتوسيكل " ، والستائر المسدلة على الجانبين بنظرات امتلأت بمشاعر عديدة مختلطة يتناقض بعضها مع البعض كما بدا ذلك على أساريرهم وتوقفهم عما هم فيه ليلقوا نظرة إلى هذه السيارة الملوكية .

وحتى يصل السائق إلى مكان الندوة كان من المفروض أن " يلف " من مكان يبعد عن موقع المحافظة بضعة أمتار ، لكنه لم يأبه بذلك وآثر أن يسير فى الاتجاه العكسى مخالفا لكل القواعد واللوائح المرورية ، ولم لا أليس هو سائق وزير ؟ رغم أن الشارع هو من الشوارع الرئيسية الكبرى ، وكان على السيارات الأخرى جميعها أن تنزاح إلى الجانبين ... وبطبيعة الحال رآها مسئولو المرور ، فلم يأخذوها مخالفة ، بل والأدهى من ذلك وأمر أنهم أدوا لها التحية وشيعوها بالابتسامات والدعاء بأن يحفظ الله معالى الوزير زخرا لمصر ، وما علموا أن الجالس بداخلها ليس هو الوزير ، وإنما هو إنسان غلبان هو كاتب هذه السطور لا يملك سلطة إلا على نفسه (أحيانا) !!

فى التو واللحظة شعرت عمليا بمعنى المثل الشهير " يا بخت من كان النقيب خاله " ، ولماذا يتصارع البعض على السلطة ، أو حتى التقرب من أصحابها .

هذه الحالة المرورية البسيطة إنما تلخص العلاقة بين الشعب والسلطة وكيف ينظر كل طرف إلى الآخر ، وما هى السلوكيات التى ينبغى أن يسلكها إزاء الآخر ، هذا إذا نحيت جانبا ما تسمعه عبر ميكروفونات الإذاعة وتراه على شاشات التليفزيون ، وتقرأه على صفحات الصحف والمجلات أو الكتب الرسمية ، فهو غالبا ما يخالف واقع الحال .

دعك من هذا وانظر ما يحدث أحيانا عندما تسير فى سيارة فى مثل هذه الأيام التى تكاد الشوارع فيها تشتعل من شدة الحرارة ولا يطيق الإنسان نفسه ، ثم إذا بك تضطر اضطرارا إلى التوقف مع مئات غيرك وقتا لا أحد يعرف متى ينتهى .. دقائق ؟ نصف ساعة ؟ ساعة ؟ الله أعلم ، لا لشئ إلا لأن موكبا رسميا فى الطريق ... قد تكون مسرعا لتلحق موعد قطار أو طائرة ، قد تكون مصاحبا لمريض يشكو ويئن تريد أن تصل به إلى أقرب مستشفى ... إلى غير هذا وذاك من احتمالات لا حصر لها ، فلا شئ يهم من كل ذلك حتى لو وصل عدد الركاب المنتظرين فى الأوتوبيسات والسيارات والمترو آلافا مؤلفة ...إنها صورة أخرى تستطيع أن تقف أمامها طويلا لتستخرج منها عشرات المعانى والدلالات والأخلاقية للعلاقة بين الشعب والسلطة ، والتى تفرز بدورها كما هائلا من القيم والمفاهيم والاتجاهات السلوكية السلبية .

فى يوم من الأيام اصطحبت أخا لى أنعم الله عليه بشئ من اليسر النسبى ، وكانت سيارته " مارسيدس " ، وكنت دائما أتساءل بينى وبين نفسى : لماذا يدفع الناس مئات الألوف كى يركبوا سيارة ، بينما يمكن أن يكتفوا ببضع عشرات الألوف بسيارة أخرى متواضعة ، فلما ركبتها مع أخى أدركت أن المسألة ليست فقط " ترفا " وراحة ومتعة فى الجلوس والقيادة ، إذ لها وظائف اجتماعية أخرى .

كانت هناك أماكن يقضى النظام بأن يسأل الواقفون على البوابة الداخلين عما معهم من تصريح ، أو سبب القدوم ، أو من يريدون ، أو " ركن " السيارة

بالداخل .. هكذا تعودت من مثل هذه الأماكن عندما أقترب منها بسيارتى المتواضعة ، هذا إذا كان يسمح لى أصلا بالاقتراب بها ، فإذا بأخى يقتحم العديد من هذه الأماكن دون أن يستوقفه أحد ، وإنما الوقوف احتراما ، والتحية والسلام ، والترحيب ، وتكون معلوماتى أنهم لا يعرفون أخى ، فضلا عن أنه ليس من ذوي السلطة ، ولا هو من المشهورين ، فلما رآنى أبدى دهشتى ، أجاب : من أجل هذا ضحيت واشتريت المرسيدس ، فأقتحم بها أى مكان كما تسير السكين فى العجين ، وأقضى مصالحى بيسر وترحاب !

ولأنه أخى لم تتسرب إلى قلبى مشاعر حقد وحسد ، على الرغم من أنه يصغرنى فى السن وفى التعليم ، بل وكثيرا ما كنت أعلمه ، لكنه إذ يتحرك فى شوارعنا بسيارة علية القوم فلابد أن تصحبه حزمة من التسهيلات والتيسيرات والترحيبات ، ليعكس ذلك " طبقية " واضحة حتى فى السيارات ، بل إن ظهورها فى السيارات إن دل على شئ فإنما يدل على مقدار ترسخ الطبقية فى أخلاقياتنا ومعاملاتنا بغض النظر عن شئ اسمه التعليم الذى تراجع كقيمة اجتماعية كثيرا إلى الوراء .

زمان ، كانوا يرددون لنا " من طلب المعالى سهر الليالى " ، والحق أن هذه المقولة لم تبطل كما يدعى البعض ، صحيح أن المقصود بسهر الليالى هنا هو الانكباب على تحصيل العلم ، لكن ، فلنتقيد بالنص اللفظى ، وهو (سهر الليالى)، فإذا كان بالأمس يعنى سهرا فى تحصيل العلم ، فلم لا يتغير المعنى ويصبح سهرا أيضا فى المتعة وصحبة الأكابر وتوثيق العلاقات بذوى الحيثية الاجتماعية والسياسية ما دام ذلك هو الطريق إلى الوصول إلى " المعالى " ؟؟!!

عندما صدر القانون الخاص الذى يلزم سائقى السيارات بأن يستخدموا أحزمة الأمان ، وجدنا مسئولى المرور حريصين أشد ما يكون الحرص على التطبيق الحاسم والحازم للتعليمات ، وراحوا ينتشرون فى كل مكان ، فإذا بالجمهرة الكبرى من الناس تلتزم به إلى حد كبير ، حتى أصبح استخدامه عادة

، فهل يشير ذلك إلى أخلاقية خاصة تعنى احترام القانون والإلتزام بالتعليمات من الناس ، كما يشير إلى حرص المسئولين على تطبيق القانون وعدم التهاون فى ذلك ؟

نخطئ الحساب لو أجبنا بالإيجاب على ذلك ، ويكفيك أن تقف دقائق معدودة فى أى طريق تريد ، سوف تجد العشرات من صور المخالفة : سيارات بطيئة تسير إلى يسار ، وسيارات سريعة تسير إلى يمين ·· " شاكمانات " سيارات تفوق مداخن المصانع فى ما تنفثه من دخان كثيف ·· سيارات تتجاوز الحد المسموح به للسرعة ··· شباب صغير السن يلهو بسيارة ماما أو بابا بدون رخصة ··· " الركن " صف ثان وثالث ··· إلخ ، ومع ذلك فلا تطبيق للجزاءات ، ولا حسم ، فلماذا التزم الناس مع حزام الأمان ولم يلتزموا فى الباقى ؟ لأن السلطة المرورية متراخية هنا ، حاسمة هناك ، أفلا يشير لنا هذا إلى أن الناس " تخاف ما تختشيش " ؟ أقول ذلك وأنا أشعر بخجل شديد أن أصف قومى بهذا ، لكن إذا تذكرنا المقولة التى تنسب إلى على ابن طالب والتى قال فيها : إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ؟ خفف عنا الشعور بالخجل ، فيبدو انها طبيعة بشرية حقا !

وبودى حقا أن أقوم بمسح فى عدد من إدارات المرور ، لأسأل عن مخالفات سيارات " الناس اللى فوق " وأقوم بإحصاء ذلك ، ولكنى سألت بصفة عامة بعض " العساكر " و " الأومباشية " فهم أقرب إلى مستواى ، فأجابوا بأن هؤلاء عادة " ينفدون " بجلدهم ، ويعقب هذا الذى سألته : " مع أن الفلوس على بطنهم متلتلة " ، فأرد على هذا " الحقود " بأن المسألة ليست مسألة فلوس ، ولكنها " كرامة " ، فمن كرامة " ولاد الحرة " أن " يبرطعوا " بأى كيفية يشاءون دون أن يحاسبهم أحد ، أما " ولاد الجارية " فهم الذين يخضعون للمحاسبة والمساءلة ! مع أن نبى الإسلام قال ما معناه : إنما أهلك من كان قبلكم أن الشريف فيهم إذا سرق تركوه ، وأما الفقير فإنهم يقيمون عليه الحد !!

أرأيت إلى هذه السيارة ذات البوق الخاص المكتوب عليها أنها سيارة إسعاف ؟ ماذا يعنى هذا الصوت الذى تصدره ؟ إنها تحمل إما سيدة تعانى من آلام الوضع ، أو جريح أو مصاب برصاص أو سكين ، أو بنار ، أو غير هذا وذاك من مئات الاحتمالات الخطيرة التى حتمت أن تحمله سيارة إسعاف ، وغالبا ما يكون داخلها من " الناس اللى تحت " أو من متوسطيهم على أحسن حال ، لكن السيارة تكاد تختنق فى زحمة المرور ، فلا تجد الآخرين يسارعون بفسح الطريق لها ، ولا تلمس من يقفون على الإشارات يتحكمون بمرونة كى يسمحوا لها بتجاوز الإشارة ، هذا عكس الأمر لو كان المراد مرور موكب مسئول كبير !! فما الذى جرى للناس حقا ، والمصريون مشهور عنهم النجدة والمروءة ؟

كتب كثيرون يتساءلون عن سر عشرات الكيلومترات من الأرصفة التى تهد وتبنى من جديد لتزدان ببلاط أحمر فى شكل " حمى " تجتاح العديد من شوارع القاهرة ، ووجه التساؤل أن الأرصفة المهدودة لم تكن سيئة ، كذلك فإن البلاد تشكو دائما من الضائقة المالية ، فضلا عن الحالة المزرية التى عليها الشوارع فى المناطق الشعبية ، وشدة حاجتها إلى مثل هذا الإنفاق ، لكن أحدا لا يجيب ولا يوضح المسألة ، فيفتح الباب على مصراعيه لإشاعات تتناثر هنا وهناك بأن المسألة لا بد فيها " إن " ، ويعنون بذلك أن لابد أن هناك " كبير " أو " ابن كبير " له مصلحة مالية فى ذلك ، وهكذا يشير الأمر إلى أخلاقيات المسئولين ومدى قدرتهم على المصارحة والشفافية ، وعلى مدى توافر العدل المرورى !

خبراء القوة الضائعة*

من العبارات الشائعة منذ فترة غير قصيرة أننا – كعرب – خبراء فى الفرص الضائعة ، ويسوقون أمثلة على هذا منذ بداية الصراع العربى الصهيونى ، فقد صدر قرار بتقسيم فلسطين بين الفلسطينيين واليهود ، فرفضنا هذا القرار ، وأصبحنا بعده بسنوات قليلة نتمنى أن لو عدنا للموافقة عليه ، وهكذا ..

والحق أن فى هذا ظلم كبير ، فاليهود ما كانوا ليرضوا – واقعا بهذا – ذلك أنهم بعدها بأيام قليلة أخذوا يحرصون على التمدد السرطانى فى الجسد الفلسطينى ، بل واستطاعوا أن يقتطعوا من الجسم العربى خارج فلسطين نفسها ، وأم الرشراش شاهد على ذلك التى تحولت إلى ميناء إيلات ، ولا يبرر ذلك بأن العرب رفضوا التقسيم ، فالسلوك الصهيونى منذ قيام الدولة يؤكد أنهم لا يقنعون بما فى أيديهم ويسعون إلى المزيد .

لكن ما يمكن لفت النظر إليه حقا هو أن العرب ، عندما يرفضون ، لا يسعون إلى امتلاك القوة التى تجعل بقدرتهم أن يفرضوا حلا يقتنعون به ، بل إن القوة التى تتوافر لديهم ، يضيعونها بكل السذاجة وبكل الغفلة ، ذلك لأنه لا معنى لمن يرفض وهو لا يملك القوة الضرورية التى تتيح له فرصة التفاوض السلمى للوصول إلى أفضل حل بالنسبة له ، أو فرصة الانتصار العسكرى إن انقلب الوضع وفشل أسلوب التفاوض ، بل إن مجرد معرفة الخصم بامتلاكنا لفرص القوة وحسن استخدامها ، يرفع من فرص التفاوض بغير حرب ، وهو قانون معروف على مر التاريخ . لكن ماذا نقول حقا عندما تتوافر لدينا فرص امتلاك القوة ثم نضيعها المرة تلو المرة ، ونلطم الخدود ونشق الجيوب حسرة

---

* جريدة صوت الأزهر ، فى ٢٠٠١/٦/٢٢

على واقعنا المؤلم ، وأننا مساكين لا حول لنا ولا قوة أمام قوة غشوم تستند إلى مؤازرة القوة العظمى المهيمنة ؟ !

ولنرجع بالذاكرة إلى قيام الثورة في اليمن في الثامن والعشرين من سبتمبر عام ١٩٦٢ ، فقد تعودت مصر ، وقبل قيام الثورة ، أن تمد يد العون إلى الدول العربية المختلفة ، ويكفي أنها كانت تدفع رواتب المدرسين الذين كانت ترسلوهم (إعارة) إلى بعض البلدان العربية ، بل وترسل معهم مؤنا وأدوات ، ومن هذه الدول ما أصبح غنيا أكثر من مصر الآن ٠ وبحكم العادة ، والرسالة كان على مصر أن تعين قوى الثورة ، كيف ؟

هنا حدث هذا الذي نعرفه من خطأ فاحش ٠٠ عشرات الألوف من الضباط والجنود المصريين ، بعتادهم وأكلهم وشرابهم وملابسهم ومهماتهم ونفطهم ، ورواتبهم المضاعفة، يرسلون عبر هذه المسافة الطويلة ، ويستمر هذا خمس سنوات كاملة من خزانة دولة ليست غنية ، مما تعجز عنه كثير من الدول ، وكان ذلك من أخطر الخطوات التي قذفت بمصر في جب الفقر والضعف ، وكان مقدمة لما حدث في يونيو ٦٧ من هزيمة مذهلة ٠ ونرجو ألا يزايد أحد على عروبتنا فيندفع إلى الدفاع بأن هذا كان واجبا قوميا ، فنحن والحمد لله ممن يؤمنون بالعروبة ، جوهرا ومصيرا ، لكن المساعدة كان يمكن أن تتم بالسلاح ، أو بخبراء ، أو بالمال ، أما بالشكل الذي تم فقد كان خطأ جسيما ، بل إنه ، من حيث لا ندري ، أضر وأساء إلى العروبة نفسها عندما تحولت مصر إلى دولة فقيرة ، وهزمت شر هزيمة ٠

ولسنا في معرض مناقشة أسباب الهزيمة في ٦٧ ، ولكننا من ناحية أخرى ننظر إليها من هذه الزاوية التي نناقشها ألا وهي " هدر القوة " ، فقد أكدت وثائق وتقارير وتعليقات متعددة أنه لم تكن هناك ثمة حشود إسرائيلية على الحدود مع سوريا ، بل إننا يمكن أن نقول : حتى ولو كانت هناك حشود ، فما كان الحل هو أن نفعل ما فعلناه خاصة وأننا لم نكن نملك القوة الكافية لتحقيق

الانتصار ، أو قل بمعنى أصح أننا صنعنا للناس صورة زائفة " لأكبر قوة فى الشرق الأوسط " ، وأدى الإلحاح عليها أن صدقها الناس ، فـامتلأت نفوسـهم زهوا وثقة فى قدرات بلادهم العسكرية ، ثم صدقتها القيادة نفسها فكان ما كان من ضياع ألوف الجنود والضباط ، والقوة الجوية ، ومعظم القوة المسلحة ، مما اقتضى تعويضه سنوات وسنوات ، كان من شأنها أن تسير بنا خطـوات إلـى أمام ، فإذا بنا نبدأ من نقطة الصفر فى الوقت الذى كانت فيه إسرائيل تواصـل مسيرتها نحو القوة.

ومن بعد حرب أكتوبر تدفقت أنهار الثروة على الخزائن العربية الخليجيـة بكميات فلكية خرافية لم يحدث مثلها فى التاريخ ، وتسأل بعـد مـرور هـذه السنوات عن فرص التنمية الحقيقية ، وبناء صناعات وزراعـات وتجـارات تؤسس لتنمية مستديمة تنقل الأمة إلى مصاف القوى العظمى ، فـلا تجـد إلا إنفاقات على المشروعات العمرانية والإنفاق الترفى ، وإغـراق دول العـسر بأنماط استهلاكية لم تكن تعرفها نتيجة تحويلات المعارين التى لم تذهب هـى الأخرى إلى تنمية حقيقية ، وإنما إلى مصارف للتنمية الشخصية الفردية .

ولا تسأل عن هذه الكميات الرهيبة من المخزون المالى العربى فى بنـوك الغرب ، فتلك قصة طويلة تختلط فيها الحقيقة بالزيف ، حقيقة أنها تعين علـى إدارة الاقتصاد الغربى ، وزيف الادعاء بأن الخزائن العربية غير مأمونة على هذه الأموال !

ثم اقفز بالذاكرة إلى تلك الحرب الغشوم التى أقامها نظام العـراق الحـاكم ضد إيران عام ١٩٨٠ ، ولمدة ثمانى سنوات .. كم من قتل فيها ؟ وكم مـن الأموال أهدر عليها ؟ والنتيجة النهائية ؟ لا شئ إلا مزيدا من هـدر القـوة ، ومزيدا من التشرزم والتفرق نتيجة تسيد نزوات نوعية من الحكام ابتلـى بهـم العالم العربى المنكود حقا .إن المسألة لم تقف عند حد هدر القوة العراقية ، فقد كانت كثير من دول الخليج تدفع وتساعد بوهم أن العـراق " حـارس البوابـة

الشرقية " ، ممن ؟ من دولة إسلامية ، أصبحت عدوا لدودا للولايات المتحدة ، التى حرصت على أن تغرس فينا وهما كاذبا هو أن إيران هى الخطر الأكبر على العرب ، وليست الولايات المتحدة ، وليست هى الدولة الصهيونية ، ونسينا هذا المثل الشعبى الشهير : أنا وأخويا على ابن عمى ، وأنا وابن عمى على الغريب !

وماذا نقول فى غزو العراق للكويت ، ثم هذه الحملة العسكرية الضارية التى قادتها الولايات المتحدة من كثير من قواتنا ، لا لمجرد تحرير الكويت ، فقد كان هذا واجبا ، وإنما لتدمير أكبر قوة عربية كانت فى ذلك الحين ، ثم لحصارها سنوات وسنوات لتدمير كل مظاهر القوة فيها ، حتى النخاع ، حتى الأطفال والنساء وكبار السن ، ولا تسل عن كم " المليارات " التى دفعها العرب تمويلا لتدمير هذه القوة العربية !

لقد كانت العراق هى البلد العربى الفريد حقا الذى يجمع بين مصادر القوة الثلاث : فهى تملك نفطا ضخما تتحدث المعلومات إلى أنها تعوم فوق بحر ضخم من الاحتياطات النفطية ، وهى تضم مساحات ضخمة من الأراضى الزراعية حيث تتوافر لديها ثروة مائية ضخمة كذلك ، كما تملك قوة بشرية رائعة ، يقف وراءها رصيد ومخزون من حضارات آشورية وبابلية وإسلامية ، على مر العهود ومختلف فترات التاريخ ، فإذا ما قارنت هذا بالبلاد العربية كلها فسوف تجد أن مصر – مثلا – تملك القوة البشرية ، ولا تملك المصدرين الآخرين بدرجة كافية ، ودول الخليج تملك القوة النفطية ، لكنها لا تملك المصدرين الآخرين ..وهكذا .

وتمر السنون وملايين العراقيين فى جوع ومرض ، فضلا على ضياع القوة النفطية والبشرية والزراعية ، ويعجز العرب عن التصالح .. رضوا بتصالح مع إسرائيل و " تطبيع " ويعجزون عن تصالح مع النفس ، ولا ندرى حقا تفسيرا لهذا المشهد المأساوى ، فعلى الجانب العراقى تصدر تصريحات أحيانا

غبية تثير المخاوف ، وعلى الجانب العربى يتعاملون مع الأجنبى بمنطق " عفا الله عما سلف " ، ويتعاملون مع مثيلهم فى الدين والتاريخ واللغة والمصلحة بمنطق مناقض تماما !

وهكذا تتابع وتتعدد صور المأساة العربية ... لسنا ضعفاء أبدا ، فنحن أغنياء بالعديد من مظاهر القوة ولكننا فقراء فى التفكير ، لدرجة حولتنا إلى خبراء قد لا يجد التاريخ مثيلا لهم فى القدرة على هدر القوة !

أمركة الإسلام* !!

نحن من الذين يعلمون علم اليقين أن الإسلام هو دين الوسطية ، ويكفى برهانا على ذلك تلك الآية القرآنية رقم ١٤٣ من سورة البقرة التى يقول فيها عز من قال : " وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكو الرسول عليكم شهيدا " ، وهو التوجه نفسه الذى ينتظم عددا غير قليل من علماء الأمة الذين وعوا أن الإسلام هو دين التعقل والحكمة ، وهو الدين الذى يكلف المؤمنين به بإعمار الأرض ليكون الإنسان بالفعل خليفة لله على الأرض ، ويبتغى فى كل ما يقول ، وفى كل ما يفعل وجه الله عز وجل ، ويكفى أن نذكر من تلك الكوكبة من العلماء أمثلة لا على سبيل الحصر بطبيعة الحال ، ففى المقدمة يقف د٠ يوسف القرضاوى ، ود٠ محمد العوا ، وفهمى هويدى ، ود٠أحمد كمال أبو المجد ، ود٠ محمد عمارة ، ود٠ البوطى فى سوريا والراحل الشيخ محمد الغزالى ، وغيرهم كثيرون بحمد الله ٠

ولذلك فإن الإنسان ليسعد حقا عندما يسمع مسئولا رفيع المستوى فى إحدى البلدان العربية التى عرفت الكثير من تيارات الغلو والتشدد ، يؤكد على ألا غلو فى الإسلام ، ويكرر هذا عدة مرات ، مستشهدا بالآية القرآنية الكريمة ٠

لكن المشكلة حقا هى فى تلك التأويلات التى تفرض من عندها حدود طرفى القضية ، لتحدد بالتالى منطقة الوسط ، وكأن المسألة يمكن أن تقاس بالمقاييس المترية المعروفة ، بينما هذه الوسطية ليست كذلك ، فوضع منطقة الوسط تحدده المواقف والقضايا موضوع النظر ، ولعل أبرز وأحدث الأمثلة التى تصور هذا هو الموقف من القضية الأفغانية ، فقد يتصور البعض أن هناك

---

* جريدة آفاق عربية ، فى ٢٠٠١/١١/٢٢

طرفين لموقفين : أحدهما المشاركة مع قوى الهيمنة الغربية في الحرب ، والثانى هو التضامن مع الأفغان ، ويصبح الموقف الوسط هو الحياد !

فلم يكن من حسن التفكير التوسط هنا ، ذلك أن القضية هى قضية عدوان وحشى من قوى الهيمنة على شعب مسلم أعزل فقير ، وبالتالى فما كان ينبغى لطرف مسلم أن يشارك بأى عون يعين المعتدين ، ولا كان يصح للأمة الإسلامية أن تقف متفرجة !

ومن هنا فإن أخشى ما نخشاه أن تسعى قوى الهيمنة الغربية إلى أن تقود سلسلة أخرى من المعارك أخطر وأشد وطأة من تلك المعارك التى قامت بها ضمن الحرب الساخنة التى قادتها ضد أفغانستان ، وقاربت على الانتهاء لصالحها ، هذه الحرب التى قد تسعى إلى أن تعيد صياغة سبل التفكير فى العالم الإسلامى بحيث ترسم صورة للإسلام تتفق والمصالح الغربية عامة والأمريكية خاصة ، ويعينها على ذلك أن كثيرا من النظم القائمة أمريكية الهوى أو الصنع .

ولعلنا نتذكر جيدا بعض الأصوات التى كانت ترد متسائلة ، عندما ترتفع أصوات بأن يكون النهج الإسلامى فى الحياة المجتمعية هو المسير والقائد ، ويكون مدار هذا التساؤل : أى إسلام تريدون ؟ السعودى ؟ أم السودانى (وخاصة وقت وجود الترابى فى السلطة) ؟ أم الإيرانى ؟ أم المصرى ؟ .. وهكذا .

صحيح أن الإسلام ، باعتباره هو الحق وهو الحقيقة ، لا يتعدد ، لكن " الرؤى " يمكن أن تختلف وتتباين ، بدلالة وجود المذاهب الإسلامية المعروفة فى الفقه ، ومن هنا يمكن لقوى البغى والعدوان أن تدخل من خلال حصان طروادة جديد لتشيع مفاهيما وتأويلات وقيما واتجاهات تسير فى الصالح الأمريكى .

إن هذا ليس تشاؤما ولكنه للتحسب والتحذير والتنبه ، ولينظر كل إنسان الآن إلى عدد غير قليل من حياتنا اليومية ، فسوف يجدها قد تأمركت ، فها هو محل (كنتاكى) يواجه كل من يخرج من بيت الله الحرام فى مكة المكرمة ، وكأننا نعجز عن عمل طعام من الدجاج إلا على الطريقة الأمريكية !!

مثال جزئى فيما يبدو ، وبسيط كما يظهر ، ولكنه ينبىء بما هو خطير للغاية ، ألا وهو تسيد نهج الاستتباع الذى عم وانتشر فى كل رجا من ارجاء العالم العربى والإسلامى .

غباء تلفزيونى*

طوفت عبر بلدان عربية عدة على مدار فترة من الزمن ليست قصيرة ، ولا أقصد بالتطواف تلك الأيام التى كنت أقضيها فى هذا البلد أو ذاك لحضور مؤتمر أو ندوة ، وإنما هو تلك الإقامة التى كانت تمتد أسابيع وربما شهورا أستاذا زائرا فى هذه الجامعة أو تلك .

وفى كل زيارة ، تضطرنى الظروف الشخصية والعامة أن أقضى وقتا غير قصير أمام شاشة التلفزيون ، حيث لا إمكانية لمعاودة ما أفعل فى مصر من قراءة وكتابة ، ولم تكن هناك فى معظم المرات فرصة لأن يكون هناك طبق هوائى مما ألزمنى برؤية القناة المحلية ، وربما فرصة رؤية قناة دولة عربية أخرى مجاورة . وإذا كنا نفتقد الوحدة العربية ونعتبرها حلما أصبح عسير المنال ، إلا أن هذه الوحدة تتحقق بالفعل فى هذا النهج العام المشترك فى مخاطبة الجمهور فى الشأن المتعلق بالقيادة السياسية القائمة فى هذا البلد أو ذاك ، بما فى ذلك بلدى مصر لا أستثنيها من هذه الملاحظة العامة ، حتى أنك تستطيع بكل سهولة ويسر أن " تخمن " ما سوف يقال ويذاع ، لأن هناك نمطا عاما موحدا تتبعه معظم الدول العربية بلا استثناء ، لا تفترق فى ذلك الدولة الملكية عن الإمارة عن السلطنة عن الجمهورية .

فما من مرة يزور فيها المسئول السياسى دولة أخرى حتى تجند كافة إمكانات الشاشة الصغيرة لتغطية هذه الزيارة والتى دائما ما توصف بأنها " زيارة تاريخية " ، ويزعم أن مختلف وكالات الأنباء والصحف العالمية قد أولتها اهتمامها وغطتها فى صدر أنبائها وصفحاتها .وياصبر المشاهد الذى يتعسه الحظ فيشاهد بداية الزيارة المملة ، إذ تتوقف كاميرات التلفزيون طويلا

* جريدة صوت الأزهر فى ٢٠٠١/٦/١٥

أمام حركة هبوط الطائرة واصطفاف جمهور المستقبلين ، وعزف السلام الرسمى ، ثم استعراض حرس الشرف خطوة بخطوة ، وبعد ذلك ، أو قبله لا أتذكر جيدا ، يصافح الضيف الكبير جمهور المستقبلين فردا فردا وتحرص الكاميرا على ألا يفلت من التصوير أحد ، وبهذا يمر ما يقرب من الساعة ، وتسأل نفسك : ما جدوى هذا كله ؟ وما هى " التاريخية " فى هذا ؟ ولن تجد إجابة شافية ، لأنه لا فائدة تذكر ! وتسأل نفسك : هل هذه وسيلة لتقريب المسئول أكثر من قلوب الناس والتمكين له فى عقولهم ؟ والإجابة مؤسفة لأن ما يحدث قد يكون هو العكس ، فهناك ما يمكن تسميته بالتشبع التلفزيونى ، الذى يعبر عنه المثل العامى الشهير : كتر السلام يقل المعرفة ، فهذا الإلحاح المستمر وتلك المبالغة الواضحة لابد أن تصيب المشاهد بالملل ، وأخشى أن اقول " والقرف " ، وتترك أثرا غير طيب فى نفس الذى يتعسه الحظ فيشاهدها ، وآه لو كانت إذاعة الزيارة فى الوقت المخصص لإذاعة مسلسل تلفزيونى يتتبعه الناس !

كذلك فإذا ألقى المسئول السياسى خطابا ، تجد النهج نفسه ، فدائما يكون الخطاب " تاريخيا " ، ونحن نفهم من إطلاق صفة التاريخى على حدث أنه يشكل " انعطافة " على الطريق ، مثلما كان خطاب عبد الناصر مثلا الخاص بتأميم قناة السويس ، ومثلما كان خطاب السادات الخاص بأحداث الرابع عشر من مايو ١٩٧١ .. وهكذا مما لابد أن يأتى ذكره فى كتب التاريخ ، لكن غالبا ما تجد أنه خطاب عادى ، فهل " التاريخية " هنا تنصب على الحدث أم لأنه صادر عن القيادة السياسية ؟

ويتبع مع الخطاب السياسى الشئ نفسه مع الزيارة ، فيزعم اهتمام وكالات الأنباء والصحف العالمية به ، وأنه نشرت منه فقرات مطولة واستأثر الخطاب باهتمام المعلقين والمحللين السياسيين فى مختلف دول العالم. وعلى الرغم من إذاعة الخطاب فى حينه ، إلا أن من الضرورى تكرار إذاعة نصه كاملا عقب

الانتهاء من بعض نشرات الأخبار حتى لا يفلت من سماعه أحد • وفى النشرة الإخبارية لابد من إذاعة ما يسمى " بملخص " للخطاب ، فتفاجأ بأنه ملخص واف للغاية ، ومع ذلك فلابد أن تجد المذيع بعد إذاعة هذا الملخص المطول يعقب " وسوف نذيع فى نهاية النشرة النص الكامل للخطاب " ، هذا على الرغم أيضا من أن جميع الصحف لابد أن تنشر النص الكامل فى صفحاتها !

ولست فى حاجة لأن أؤكد لك أنه ما من شئ مثل هذا يحدث فى الدول الغربية ، فليكن رئيس وزراء بريطانيا من يكون ، ولتكن ملكتها ، وليكن رئيس الولايات المتحدة من يكون فإن ما يتحدثون به " محجم " دائما بمساحات محدودة على شاشات التلفزيون وعلى صفحات الصحف والمجلات ، لأن هذا المسئول الغربى ليس مالكا لأجهزة الإعلام ولا محتكرا لها ، وهى مخصصة بالدرجة الأولى للجماهير على وجه العموم •

وإذا ما زار المسئول منطقة داخلية ، تجد التغطية تؤكد – كذبا – على أن حشودا ضخمة من جماهير الناس قد خرجت لتحية سيادته ، وتظل الكاميرا متتبعة الموكب وتصفيق الجماهير على الجانبين وقتا طويلا ، ولا تسأل عن جدوى مثل هذا !

وإذا ما سعى التلفزيون لتغطية أنشطة عامة وخاصة الرسمى منها ، فهو يعرضها على سبيل أن "التلقين" و " التعبئة " ، ومن شأن التلقين والتعبئة أن يجئ بالمعلومات مزينة تجمل الوضع القائم وتضخم إيجابياته ، ولا تجئ هذه التغطية على سبيل " التنشئة " والتربية السياسية ، فمن شأن هذا وذاك أن ينهج النهج العلمى المعروف الذى يلتزم بما هو واقع سلبا كان أم إيجابا ، ويحرص على تطبيق الشعار المعروف " الزبون دائما على حق " ، والزبون هنا هو الجمهور الذى يسمع ويشاهد ، فيحرص على استطلاع موقفه بغير تزويق ولا تجميل ، لكن انظر فى ما يعرض فى غالب الأحوال •••

لو كان الأمر أمر تفقد منشأة تعليمية ، فسوف يبادر مسئول الإدارة التعليمية ، أنه " وفقا لتوجيهات السيد وزير التربية " قمنا بكذا وكذا ، وحتى لو فرض أن المنشأة كانت بطلب من الأهالى وإلحاحهم فلابد أن تعرض على أساس أن السيد الوزير ما أن علم بالرغبة الجماهيرية أو الشكوى حتى بادر فى التو واللحظة إلى الاستجابة الفورية ٠٠٠ وقل مثل هذا بالنسبة للقطاعات الصحية وغير هذا وذاك من قطاعات ٠

بل إن هذا الوزير نفسه عندما يكون هو المتحدث غالبا ما يسبق حديثه بأنه " وفقا لتوجيهات القيادة السياسية ٠٠٠" ٠ وهناك بلدان أخرى لا يكتفى فيها المذيع أو المتحدث بمثل هذا وإنما يشفعه بالدعاء وطول العمر للمسئول وأن يحفظه الله زخرا للبلاد ٠

وإذا تطوع التلفزيون بعرض تقرير إخبارى عن منشأة أو منطقة أو قطاع ، فغالبا ما يجئ بصورة معروفة ومشهورة ، نموذجها هو تلك النشرات الدعائية التى تصدرها المؤسسات المختلفة من باب الترويج والتلميع ، ومن هنا فهم يقولون ، على سبيل المثال : " شهدت ٠٠٠ فى الفترة الأخيرة خطوات عملاقة على طريق التقدم والازدهار مما لم تشهد له البلاد مثيلا من قبل ، وذلك بفضل ٠٠٠ ، فهذه المنطقة والحمد لله قد ازدانت بالمدارس والمستشفيات ، وامتدت الطرق الجديدة التى تعتبر شريان الحياة الاقتصادية والاجتماعية بجملة أطوال مقدارها ٠٠٠ وبتكلفة مقدارها ٠٠٠ " ، وبعد أن يستمر المذيع على مثل هذا النهج بعض الوقت ، يقوم بزيارات ميدانية ليقابل الجمهور ، فإذا بالجمهور الذى تم تلقينه من قبل يكرر نمطا معينا من الأقوال تتضمن التقدير والشكر لمن قاموا بمثل هذه الخدمات الجليلة !

أذكر أنى دعيت إلى برنامج تلفزيونى لأتحدث عن سلوكيات الشارع ، فأشرت إلى أننى وأنا قادم إلى مبنى التلفزيون شاهدت وسمعت بنفسى ، وعلى بعد أمتار قليلة من المبنى أكثر من فرد ٠٠ ممن يبيعون الصحف أو يقفون فى

مقهى أو محل تجارى ينادون البعض الآخر بألفاظ قبيحة يصعب أن نحـددها ، فإذا بهذه الفقرة تحذف عند إذاعة البرنامج . وفى البرنامج نفسه أشـرت إلـى زميل بدرجة أستاذ بالجامعة عندما أبلغ الشرطة شـاكيا مـن إزعـاج شـديد يصدر عن محل "كاسيت " أسفل العمارة التى يسكنها ، فوجئ بمجموعة تقـتحم عليه شقته ويضربونه علقة ساخنة ، وفشلت كل الجهود فى أن ترد له كرامته ! وحذف هذا أيضا من البرنامج ، لأن الحقيقة ليست هى الهدف وإنما التزويـق والتجميل !

فصام مجتمعى خطير*

أدر مفتاح الراديو عند إذاعة نشرة الأخبار ، أو التلفاز ، وركز الانتباه إلى ما يقوله هذا أو ذاك من مسئولى الدولة فى قطاعات مختلفة ، ثم اغمض عينيك وعطل عقلك قليلا عن التفكير ، واطلق العنان لخيالك ليستجيب إلى ما يسمع ويرى ، فسوف تجد نفسك وكأن جناحان قد ركبا لك وحملاك إلى سماء لا يطار لها على جناح ولا يسعى على قدم ..

هناك سوف تجد نفسك فى جنة واسعة : الزراعة فيها متوافرة ، وتتزايد المحاصيل بسرعة تتجاوز العديد من الدول الأخرى ، وأن إنتاجنا من القمح والشعير قد وصل إلى معدلات غير مسبوقة بحيث نكون مطمئنين على توفير رغيف الخبز لكل مواطن بالكمية التى يريد ، وكذلك تربية الحيوان تقوم على قدم وساق لتوفير اللحوم .

وسوف تجد المدارس متوافرة ، المعلمون يقومون بواجبهم ، والكتب المدرسية دسمة تساير آخر ما وصل إليه العلم ، طباعتها أنيقة ملونة ، وعملية تعليمية تشهد الهيئات الدولية أن مصر قد أصبحت بها من الدول النموذجية على مستوى العالم . أما الجامعات فسوف تتأكد أن مصر ذات الحضارة العريقة قد أصبحت جامعاتها أعلاما حضارية ترفرف على ربوع الشباب تقودهم إلى ما لا عين ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من صور التعليم ذى الجودة المرتفعة .

وهنالك سوف تجد العملات الأجنبية متوافرة ، وبكميات تكفى لسد احتياجات المستوردين ، وطالبى السفر ، وتقدم البنوك التسهيلات التى توفر للمستثمرين ما يكفى من الأموال اللازمة لقيام مختلف المشروعات ، والميزان

* جريدة آفاق عربية فى ١٩ ، ٢٠٠٤/٢/٢٦

التجارى يحرز تقدما نحو أن يكون فى صالح مصر .

أما الإعلام ، فسوف تجد أن مصر ذات الحضارة العريقة قد أصبحت رائدة الإعلام العربى وقادرة على استمرار أستاذيتها ، تقدم المسلسلات ، والأخبار الصادقة الدقيقة فور وقوع الحدث ، مشفوعة بتحليلات متعمقة ، تفتح الباب لكل رأى مهما اختلف عن رأى الدولة ...

وبعد أن تتجول – بخيالك – فى باقى ربوع الجنة الواسعة ، افتح عينيك ، واخرج إلى الشارع ..لا بأس : تحمل بعض الشئ ، فاليوم مطر ، والشارع بحكم ما فيه من بعض الحفر تتكدس فيها المياه ، وبحكم أن " السفلتة" غير مستوية ، ستتجمع مياه هنا وهناك ..

تريد أن تشترى خبزا ..ليس هذا بالأمر السهل اليسير ، ما عليك إلا أن تقف طابورا يستغرق منك وقتا طويلا ، ثم قد لا تجد ما تريد ، فالمخبز لم يستطيع أن يلبى احتياجات هذه الجموع الحاشدة ..اتركه ، واذهب إلى " السوبر ماركت " فالخبز فيه متوافر ، لكن بأضعاف ثمن خبز الأفران ..تتحسس ما فى جيبك ..نعم إنها نقود قليلة يبدو أنها قد عجنت فى " كحول " ، إذ تلاحظ أنك أول ما تسعى إلى استخدامها تجدها قد تبخرت ..أنت لا تعرف السبب الحقيقى ، تقول أنه الغلاء المتوحش الذى يزداد توحشا مع كل طلعة شمس ، لكن السبب الحقيقى هو أن عُملتك تهبط وتهبط ..إنها " ترمومتر " الحالة الاقتصادية !!

اجلس مع أى شخص ، بطريقة عشوائية ، وافتح أى موضوع : مواصلات ، تعليم ، زراعة ، صناعة ، بنوك ، مستشفيات ..سوف تجد الأنين قد يصل إلى عنان السماء ، لا فرق فى ذلك بين من يملك المال ومن لا يملكه .

ألاحظ أنك لا تملك طبقا فضائيا ، لا بأس ..يمكن أن تذهب إلى جارك فسوف يرحب بك بعض الوقت وقلب فى القنوات الفضائية ، لن تطيق بعدها أن تشاهد أى قناة محلية ..فأخبارنا تسير وفق الأقدمية ، لا وفق الأهمية ، وسوف

تسمع هذا التمجيد وهذا التزيين ، وذاك التجميل ، لجسم وطن أصبح مثخنا بالجراح ، ثيابه قديمة ممزقة ، يتلوى من الجوع ، يعيش فقرا فكريا ، لأن الفكر القائم هو فكر التبرير والتسويغ ··ستجد الألقاب الفخمة تسبغ على المطبلين وتنهال الجوائز الضخمة على المزمرين ··

هكذا ··صديقى العزيز نعيش " فصاما " مجتمعيا مريضا ، يهدد مستقبلنا فضلا عن حاضرنا ، حيث يقول مسئولوه كلاما ، ويعيش المواطنون حالا مغايرا بالمرة ··

ألا إنها لنكبة قومية كبرى عندما تتسع الهوة بين ما يراه المسئول وما يراه المواطن ويعيش ··انفصالا شبكيا بين المحكومين ، ومن يحكمون ··

فى المجتمعات الديموقراطية لا تجد هذا ، لأن المواطنين يستطيعون أن يغيروا الحكومة إذا تجاوزت عن مهمتها الحقيقية ألا وهى أن يكون الحاكم " خادما " للأمة ، والمحكوم هو السيد ، لكننا فى مصر لا نملك أن نغير الحكومة، ولو سعى واحد منا إلى ذلك سوف يصورونه على أنه يعمل لقلب نظام الحكم وبالتالى يتعرض للمحاكمة والسجن ··الذى يغير الحكومة ، هو وحده رئيس الدولة ، ومن يرشح رئيس الدولة للحكم ؟ هم أغلبية ما يسمى بمجلس الشعب ··ومن يختار هؤلاء النواب حتى يتقدموا للانتخابات ويضمنوا الفوز إلى حد كبير ؟ هم أركان الحزب الذى يرأسه رئيس الدولة !

هنا نصل إلى بيت الداء ·· ذلك الخلل الجوهرى فى الشأن السياسى المصرى ·· الخلل الأم ، الذى تتولد منه عشرات الصور من الخلل فى الاقتصاد ، وفى الثقافة ، وفى التعليم ، وفى الزراعة ، وفى البناء ··وهكذا

وهكذا تتبين نقطة البداية التى هى الخطوة الأولى على صعود سلم الإصلاح والتطوير الذى يجب أن يقوم على فكرة لا ينبغى أن تخضع للمناقشة ، ألا وهو أن الحاكم الحقيقى لابد أن يكون هو هذا المواطن الذى يعيش على أرض هذا الوطن ، تكون له حرية اختيار من يمثله ، بغير زيف ولا قسر ولا

إغواء ..يمكن أن يتكلم ، وهو بمأمن من أن يزج به فى معتقل أو سجن أو يحرم من وظيفة أو موقع لأنه من غير المسايرين .. يدخل إلى أى مكان مدنى دون أن يرى حوله جندا مدججين بالأسلحة وكأنه داخل إلى موقع عسكرى ، وعلى رقبته سيف الشك بأن يكون معاديا ..

نحن نشكو ونصرخ بأننا نعيش أوطانا لم يعد لها احترام بين العالمين .نعيش حالة هوان لا مثيل لها ! وقبل أن نلوم الولايات المتحدة ، وإسرائيل وبريطانيا ، فلننظر إلى داخل أنفسنا ، سوف نجد أن الآخرين يستهينون بنا لأننا مستهان بنا من الداخل ..

إن حالة الهوان الخارجى إنما هى نتيجة لحالة وهن داخلى ... هذا الوهن ، هو نتيجة طبيعية لهوان المواطن ، فلتُحترم إنسانية المواطن ..وعندها سوف تتفجر طاقات مذهلة للعمل وبناء القوة ، وسوف تختفى حالة الوهن ، وعندما تختفى حالة الوهن سوف تختفى حالة الهوان !

شبهات حول (وحدة المعرفة)

لمحمد كامل حسين*

الدكتور محمد كامل حسين كان أستاذا كبيرا فى جراحة العظام ، وتولى إدارة جامعة عين شمس فى أول عهدها ، وهو على الرغم من استغراقه فى تخصصه المهنى والأكاديمى ، فقد أبدع عملين عظيمين كان لهما شأنهما فى عالمى الأدب والفكر ، أما أولهما فهو (قرية ظالمة) وهى عمل أدبى ترك بصمة حقيقية فى تاريخ الرواية العربية ، وإن كنا لا نجد فى الكتابات المتأخرة إشارة إلى هذا العمل الأدبى الفريد. أما ثانيهما فهو (وحدة المعرفة) وهو موضوع حديثنا .

ومن الملاحظ أن هناك عددا غير قليل من علماء الطب ، يعشقون مجالات أخرى وخاصة فى مجالات الفن والفكر والأدب ، ولهم فيها إنتاج متميز ، وللدكتور محمود الميناوى أستاذ أمرض النساء والولادة بطب القاهرة ، والحائز على جائزة الدولة التقديرية كتاب صدر أخيرا جمع فيه ما قد يصل إلى مئات من علماء الطب ، وكان لهم دور أدبى ملحوظ ، منذ أقدم العصور حتى الآن ، ويبدو -والله أعلم - أن اشتغال الطبيب بجسم الإنسان ، والمواجهة المباشرة مع عمليتى الحياة والموت ، يرهف الحس لديه ، ويكون أكثر قربا من الله ، فتتفجر من أعماقه إبداعات يثرى بها الإنسانية .

لكن كتاب وحدة المعرفة الذى حظى بتقدير كبير وقت ظهوره ، نال من طرف مهم فى ثقافتنا نقدا لاذعا ليس له مثيل ، ففى العدد الصادر من صحيفة الأخبار فى ١٩٦٢/١١/١٤، نشر عباس محمود العقاد رسالة بعث بها إليه قارئ من " ميت غمر " ، يقول فيها أنه اطلع على كتاب " وحدة المعرفة " للدكتور

* جريدة صوت الأزهر فى ١٥ ، ٢٠٠٢/٢/٢٢

محمد كامل حسين وأنه كان قد اطلع من قبل على نظريات أبى الفلسفة المثالية التجريبية ، الفيلسوف البريطانى ألكسندر صمويل ، فوجد أن هناك تشابها واضحا بين ما كتبه الدكتور محمد كامل حسين وبين ما نادى به صمويل من قبل فى كتبه تضمنت آراءه ومباحثه فى الميدان الفلسفى ، وأنه لما التبس عليه الأمر توجه إلى العقاد طالبا منه تناول هذه القضية ، وهى : هل هناك اقتباس أم أنه توارد خواطر ؟

وكان الرد الفورى للعقاد أن هناك بالفعل تشابها تاما بين الأفكار فى كتاب وحدة المعرفة وبين قواعد مذهب ألكسندر فى التطور وأصول الأخلاق وصفات مادة الربوبية ، وأن هذا الفيلسوف قد شرح مذهبه هذا فى كتاب ، هو أصلا مجموعة محاضرات كان قد ألقاها ، فى مجلدين بعنوان : (المكان ، والزمان ، والربوبية) Space Time and Deity ، أما آراء هذا الفيلسوف الخاصة بقضية الفن والجمال ، فقد بسطها فى كتاب آخر بعنوان (الجمال وصور من القيم الأخرى)٠

ومن المعروف أن العقاد كان قد لخص من قبل مذهب ألكسندر عن الألوهية ودرجات صفات فى كتابه المعروف (الله) ، وعاد إلى الإشارة إلى مذهبه مرة أخرى بإيجاز فى كتابه) عقائد المفكرين)٠

أما القول بما إذا كان هناك توارد خواطر أو اقتباس ، فقد أكد العقاد أن الدكتور هو الأولى منه بالإجابة!

ويبدو أن الدكتور قد رد ردا ضايق العقاد ، ومن ثم كان أن أخذ يطلق عليه - كعادته - مدفعه الرشاش فى النقد والهجوم والسخرية ، لكن العقاد لم يشر إلى المصدر الذى نشر فيه الدكتور رده حتى يمكن لنا أن نرجع إليه ، مما اضطرنا إلى الاعتماد على رواية العقاد نفسه ٠

والدكتور يعلن أنه لا يعرف هذا الفيلسوف ، حتى أنه أشار إليه ب " هذا الصمويل " ، تلك العبارة التى كرر العقاد الإشارة إليها أكثر من مرة ، بقدر من

السخرية ، وأكد الدكتور أنه بحث عن الفيلسوف فى دائرة المعارف البريطانية فلم يجد له ذكرا!

وكانت تلك فرصة ذهبية للعقاد لصب جام غضبه على صاحبنا ، على أساس أن أفكار الكسندر أصبحت ذائعة مشهورة لقراء العربية ، خاصة وأن طلاب الفلسفة قرأوا للدكتور زكى نجيب محمود فى كتابه (نحو فلسفة علمية) وصفه له بأنه : " فيلسوف تجريبى تركيبى معا ، وهو يعتقد بأن الفلسفة لا تختلف عن العلم إلا فى كونها تبحث فى مشكلات أهم من مشكلات العلم لكنهما معا يدوران حول موضوعات بعينها" .

وفضلا عن ذلك فهناك ما كان العقاد قد كتبه ، كما أشرنا ، فى كتابيه : الله ، وعقائد المفكرين ، عن هذا الفيلسوف نفسه . وأكثر من هذا ، ما سبق أن أشار إليه يوسف كرم أستاذ الفلسفة الذى يعرفه جيدا أهل الدراسات الفلسفية فى مصر والعالم العربى ، فى كتابه عن تاريخ الفلسفة الحديثة .

ونفهم من رواية العقاد أيضا أن صاحبنا ألمح إلى أن العقاد ما كان له أن يتطرق إلى هذه القضية الفلسفية التى تبعد عن اختصاصه ، فضلا عن تأكيده على انفراده بالفكرة الأساسية التى دار حولها كتابه : وحدة المعرفة ، ومن هنا فقد كان هذا مدعاة لسخرية العقاد من أن الرجل الذى يكتب ويبشر بوحدة المعرفة ، يقيم حدودا لا تُعبر بين التخصصات المعرفية المختلفة .

كان نص ما كتبه الدكتور : " أن الأستاذ العقاد ... ليس صادق الحس فى البحوث العلمية وما يقوم عليها ، لأن صدق الحس فى العلوم ينشأ من ممارستها ممارسة طويلة ، وقد خانه الحس حين ذكر أن التشابه تام بين كتابى وكتاب من يلحد إليه ، لأن الفرق بين المذاهب العلمية قد يدق على من لا يحسن العلم بها "

وقال أيضا ردا على العقاد : "وإنى لأرجو الأستاذ العقاد رجاء حارا أن يقرأ كتاب وحدة المعرفة قراءة درس واستيعاب ، وهو قد شرح فلسفة صمويل فى كتابه عن الله ... "

فكأن الدكتور يتهم العقاد بعدم القدرة على التفرقة بين المذاهب العلمية لأنه لم يمارسها ولم يمارس المباحث الفكرية كما مارسها هو ، وهو اتهام جارح حقا لمفكر عملاق مثل العقاد ، الذى يعطيه حق الدراسة الفلسفية ، عشرون كتابا ألفها منذ عشرين عاما قبل وقت كتابة المقال ، فى الفلسفة الإلهية وفى عقائد المفكرين وفى الفلسفة القرآنية ، وفى فلسفة ابن سينا ، وفلسفة ابن رشد ، وفلسفة باكون ، وفلسفة الحكم ، وغيرها وغيرها من مذاهب الفلسفة فى القديم والحديث .

ويرد العقاد على التجريح بمثله ، فيغمز ويلمز بأنه بعد كل هذا يتهمه الدكتور بعدم القدرة على التمييز بين المذاهب ، بينما يدعى أنه يمتلكها وهو " طبيب عظام " ، ويزيد على ذلك بقوله فى موضع آخر أن الدكتور " : لا يحق له أن يخوض فى المسائل الفلسفية لأنها شئ غريب عن تجبير العظام " .

ويبرهن العقاد على تهافت دعوى الدكتور بأن دائرة المعارف البريطانية التى استند إليها بحثا عن الفيلسوف البريطانى ، ليست من المراجع المتخصصة فى الفلسفة ، حيث أنها - بحكم وظيفتها - مرجع عام للمعارف البشرية ، تشير إلى طرف من كل معرفة ، أما المتخصصون فى الدراسات الفلسفية فإنهم يرجعون إلى دوائر المعارف الفلسفية ، وقبل هذا لابد من الرجوع إلى العديد من الكتب الفلسفية ، وبالتالى ، فإن صاحبنا نفسه بعيد عن المعرفة الفلسفية!

أما الأدهى والأمر الذى يبرزه العقاد فهو أن دائرة المعارف البريطانية لم تهمل ذكر ألكسندر ، لأنها ذكرته ولخصت مذهبه فى أول جزء من أجزائها وأحدث طبعة من طبعاتها وقت كتابة مقال العقاد ، ومن ثم ، فيبدو أن الدكتور قد اعتمد فقط على الطبعة الرابعة عشرة من الدائرة ولم يعتمد على أحدث الطبعات ، والطبعة الرابعة عشرة لم تذكر شيئا عن ألكسندر لأنها صدرت وهو على قيد الحياة ، ولكنها ذكرته فى عدة مواضع وخصته بقسم مستقل من تقسيماتها لتاريخ الفلسفة لخصت فيه مذهب الفيلسوف عما سماه ب تفاضل القوانين .

ووجه الغرابة هنا ، كما يشير العقاد ، أن الدكتور محمد كامل حسين كتب فى

وحدة المعرفة : " يقوم البناء الذى اقترحه للمعرفة على نظرية تفاضل القوانين - هيرارشية القوانين ٠٠ " ، والتى يترجمها عن اللفظة الإنجليزية Hierarchy : ، والترجمة الشائعة لها اليوم (التدرج) ، ثم يقارن العقاد بين عبارة الدكتور وما جاء فى الجزء السابع عشر من دائرة المعارف " : إن الموجودات تنبثق فى أحوال معينة وتتكون منها هيرارشية " ، ثم أشارت إلى أنه بهذه الهيرارشية " تكون الموجودات العالية لها صفات ما دونها ولكنها تتصرف فيها بخلاف تصرفها ، فهى تستمتع بصفاتها العليا باطنيا ومباشرة ، ولكنها تدرك صفاتها الدنيا خارجيا على درجات ، ولنا بالقياس العقلى أن نقدر وجود صفات أعلى من ذلك فى الربوبية ، فكما أن الوعى المدرك هو أعلى صفة فى الإنسان كذلك الربوبية أعلى صفات الإله ، وكيانه هو الوجود كله يترقى إلى الوجود الإلهى ، ولما كان الزمن لا يبلغ تمامه - أو نهايته - أبدا فالصفات الأعلى فالأعلى لا تزال منبثقة على الدوام ٠٠٠ولا يزال العالم فى تطلعه إلى الربوبية يحفز فينا الشوق الدائم إلى الله " ٠

وبهذا يستنتج العقاد أن ما قاله الدكتور خاصا بدرجات الموجودات من المادة إلى العقل إلى الربوية إلى الله لا يخرج عما قالته دائرة المعارف البريطانية شرحا للفكرة نفسها عند صمويل ألكسندر ٠

ويذهب العقاد إلى ما هو أبعد من ذلك فى الاتهام الذى يوجهه إلى محمد كامل حسين مؤلف كتاب وحدة المعرفة " : فلا نجد فى فصل منه فكرة واحدة لم ترد فى مذهب الفيلسوف " المجهول " لدى الدكتور ، فليس هناك عبارة واحدة عن التطور الزمنى ، وعن ماهية الزمن ، وعن التفكير الثنائى ، وعن أصالة الصفات أو الأخلاق البيولوجية وعن القوانين والحوادث ، وعن الحياة والوعى ، وعن الربوبية والإله ، لم يشرحها الفيلسوف المجهول ، ويتبرع له الدكتور بابتكارها مرة أخرى بعد سنين " ٠

ويبدو أنه من الضرورى أن نتوقف أمام بعض النصوص مما ورد فى كتاب

العقاد عن (الله) شرحا لنظرية الكسندر ، فمن ذلك : " إذا حدثت الحركة فذلك هو اتصال الزمان والمكان ، وإذا وجدت الحركة وجد الشعاع وتسلسلت الأشياء المادية من هذا الإشعاع ، وهى تبدو على درجات ، فأدنى طبقات المادة بعد صدورها من الفضاء والزمان هى المادة ذات الخصائص الأولية : وهى الحجم والشكل والعدد والحركة ، ثم تعلوها طبقة الخصائص التى تترقى إلى اللون والصوت والرائحة ودرجة الحرارة ، أو بعبارة أخرى أن الخصائص الأولية تدرك بجميع الحواس ، وأن الخصائص التالية لها تحتاج إلى التخصص فتدرك كل منها بإحدى الحواس ، ولا تتم الخاصة للشئ إلا مع اتصاله بشئ آخر ، كما يتم اللون مع اتصال الشئ بالنور ، ويتم الصوت مع اتصال الشئ بالهواء ، فلابد له فى هذه الحالة من بعض التركيب " .

وفيما يتصل بالنظام والمنظم ، كتب العقاد " : إننا إذا استبدلنا كلمة النظام بكلمة المنظم فلا نعدو بذلك أن نسمى هذه الحقيقة الواقعة ، وهى أن العالم يجرى على نسق يخرج منه النظام ، وفى وسعنا أن نسمى العالم الذى نركه على هذا النحو ..إلها "

أما بالنسبة لرأى ألكسندر فى العقل والربوبية ، فقد ذكر العقاد " : أن الكون لا يزال يعرض لنا انبثاقا بعد انبثاق بسلسلة من الكائنات المحدودة يتسم كل منها بخصائصه وصفاته ، وأرفع هذه الصفات المعروفة لدينا هو العقل أو الواعية ، والإله هو الكائن الذى يعلو على أعلى ما عرفناه " .

واستكمال هذا نتبينه من القول بأنه : " لما كان الزمان أبديا بغير انتهاء ، وكان هو مصدر النماء والارتقاء ، فليس فى استطاعتنا أن نتخيله واقفا عند إخراج تلك الكائنات المحدودة التى تتسم بسمة العقل أو الواعية ، ولابد لنا أن نرسل الفكر على الاتجاه الذى ترسمناه من تجارب الانبثاق السابقة التى تمخضت عن الصفات الرفيعة ، فإن فى الزمان والفضاء باعثا يدفع مخلوقاتهما إلى طبقة أرفع فأرفع ، كما دفع بها إلى الطبقة العاقلة أو الواعية ، وليس فى العقل ما

يدعونا إلى الوقوف عند حد من الحدود لنقول إنه هو الحد الأقصى لما يبلغه الزمان من الآن إلى أبد الآباد ٠٠ بل يكرهنا الزمان نفسه على انتظار مولود آخر من مواليده ، ومن ثم يسوغ لنا أن نتتبع سلسلة الصفات ونتخيل تلك الموجودات المحدودة التى سميناها الملائكة ، وهى كائنات تستمتع بوجودها " الملائكى " ، ولكنها تتأمل العقل على نحو يعجز العقل عنه ، كما نرى العقل يتأمل ما دونه من مراتب الحياة والموجودات السفلى ٠٠٠وعلينا أن نسأل : كيف تكون العلاقة بين هذه (الآلهة) المحدودة المسماة بالملائكة وبين الإله الذى ليست له حدود ؟ ٠٠٠ فالإله إذن هو الطبقة المثالية التى تعلو على طبقة العقل والواعية ٠٠٠والإلهية صفة تتولى الصفات التى دونها من طبقة العقل الذى يقوم هو أيضا على ما دونه من صفات وينبثق عندما تبلغ الكائنات مبلغا مقدورا من التركيب والتنسيق " ٠

ثم يستمر الفيلسوف البريطانى فى عمليات التخمين والاجتهاد الفكرى الشخصى غير المعتمد على نصوص دينية ، فيرجح " أن الإله الأعلى الذى ينبثق عنه العالم هو من معدن الروح والعقل لأنهما الطريق التى تأدينا منها إليه ، ولكنه يشارك الموجودات فى خصائصها الكونية كما يشترك الإنسان العاقل فى خصائص المادة وخصائص سائر الأحياء على نحو من الأنحاء " ٠

ويختتم العقاد هذا الجزء الذى عرض فيه لآراء ألكسندر بقوله " : فالوجود على رأى هذا الفيلسوف درجات هى : أولا : وجود الزمان والمكان ، وثانيا : وجود المادة التى لا كيفية لها غير الشكل والحجم والعدد وما لا يحتاج إلى علاقة بغيره ولا حاسة مميزة لإدراكه ، وثالثا : وجود المادة التى تتكيف باللون والرائحة والصوت وتبدأ بالاستجابة الحسية التى تشبه فى ظاهرها استجابة بعض المواد غير العضوية لبعض المؤثرات ، وخامسا : وجود الحياة العاقلة الواعية ، و سادسا : وجود الإله الذى يعلو ويعلو مع الزمان الأبدى السرمدى بغير انتهاء "

فإذا ما قارنا بين كل هذا وما كتبه الدكتور محمد كامل حسين من أن " رب

أى شئ هو القوة العالمة القادرة التى تمثل قانونا أعلى منه يؤثر فى حياته دون أن تتغير بذلك قوانينه " ، وقوله أيضا أنه سبق له أن بين " علاقة ما هو أعلى بما هو أدنى " ، ثم قوله ، إشارة إلى سابق ما ذكره " : أنه قد يكون فى هذا المذهب مفتاح نظرية الربوبية وموضعها العلمى من النظام الكونى " ، لتبين لنا التشابه الشديد ٠

ويختم العقاد مناقشته بتوجه هذا الصاروخ إلى صاحبنا :

يا دكتور ٠ إن كنت بعد هذا لا تحس حاجتك إلى التمييز الذى جردتنا منه ، فأنت أسعد خلق الله"!!

وفى العدد الصادر من الأخبار فى ١١/٢٢، يوالى طلقاته الرشاشة ٠٠ صحيح أنه يعتمد فى هجومه غالبا على حقائق ومعلومات موثقة على قدر كبير من الحجية ، لكن الصحيح أيضا أنه يتجاوز ذلك إلى الكثير من التجريح الشخصى الموغل فى التطرف ، ربما ردا على كلمة قد لا يكون قائلها قاصدا بها كل هذه المعانى التى تثير العقاد ، ولعل من ذلك ما أبداه الدكتور من دعوة للعقاد بأن يكون متواضعا ، فكان أن كتب مستهزئا بالدكتور الذى تصور العقاد أنه يريد أن " يعلمنا أدب التواضع " ، ويعرب عن أن هذا الموقف يحتاج إلى درس آخر "ذلك الدرس هو الكبرياء التى كان ينبغى أن نتعلمها ليعلم الدكتور كيف يتواضع أمام من هم أخبر منه بما يدرسون " ٠

معركة بين العقاد وأمين الخولى*

كثير من القراء يذكرون تلك السلسلة الشهيرة التى بدأت وزارة الثقافة فى إصدارها أول عام ١٩٦١ باسم (أعلام العرب) افتتحها العقاد بكتاب عن الشيخ محمد عبده ، عبقرى الإصلاح والتعليم ، وكان العدد الحادى عشر للشيخ أمين الخولى بكتابه عن الإمام مالك

وقد أثار بعض قراء جريدة الأخبار ، مفكرنا العملاق العقاد حيث نقلوا له سطورا من كتاب الخولى يعيب فيها على نهج العقاد فى " العبقريات " ، وبذلك فتح الخولى النيران على العقاد ، ومن ثم أتاح لهذا أن يفتح نيران أقسى وأشد عليه .

كان مما كتبه الخولى فى كتابه عن الإمام مالك : " إنه ليس من التاريخ ولا العلم فى شئ أن تسمى عبقريات محمد وفلان من أصحابه ، ثم يكون الحديث عن فلان آخر من هؤلاء الصحابة ، فإذا اسم الكتاب فلان فى الميزان ، وإنما الأمر أن الكل جميعا فى الميزان " .

وقال " ...لا تكون الترجمة مع شئ من هذا موضوعية ، وعلى هذا الأصل تدرك ما تكون عبقرية عمر حين يقول السيد مؤلفها ...إلخ " .

ثم يقول : " من خفيف الملاحظة التى تغير سيرة المترجم له تغييرا عنيفا وتتبين بها الحاجة الشديدة للأصول التاريخية فى رسم الصورة الأدبية أن عبقرية الإمام ... فى طبعة الهلال تزين غلافها صورة فارس على جواده شاكى السلاح ...فكلمة التاريخ أن عليا ليس فى خير أحواله فارسا – راجع الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان – فصورة الغلاف ضد هذه الحقيقة واحترام التاريخ يستبعدها " .

---

* جريدة الوفد فى ٨/٢٧ ، ١٠ ، ٢٠٠٦/٩/١٧

ويأبى القارئ السائل إلا أن يستفز العقاد ، وهو الكاتب شديد الاعتداد بنفسه إلى درجة أنه لم يطق مرة أن أن يتناوله أحد بالنقد ، فهو على الفور يهب للهجوم الحاد • صحيح أنه يستخدم حججا جادة ومهمة ومنطقية وعلمية ، لكنه فى الوقت نفسه يستخدم من الأوصاف ما يجرح الخصم ، ولا يخلو الأمر من التلويح ببعض الجوانب الشخصية البحتة التى لا تعد جزءا من النقد الموضوعى بأى حال من الأحوال ، كما نرى فى الحالة الحالية ، حيث كان "زى" الخولى موضع سخرية أكثر من مرة من جانب العقاد وركوب مترو مصر الجديدة !

أما كلمات القارئ التى ربما أشعلت النار فى العقاد ، بالإضافة إلى كلام الخولى ، فتساؤله: " فهل يجوز لناقد نزيه أن يحكم على كتاب مثل عبقرية الإمام بصورة الغلاف ؟ وهل يكون من التاريخ ومن العلم أن تتناول ترجمة ما الهجوم على العقاد بينما المؤلف نفسه يقرر فى صفحات الكتاب أنه ليس من العلم ولا من التاريخ أن تتناول الترجمة دفاعا عن المترجم له وردا لهجوم الهاجمين عليه ؟

ثم ، لماذا العقاد بالذات والدنيا مملوءة بالكتاب والنقاد ؟ هل هى الشهوة الجامحة لتجريح العظيم ؟ أو هو شئ آخر فى الصدور ؟ "

ويكتب قارئ آخر " ألا نقرأ فى صفحة اليوميات كلمة ملجمة فى إيضاح هذا الذى يسمونه بالأصالة وهم يتطاولون إلى نقد مؤلفاتكم ؟ " •

وأشار قارئ ثالث إلى وصف الخولى لعبقريات العقاد بأنها ليست تاريخية علمية " !

فماذا كان رد العقاد ؟

القضية المركزية بين العقاد والخولى أن الأول ، فيما كتب عن عدد من الشخصيات مما عرف باسم " العبقريات " نهج منهجا " نفسيا " سعى من خلاله إلى أن يغوص فيما تصوره من ملكات وأخلاق تخص المترجم له ، بينما غمز الخولى هذا المنهج ، بل وأنزله من منزلة الكتابات العلمية الموضوعية ، على

أساس ضرورة استقراء جملة المتغيرات المحيطة بالمترجم له كما أفاض في ذلك في مقدمته لكتابه عن الإمام مالك ٠

فالعقاد ، عندما يكتب عن شخصية تاريخية يغوص داخلها ، غير آبه بما هو خارجها إلى درجة أنه لا يلتفت إلى أى رقم يحدد تاريخا أو واقعة ، بينما الخولى يريد التركيز على ما هو خارج " الشخص " على اعتبار أن أى شخص هو ، بصورة أو بأخرى ، نتاج تفاعلات جملة المتغيرات التى مر بها فى عصره ٠

ومن الغمزات الصريحة فى تأكيد الخولى على أن العقاد لا ينهج نهجا علميا موضوعيا إشارته فى الطبعة الثالثة لعبقرية الإمام لدار الهلال إلى رسم لعلى بن أبى طالب فارسا على جواد ، شاكى السلاح ، بينما نقل عن أبى حيان التوحيدى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أكد أن عليا غير فارس ، ولا يتقن الفروسية ٠

هنا انبرى العقاد ليؤكد أن أبا حيان هذا " همه تلفيق القصص على الإمام على بن أبى طالب وافتراء الأحاديث عنه ليوقع بها بين الطالبيين " ، وهو يؤكد كذلك على أن أبا حيان مشهور بين علماء الشيعة ، مثل ابن أبى الحديد ، شارح نهج البلاغة ، أنه ملحد زنديق لفق حديث المفاضلة بين على وأخيه جعفر ليوقع بين الطالبيين ٠

ونقل العقاد رواية أخرى لحديث النبى تنتهى بأن عليا قتل ثمانية وهو على فرسه ، مما يؤكد مهارته فى الفروسية ٠ وزاد على ذلك بإيراد بعض وقائع معركة صفين ، فضلا عن أمثلة أخرى تشير إلى وصف لهذا بالفارس مع عدم إجادته الفروسية ، وعدم وصف ذاك بأنه فارس مع أنه كان يتقن الفروسية ٠٠وهكذا

وهنا يبرز أسلوب العقاد فى الرد الجارح ، فيتساءل : " لقد رأينا الشيخ بخمسة أزياء فى مدى شهرين اثنين : رأيناه يلبس الفيصلية والقميص المفتوح

والسروال القصير ، ورأيناه يلبس الجبة على " الياقة " المنشاة وفى يده اساور النشا بالأزرار الذهبية ، ورأيناه يلبس الجلباب البلدى والصندل فى قدميه ، ورأيناه يلبس الجاكيتة والبنطلون عارى الرأس أو لابس العمامة ، ورأيناه ورأيناه ورآه مثلنا الطلاب والأساتذة فى الجامعة كما رأيناه ٠٠٠فمن من هؤلاء هو " الخولى العلمى التاريخى الموضوعى " ؟ ومن منهم يبيح التاريخ وضع صورته على غلاف ترجمته ؟ ومن منهم تبطله كلمة التاريخ ؟ (الأخبار ، فى ١٩٦٢/١٢/٥) ٠

وبعد أسبوع من نشر هذا المقال ، نشر العقاد (الأخبار فى ١٢/١٩) خطابا تلقاه من " محمد نجيب المطيعى " صاحب مكتبة المطيعى بشارع العباسية فى ذلك الوقت إشارة إلى خطاب مطول عن أقاويل منسوبة إلى النبى صلوات الله عليه ، وإلى الإمام مالك وإلى الخليفة هارون الرشيد ، يجترئ بها الشيخ أمين الخولى – حسب تعبير العقاد – على حقائق التاريخ وعلى دعائم الإسناد اجتراء لا يقل ما فيه " من دلائل الجهل بالتاريخ على ما فيه من مساوئ التبديل والتحريف " !

ويعلق على ذلك بأن هذا " عبث لا يسكت عليه لأحد ، ولا يسكت عليه – خاصة – لم يكتب صفحة إلا ليتعالم بها على الناس بدعوى التحقيق والتصحيح والفهم النافذ والعقل الرجيح ، وليس يحتاج الناس إلى التحذير من أحد كما يحتاجون إلى التحذير من إنسان يتطاول ويتعالى باسم الأسانيد والمراجع ٠٠٠".

وما زالت المعركة مستمرة ٠٠٠

كان أمين الخولى قد كتب فى كتابه عن الإمام مالك (ص ٢٩٨) أن هارون الرشيد أرسل ينهى الإمام عن ترديد ما عرف بحديث السفرجل ، وعقب الخولى " وهى الشنشنة الحمقاء من الحكام دائما ، إذ يحسبون أنهم يطمسون الحقيقة ، ويمحون ما فى الكتب " ، مما يشير إلى اعتقاده فى صحة الحديث ،

الذى يروى فيه أنه أهدى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم " سفرجل " ، فأعطى أصحابه واحدة واحدة ، وأعطى معاوية ثلاث سفرجلات ، وقال له : القنى بهن فى الجنة ، وفى هذا مظهر فضل لمعاوية رأس الأمويين أعداء العباسيين ، فلما جاء النهى " مالكا " تلا قوله تعالى " إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون " ثم قال : والله لأخبرن بها فى هذه العرصة ، واندفع فقال : " حدثنى نافع عن ابن عمر قال : كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأهدى إليه سفرجل " الحديث .

هنا انبرى العقاد ليكشف عن أخطاء مهمة فى كلام الخولى (الأخبار ، فى ١٩٦٢/١٢/١٩) :

أولا : أن الآية القرآنية سقط منها " فى الكتاب " ، بعد " للناس " .

ثانيا : تعمد الخولى – فيما يبدو – عدم ذكر جعفر بن أبى طالب ، حيث هو الذى نسب إليه إهداء السفرجل ، فبنى الفعل للمجهول ، حتى لا تتكشف الحقيقة .

ثالثا : فقد قتل جعفر فى غزوة " مؤتة " فى شهر جمادى الأول ، ومعاوية بن أبى سفيان أسلم بعد فتح مكة فى شهر رمضان ، فبين مقتل جعفر وإسلام معاوية أكثر من خمسة شهور ، وقد نوه " الشوكانى " بذلك فى كتاب (الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة) وأكد أن هذا الحديث مكذوب .

رابعا : هناك كذب على نافع وابن عمر ، حيث أن الخبر لم يرد فى موطأ مالك ، ولم يأت له ذكر فى غير رواية " يعيش بن هشام " ، الذى أشار العقاد إلى عدد من المحققين ممن اتهموه بالكذب :

فالدارقطنى يقول عن " يعيش " إنه " يروى الغرائب " وكل أفراد إسناده بين ضعيف ومجهول .

والخليل يقول عن هذا الحديث " إنه منكر جدا " .

والحافظ الذهبى يقول إنه موضوع .

والسيوطى يقول إنه لا أصل له .

وهنا يتساءل العقاد : إذا كان جعفر بن أبى طالب قد مات قبل إسلام معاوية بخمسة شهور ، فكيف يتسنى له أن يشهد الواقعة المشار إليها ؟

وإذا رجح البعض احتمال عدم ذكر كلمتى " فى الكتاب " من الآية القرآنيـــة بأنه خطأ مطبعى ، فالعقاد يكشف أن الخولى كرر نص الآية بالصورة الناقصة ، فى موضع آخر .

ثم زاد العقاد على ما ذكر بأن قول الخولى عن " نافع " مولى ابن عمر إلى مصر " يعلم الناس الحديث وفيها مات سنة ١١٧ هجرية " ، بينما يؤكد العقـــاد أن نافعا مات بالمدينة المنورة !

وتشتد حملة العقاد على الخولى فى قضايا أخرى ، مثل ما كتبه الخولى عن موقف بين الإمام مالك وبين الإمام جعفر الصادق ، بينما كان فى الحقيقة بـــين مالك والخليفة أبى جعفر المنصور ، لكننا نكتفى بهذه الأمثلة ..

فاستخف قومه فأطاعوه* ..!

لكل شئ آفة ، وآفة الأمم أن تعيش تحت ظلال قهر واستبداد...

تصور كثيرون أن من مصائب العصر ، ظهور مرض " الإيدز " الذى يُفقد الجسم البشرى مناعته فيسقط صريع الموت ، لكن الحقيقة تقول أن البشرية عرفت ما هو أخطر من الإيدز منذ آلاف السنين ، إنه الاستبداد الذى يُفقد الأمة المناعة المجتمعية فتسقط صريعة التخلف ،وتقع فريسة الجهالة وتستسلم لتوحش المرض ..تتقاذفها الأمم وتنهب ثرواتها ، ويعيش أهلها " تحسبهم أيقاظا وهم رقود " ...

هى حكمة المولى سبحانه عز وجل أن يفطر الإنسان على نزعتين متضادتين ، هما معا سبيل نهوض واستقامة ، لكن اعوجاج منهج التعامل يحولهما إلى مرض خطير ووبال عظيم ..

فقد أودع سبحانه فى فئات من البشر نزعة إلى القيادة والترؤس ، ومهارة فى تدبير الأمور ..كل أمة بحاجة إليهم ، تدير بها الأعمال وتقود بها المصالح والأحوال ...منحهم الله حسن بصيرة ورشد رأى وحكمة فى القول والفعل ...

وأودع فى فئات من البشر نزوع إلى أن يقودها الغير وتريح رأسها من هم المبادأة ومواجهة المصاعب والمشكلات ، تفتقد الجسارة والقدرة على الصمود والمواجهة ..كل أمة بحاجة أيضا إلى مثل هؤلاء ، ينفذون الخطط والسياسات ويُسيّرون الأعمال والمهام ..

والله العلى القدير إذ خلق كل شئ بحساب (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩)) سورة القمر ، وقدر لكل أمر ميزانا (وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (١٩)) سورة الحجر ، وما أوجد شيئا عبثا

---

* نشرت بجريدة الدستور يومى ١١/٢٥ ، و ٢٠٠٧/١٢/٢

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥)) سورة المؤمنون ، يرصد لمن يحيد عن الميزان ، ويخطئ الحساب ، ويخلط الأوراق عذابا دنيويا ، دون أن ينتظر على أن يغادر الدنيا فيلقى عذاب الآخرة ، والعذاب الدنيوى عندما أن يشتط البعض فيوغلوا فى التسلط ، ويمضوا بعيدا على طريق " العُجب " بالذات ، فيكون قهرا ويكون استبدادا .

ويكون مصاب الأمة أفدح عندما يكون القاهر المستبد هو من يتولى أمرها ويتحدث باسمها ، فيكون هو العقل الأوحد والمفكر الأعظم ، يرى ما لا يراه الناس ، ويُقدّر أفضل مما يستطيع غيره أن يقدروا الأمور ، وفى النهاية يكون شعاره ...لا أريكم إلا ما أرى !

والله الذى خلق هاتين النزعتين ، خلق أمرا آخر لا يستقيم الأول بدونه ، ألا وهو تلك الحقيقة التى تؤكد أن : كما أن لكل إنسان بصمة إصبع إبهام ، فله أيضا بصمة عقل ، تتبدى فيما يطرحه من أفكار وما يصل إليه من آراء ، وما دام الأمر هكذا فمن حقى أن أرى ما لا تراه ومن حقك أن تختلف معى ، ويكون هذا الشعار الشيطانى (ما أوريكم إلا ما أرى) منافيا للفطرة البشرية وشذوذا لا بد من التصدى له ، وخطرا ووبالا لابد من التكاتف لدرء مفاسده ، وإلا أهلك الحرث والنسل ، وباء الجميع ، حتى هو ..القائل بهذا .. بالخيبة فى نهاية المطاف ، حيث لن يرى الجميع إلا دخان الحريق الذى يلتهم كل شئ ، ورماد الجهد الإنسانى على مر السنين !!

تأمل جيدا فى هذه الآيات الكريمات فى قرآن الله المجيد وهو يعدد لآل قريش ما أنعم به عليهم ، لا وحدهم ، وإنما كل البشر ، وما ذكر قريش إلا " مثالا " ، بحيث لابد من تطبيق القاعدة العظيمة : خصوص اللفظ .وعموم الدلالة : قد تكون الواقعة شخصا أو جماعة بعينها ، لكن المضمون .لكن الحكم ، يصدق على كل ما شابه المثال موضع الحديث .

أما النعمتان فهما :

أطعمهم من جوع ...

وآمنهم من خوف ..

تستطيع أن تعدد الكثير من الاحتياجات والمتطلبات ، لكن ، من بينها جميعا ، تقف هاتان النعمتان : فالأولى هى الخاصة بالطعام ، فهل يستطيع إنسان يعيش بغيره ؟

أما الثانية التى تكافئها مقامة وتقديرا وخطورة ، أن يأمن الناس من الخوف ..خوف الاعتقال ..خوف السجن بسبب عدم الرضوخ ..خوف التشريد بسبب المغايرة فى الرأى ، فماذا إذا عاشت أمة بأكملها تفتح عينيها فتجد سيارات أمن مركزى تحيط بالمكان ؟ وماذا إذا عاش صفوة المتعلمين ، ونخبة الرأى ، والعصى الغليظة فوق رؤوسهم ؟

قال " فرويد " أن الغريزة الجنسية هى أقوى النزعات الفطرية فى الإنسان ، حتى أنها لتسير الكثير من وقائع التاريخ وأحواله ، ولكن إذا قارنتها بنزوع الإنسان إلى أن يعيش آمنا ، فسوف تكسب النزعة إلى الأمن ، ودليل ذلك ، تخيل لو أن زوجا يقضى لحظات متعة فى ممارسة جنسية مع زوجته بعد طول اشتياق لأسباب ما ، وفى أثناء ذلك دوى صوت انفجار قريب منه ، فهل يستمر على طريق اللذة الجنسية أم يقفز خائفا مذعورا ساعيا إلى الأمن ؟

لقد قيل فى عبارة منسوبة للإمام على أن الفقر إذا دخل بلدا قال له الكفر خذنى معك ، والفقر هنا ليس فقر جسد وفقر معدة ولكنه فقر عام يضم كذلك فقر العقل وفقر الفكر ، ومن هنا تأتى أبشع جريمة يرتكبها الاستبداد والقهر ، حيث يمكن أن يتساءل المرء المقهور بينه وبين نفسه : كيف تسكت يا رب على هؤلاء الذين عكسوا ما تريده ..أنت الإله ، للناس , فلم يؤامنوننا من خوف ؟

ومن هنا كان هذا النفر الأول من المسلمين يفهمون رسالة الخالق ، فيعلنها رسول الله صريحة مدوية : أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر !

أرأيت ؟ أفضل الجهاد ! تأمل هذا كثيرا ، وقل لى بربك : هل يمكن أن يكون المسلم مسلما عندما يرضخ للقهر ويرضى بالاستبداد ، ويدعى أن هذا " قدر " عليه ، و" مكتوب " ؟!

وهذا هو الفاروق عمر يعنف صحابيا كبيرا مثل عمرو بن العاص لأنه انتهك كرامة مواطن مصرى فقير وأمر بأن يقتص هذا المواطن البسيط من ابن الحاكم فيضربه كما ضربه " اضرب ابن الأكرمين " ، وصاح صيحته المدوية : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟

استقرئ آيات القرآن الكريم وابحث عن كلمة العدل وما رادفها مثل " القسط " لتجد أن العدل قيمة مركزية للحياة الشخصية وحجر أساس للبنية المجتمعية .

والعدل ليس مجرد توزيع للثروة بين جمهور الناس وفقا لجهدهم وكفاءتهم فحسب ولا هو مجرد توفير فرص عمل لمن يقدر عليه ...

لكنه أيضا عدل فى توفير الأمن لجماهير الناس ، لا لمن يحكمون ويستبدون فقط .

العدل هو ألا يستأثر بالرأى قوم دوم قوم ...

إن العدل ألا نختص قوما بزرع الخوف فى قلوبهم ، وزرع الطمأنينة فى غيرهم ...

إن المستبد فى استبداده إنما يقرر بنفسه أنه غير جدير بأن يحكم من يستبد بهم ، فهم إذا كانوا قد اختاروه حاكما بالفعل ، فهذا يعنى أنهم يقدرونه ويحترمونه ويرونه أهلا لحكمهم وقيادتهم ، وهو عندما يلغى عقول من انتخبوه ويفرض ما يراه هو وحده ومن معه ، فهذا يعنى أنه يحتقر شعبه ولا يقدره ، ويتعامل معهم باعتبارهم قوما من الأغنام ، وما هو إلا راعى غنم !!

والمستبد فى استبداده يعلن عن قصور فكره ، عندما يتصور أن من يستبد بهم ويقهرهم ناقصو عقل ، ويحتاجون إلى سنين طويلة حتى ينضجوا ويستحقوا

ممارسة الحرية بلا خوف ، فالإنسان الفرد يمكن كثيرا أن يخطئ ، لكن مجموع الأمة ، إذا تداولت الرأى بينها فى أمن وحرية لابد أن تصل إلى ما هو صواب وراشد ..

والمستبد عندما يحجر على الرأى المخالف ، ويقمع الفكر المغاير ، متصورا أنه هو وحده الذى يحسن التفكير وهو وحده الذى يقدر على ما يقدر عليه الآخرون ، يقع فى خطأ كبير ، خطأ الجهل بحقيقة نفسه وتقدير ذاته ، لأن هذا إنما يعكس صورة واضحة من المرض النفسى ... إذ من المستحيل أن يستقيم تفكير يرى الخطأ لدى الجميع ، والصواب لديه وحده ، حتى لو ضممنا معه حراسه وحُجابه والمنتفعون به ..مئات ، بينما الآخر هذا يكون ملايين من الناس ، منهم المفكرون وكبار المتعلمين والمثقفون ، وخبراء العمل .

والمستبد يحرص فى انتقائه لأعوانه أن يكونوا من هذا الصنف الذى يرى ما يراه ، ويحب ما يحب ، ويكره ما يكره ، حتى ولو كذبا ونفاقا ، يتبننون فلسفة تقوم على المثل القائل : إذا دخلت بلدا ورأيت أهلها يتعبدون عجلا ، " حش " وارم له ...

ومن هنا فإن تكاثرهم حوله لا يعنى بالضرورة " تعددا " فى الرأى وتنوعا فى وجهات النظر ، وإنما يصبح التشاور والتحادث هنا مماثلا لما يكون بالنسبة لأكل الفول فى مصر ، فهو يطبخ " مدمسا " ، وطعمية " و فول " حراتى " يؤكل خضرا من غير طهى ، ويطبخ " بصارة " ، كما يمكن أن يسوى " فول نابت " ..وهكذا تتعدد الأشكال وتتنوع الصور ، لكن الجوهر واحد !

وبمرور الأيام وطول فترة البقاء يتكاثر الحُجاب ، ويزيد المستشارون ، فكأن كل واحد منهم " جدار عازل " يحول بين المستبد وبين الناس ، فلا يصل صوتهم إليه ، فإذا ما كان هناك تنظيم يسمح بأن يرسل الناس رسائل إليه ، فإنها تمر بسواتر عدة ، ومتاريس متنوعة ، وجُدر عازلة ، فتتم عمليات تنقية وترشيح وتطهير من كل ما يمكن أن يسبب للمستبد إزعاجا ، فيزيد المستبد فى

عزلته ، ويصبح كمن سجن نفسه داخل قاعة خالية تماما من أى شئ ، يتحدث فلا يسمع إلا صوته وقد ارتد إليه من بعيد فيتوهم أنه يسمع تأييدا ، ويلمس آثارا لما يقول مؤازرة .

أو هو كمن يعيش فى قاعة غطت جدرانها بالمرايا الضخمة الصافية ، إن أدار وجهه يمينا لا يرى إلا نفسه ، وإن أدارها يسارا فسوف يرى نفسه ، لكن طوال الفترة ، وتكرار المنظر يوهمه بأن هذا الذى يراه فى المرآة ليس صورته هو ، بل صور آخرين ، من شدة حبهم له وولائهم ومؤازرتهم – كما يتصور – يخيل له أنهم أصبحوا على صورته ، فيزداد رضا بالحال القائم ، ويستمر فى تمسكه بموقعه ، ولا يتصور إمكان أن يجئ يوم لا يستمتع فيه بهذا الذى يجرى من حوله من خير خاص ، وهو يرفل فى نعيم مقيم !.

وإذا كان الإعلام كما كتب علماء التخصص وكما يقرر باحثوه ، يعبر عن احتياجات الناس المادية والمعنوية ، فإنه فى حال الاستبداد يكون صوت المستبد لدى الناس ، فيحرص على زرع نفس العجينة المماثلة لحراسه وحُجابه ومستشاريه : يكون موقفهم هو الترديد والتكرار لما يرى وما يقول ..تكون الوظيفة هى الشرح والتبرير والتسويغ والتزيين والتجميل وما سار على هذا النهج ، وبمرور السنين والأعوام يألف الناس ذلك حتى يرى صغارهم عندما يكبرون ، أن ذلك من طبائع الأمور ، وأن من يخالف هذا النهج موتور يجب الحجر عليه ، وأن أى جماعة تفكر فى نهج غيره لابد أن تخضع للإقصاء والاستبعاد .

وما لا يقل عن ذلك أهمية يحرص الإعلام تحت ظلال الاستبداد والقهر أن يُسَطح العقول حتى لا تتنبه إلى ما هى فيه من سوء حال ، فتُحجَب الأعمال الجادة النظيفة ، ويكون إلحاح على الأعمال التافهة ، والأغانى الهابطة ، والأدب الرخيص ، والمسرح المسف ، فتعلوا أسعار ما يهبط بالناس ، وتبخس أثمان ما يرتفع بهم ، فتروج ثقافة الانحلال والخنوع .

وإذا كان المثقف هو " ضمير " الأمة ، كما يُجمع المختصون ، لكن الضمير أيضا يمكن أن يتم تزييفه ، فيسعى المستبد عن طريق حُجابه وأعوانه ومستشاريه وحراسه إلى القيام بعملية فرز للمثقفين وفق معايير مزيفة ، حيث يماثل الموقف القول الشعبى الشهير : دى سكة السلامة ، ودى سكة الندامة ، ودى سكة اللى يروح ما يرجعش !!

فالموالى ، إلى سكة السلامة ..

والمغاير إلى سكة الندامة ...

والمقاوم إلى سكة اللى يروح ما يرجعش !!

ويصبح المثقفون من الموالين مثل هؤلاء الشعراء الذين كانوا يقفون فى الماضى بأبواب الخلفاء والسلاطين ينشدونهم شعرا مادحا لهم إلى درجة التأليه ، وزرع فكرة أن هذا المستبد لا مثيل له ، مثل هذا الذى قال لحاكم :

إنك شمس والملوك كواكب   إذا طلعت لم يبد منهن كوكب !

فحال انتهاء من قصائد النفاق والتزوير ، يرمى له بـ "صُرّة " من الدنانير ، التى تعددت صورها وتغيرت ، فى عصرنا الحاضر ، فهى لم تعد تبدو فى هذا الشكل القديم الصريح ، وإنما لها اليوم أشكال أخرى تتبدى فى مواقع عالية ، ومكافآت سخية ، وسفريات متعددة ، وظهور متكرر فى أجهزة الإعلام ، وفى إضفاء أوصاف ضخمة ، مثل " المفكر الكبير " و " الكاتب الكبير " ، وتجند له قوى تكتب عنه وتشرح آراءه وأفكاره ، وينوه بكل ما يكتب ، باعتباره صوت العصر وفريد الزمان . كما تهبط عليه الجوائز الكبرى اعترافا بفضله وتقديرا لعلمه ، وإشادة بفكره .

وعكس ذلك تماما بالنسبة لمن بقى مستيقظ الضمير ، يرفض الانحناء ويفضل قولة الحق ، فها هنا المصير المظلم : الإقصاء والاستبعاد والحرمان والاضطهاد ، هذا إذا رأفوا به ، أما إذا زاد فى مغايرته وأصر على ما يقول وقاوم ، فلربما أُلبست له تهم ، وألصقت به موبقات ، حتى إذا رُمى به فى

غياهب السجن ، لا يبدو أمام الناس شهيد فكر وضحية رأى بل إنسانا ملوث الأخلاق ، حمى المستبد المجتمع من شروره وموبقاته ...

أعرف شخصا صدر عنه نقد لاذع لبعض ذوى الشأن فى مكان ما من الوطن العربى ، وبعد سنوات أُغرى بالعمل هناك وظن أن ما مضى مما كتب قد ووري التراب ، وعندما استقر فى المكان المأمول ، حادثه طالب بأنه يريد زيارته فسمح له ، فما أن انتهى من شأنه وخرج إلا وجمع من العسكر يقتحمون البيت متهمين الرجل المسكين بأنه تلقى رشوة من الطالب ، وكان الطالب قد تركها عمدا فى كيس تركه على مقعد لم يره الرجل ..وكانت كارثة حقا : رُمى بها فى غياهب السجن بتهمة الرشوة وفصل من عمله ، وعاش ملوثا أمام الناس لا يستطيع أن يثبت أنه لم يكن كذلك ؟!

وسمعت عن رجل آخر كان يعمل فى إحدى الدول ، وكان الرجل مجتهدا فى عمله مستقيما أمينا ، لكن ، لسبب لا أذكره ، كان يراد التخلص منه ، فماذا كان التصرف ؟ ساقوا إليه فتاة دخلت مكتبه فجأة مغلقة الباب بسرعة خاطفة ، ثم شدت قميصها ممزقة له ، لتقف خارج المكتب صارخة طالبة النجدة من محاولة الرجل المسكين التحرش بها ، وعجز الرجل بطبيعة الحال أن يثبت براءته ، ولصقت به التهمة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، حتى أصبح المغايرون يرددون مع يوسف عليه السلام (قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ... (٣٣)) سورة يوسف .

ولأن المستبد جاء كرها وبقى كرها ، يعيش رعبا ويحيا خوفا ...رعبا من أن يستيقظ الناس فيسعوا إلى إزاحته ، وخوفا من أن تزول آيات نعيمه ، فيكثر من الجند الذين يحرسونه ، وإذ يستمر ويبقى ، يزداد خوفه وينمو رعبه ، فيزيد بالتالى من جنده وحراسه ، بل ويحصل لجنده وحراسه آخر ما وصلت إليه التقنيات الأمنية ، حتى يطمئن فى سرير نومه ، ما دام حراسه قد أصبحوا يسمعون دبة النملة ، ويسترقون السمع لمن أغلق بابه على غرفة نومه ،

وتصور أنه فى حضن زوجته يمكن أن يُسر إليها بأحلى ما يريد أن يقول ، بعيدا عن الأعين والنظرات ، وبما تهوى هى أن تسمع ، بينما كل ما يقول يمكن أن يصل إلى السجان الأعظم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله !

ولما كانت الظروف تقتضى فى بعض الأحوال تفقدا لمواقع ، ومرورا بأحوال ومواقف ، يخيل إليك وأنت ترى الجند والحراس والعتاد والإجراءات والكلاب البوليسية وقطع الطرق ، وتوقيف أى مظهر من مظاهر الحياة ، أن يوم القيامة قد حل لا محالة ، أو أن الوطن قد تعرض لخطر عظيم يستأهل أن تحشد له كل هذه القوى وكل هذا العتاد ، ويكاد الناس يُؤمرون بأن يحبسوا أنفسهم ، فلعل الزفير يملأ الجو من ثانى أكسيد الكربون ما يلوث الأجواء على المستبد الكبير ، والقاهر العظيم !!

ولأن المستبد لا يعتمد على حراسة جماهير شعبه وإنما على جنده الخاص المأمور ، يتطلع إلى حماية خارجية من قوى كبرى ، وتعرف مثل هذه القوى حقيقة الحال ، فتبيع وتشترى وتساوم ، وتلتقى حاجات الطرفين ، فإذا به يسمع ويطيع ، ويعطى لهذه القوى الكثير مما تريد ، حتى ولو كان ذلك من دماء شعبه المقهور ، وجماهير وطنه الأسير المخطوف ..ودائما هناك الإعلام المسوغ ، والمثقف المبرر ، ما دامت أنهر المال مستمرة فى التدفق .

ثم إذا بك ترى عجبا فى صورة التحالفات والمخاصمات ، فإذا كان من معايير الحكم الرشيد أن يعرف حقيقة العدو وحقيقة الصديق ، تجد الآية معكوسة ، فأعداء الأمة يصبحون هم أصدقاء المستبد ، وأصدقاء الأمة يصبحون هم الأعداء ، ويسعى الإعلام والمثقف المزيف إلى تلويث صورة أصدقاء الأمة وتجميل صورة أعدائها !

وحتى تتجمل صورة المستبد ، فلا بأس – أحيانا – وبعد أن تظهر صحف وقنوات تلفاز صور حال بائس ، أو وضع مأساوى ، من بين ملايين حالات مماثلة ، يهبط من عل هذا الحل السحرى الذى تمتلىء به حكايات ألف ليلة

وليلة ومصباح علاء الدين والشاطر حسن : سيدنا الحاكم أمـر بكـذا وكـذا ، تفريجا لكرب ، وإهداء لمحروم ، فيبدو أنه الحاكم العدل والمنقذ من الهـلاك ، وتنتهزها فرصة مواكب ضاربى الدف وكدابى الزفة ليدبجوا المقـالات مـدحا للعمل العظيم ، مع أنه لا يدفع قرشا من جيبه ، ولو كان للعدل مكان ، ما حدث ما حدث من ظلم ، ولو كان حكم رشيد ، لتولت جهات الاختصاص الحل ، ولو كانت دولة مؤسسات ، لتكفل التنظيم بسيناريوهات حل لمثل هذه الحالات .

ولو كان الأمر أمر فرد يحكم ، وحاكما يستبد لربما قيل أنـه بالـضرورة مؤقت ، فلا أحد يعيش إلى ما شاء الله ، والموت ، مثلما هو كارثة للبعض فهو قد يكون رحمة لآخرين ، وإنما المشكلة فى أن طول بقاء المستبد واسـتمراره يتيح لنظامه وما يوفره من أجواء ، الفرصة لتفريخ وتصنيع مستبدين صـغار يتولون أمر مواقع أخرى ، ليروجوا نموذج القهر والاسـتبداد ، فـإذا بعمليـة استنساخ واسعة النطاق ، تتسع دائرتها بطول بقاء المستبد واسـتمراره ، فـإذا بالوزير يتحول إلى مستبد فى وزارته ، وإذا بمدير الإدارة يصبح كذلك ، حتى تصل إلى الوحدة الأولى للمجتمع ، الأسرة فيصبح الزوج فى الغالب ، وأحيانا الزوجة هى نائب المستبد الكبير .

كنت صغيرا ألعب مع صغار مثلى وكان لزميل أب مستبد قاهر ، يحرص على كثرة ضرب زوجته ، ويسب لها الدين كل صباح بصوت عال ، فإذا بنـا مرة ونحن نختلف ونتعارك ، أن صاح هذا الزميل ، ابن هذا الأب المـستبد ، وكنا مساء : الله يلعن ...عالصبح ! لقد تقمص شخصية أبيه فقلده فى استبداده ، حتى ولو اختلط لديه الصباح بالمساء !!

وكما يكثر المستبدون ويستنسخون ، يكثر الخانعون ويستنسخون ، فـإذا بالجمهرة الكبرى من الأمة تصير مثلها مثل النعاج : فما دام الطعام متـوافرا وكذلك المأوى ، فماذا يهمنا بعد ذلك ؟ ويكثر المنـافقون مـن مـدح العهـد وديمقراطيته ، وما دروا أنها حرية نباح ، ديموقراطية قطيع الأغنام ...

وهكذا تشيع اللامبالاة بين الناس ، ويصبح الحل الفردى شعارا وفلسفة لكل مواطن ، يجرى كل منهم صائحا لزميله : انج سعد فقد هلك سعيد ... أما الهموم العامة ، وأما المشكلات الكبرى ، فهناك " المستبد الكبير " الذى يبصر مالا نبصر ، ويشعر بما لا نشعر ويفكر بما لا نستطيع أن نفكر فيه .

ولا يقف المصاب عند هذا الحد ولو أنه عظيم ، وإنما تصبح الأمة ساحة واسعة لاستزراع قيم النفاق أملا فى الحصول على منفعة ، وتبذر بذور الجبن ، خوفا من عقاب ينزل ، ويشيع ضعف الثقة بالنفس ، إذ تمر السنون والمواطن المقهور لا يشارك برأى ، ولا يستنار بفكره فيقر فى ذهنه أنه قد ولد " مخصى العقل " معقود اللسان .

وعندما يركن الناس لما يعيشونه ويستسلمون فأذن بغضب من الله ...هنا تنتفى الحدود بين عالم اليقظة وعالم الأحلام ، بين عالم الأحياء وعالم الجمادات ، عالم الإنسان وعالم الحيوان : ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢)﴾ !! سورة الحج .

عذاب الرواد وآلام المبدعين *

ليس غريبا أبدا أن نسمع ونقرأ ونشاهد العديد من صور العذاب والمعاناة التى يعانيها كل من يرتادون طريقا جديدا فى مجال من مجالات الحياة ، ففى مضمون "الريادة " نفسه ، معانى اقتحام المجهول ، مع ما يترتب عليه عادة من " مفاجآت " ، كثير منها يكون مؤلما ٠٠

لكن الغريب حقا ، وإن شئت فقل أنه من المؤلم فعلا ، أن نرى مبدعا يسير على طريق نثرت عليه الأشواك ، على الرغم من أنه هو الذى يقوم بدور ناثر الورود والرياحين على كل من تتح له فرصة التعرف على صور إبداعاته ، وإن كان هناك من يؤكد أن " المعاناة " و " المشقة " و "الآلام " التى يكابدها المبدع ، هى المفجر الحقيقى لصور إبداع المبدع ، إلى الدرجة التى جعلت أصحاب وجهة النظر هذه يؤكدون كذلك أن حياة المبدع ، لو سارت هادئة هنية ، تخلو من التحديات والمشكلات ، فإن هذا من شأنه أن يخفض من قيمة إبداعات المبدع ، وكأن المشاق والعذابات بمثابة النار التى تنضج الطعام !

وباحثة البادية ، ملك حفنى ناصف ، هى واحدة من هؤلاء الذين كسا حياتهم الكثير من العذاب وما قد يصل إلى حد الفيضان من الحزن ، ومع ذلك ، فإن نبع إبداعاتها ظل يتدفق ، يروى ظمأنا إلى فكرها ورؤاها ٠

ولابد لى أن أعترف بأنه من بين أسباب عدة صرفتنى عن أن أكتب عن هذه السيدة ، هو أننى لابد مار بوقت عصيب سوف تعتصرنى فيه آلام ، عندما أعاود الاطلاع على بعض من سيرة " ملك " ، نتيجة ما نثر فى طريق حياتها من أشواك ، وما عانته من آلام تناولت بُعدى الشخصية ، البعد الجسمى ، والبعد

---

* مقدمة لرسالة كنت قد ناقشتها فى تربية بنها عن ملك حفنى ناصف ، وأعدت لتصدر كتابا ٠

النفسى معا ٠ ومع قسوة من عانته من آلام جسمية ، كانت تردد أنها تهون أمام ما قاسته " نفسيا " ٠

كان ميلاد " ملك " فى الخامس والعشرين من ديسمبر عام ١٨٨٦ ، فى زمن أحاطت بالمرأة فيه مفاهيم وتقاليد وقيم أصابها ما أصاب المجتمع كله من تخلف وجمود ، لكن وقعها على المرأة كان أشد وأقوى وكأنها " الجدار المائل " الذى علق عليه المجتمع أسباب فشله وجموده وتخلفه ، فكما يروى بعض الرحالة عن أوضاع المرأة فى الطبقة المتوسطة ، وخاصة شرائحها العليا فى أواخر القرن التاسع عشر ، كانت تسير فى الشارع وكأنها خيمة متحركة يفتقد منزلها مظاهر الذوق والجمال والنظام ، مركز اهتمامها هو إعداد الطعام الذى يملأ أفواه أعضاء العائلة ، تشاركها فى المنزل " ضرائر " كل منهن تتربص بالأخرى ، تريد أن تكون هى المحظية ، الفائزة بقلب الزوج ، وسيف الطلاق ، ربما لأقل هفوة ، مسلط على رقبتها ٠

٠٠٠ولا تنسى أيام طفولتها - المرأة عموما - وكيف جاءت - فى أغلب الأحوال - على غير رغبة من والديها ، فعلى الرغم من كل ما بشر به الإسلام من قيم عدل ومساواة ، وتقدير ، عادت بعض اتجاهات الجاهلية لتجلس " الذكر "مكانا عليا على " الأنثى " ، وفيما يبدو ، فإن طبيعة المجتمع الزراعى ، وما سادته من أساليب إنتاج وقواه ، حيث الاعتماد على العمل اليدوى الشاق ، ولّد الحاجة إلى كثرة الأولاد الذكور للمشاركة فى مثل هذا العمل ٠

كان حظها ، من حيث المناخ الأسرى عظيما ، وكيف لا وقد ولدت لأديب كبير هو " حفنى ناصف " الذى عمل مدرسا فى مدرسة الحقوق ،والتى كانت من المدارس العالية ، وموظفا فى القضاء والنيابة ، ثم مدرسا بالجامعة ، ومشاركا فى تأسيسها ، ومؤسسا للمجمع اللغوى ، وغيره من الهيئات العلمية والثقافية ، فضلا عما عرف به من إبداعات أدبية ٠

ويبدو أن بداياتها على طريق الأدب والفكر ينبئنا بما سوف تواجهه فيما بعد

من عذابات ، فها هى تسجل فى حواراتها مع الأديبة اللبنانية الشهيرة " مى زيادة "على صفات جريدة (المحروسة) :" أول ما حفظت من الشعر : المراثى ، وأولها رثاء الأندلس " ... أشعار الأحزان والدموع والبكاء ، كانت اللبنة الأولى فى بنية الفكر لديها !!

لكن ما يُطمئن القلب حقا ، هو أن الرثاء كان بدوافع وطنية ، وقومية ..ضياع الأندلس .

وتتابع وطنيتها ، فإذا بها تعلن نقدها وحزنها على ما شهدته مصر عام ١٩٠٩ من وضع أول قيد على العقل المصرى فى التفكير والنشر المتمثل فى قانون المطبوعات ، فتقول :

يا أمة نثرت منظومها الغير حتام صبر ونار الشر تستعر

ماذا تقولون فى ضيم يراد بكم حتى كأنكم الأوتاد والحُمُر

كذلك تندفع إلى الاتصال بزميلاتها من البنات لتحضهن على التعليم ، حتى تسهم بذلك فى نفض غبار التخلف من على المرأة ، وتدفع بها إلى خضم الجهاد الوطنى على صعده المتعددة .

ولم يفت فى عضد وطنيتها أن المدرسة الحكومية الوحيدة التى كانت قائمة لتعليم البنات فى مصر ، مدرسة السنية ، كان التعليم فيها باللغة الفرنسية ، ثم تحول إلى اللغة الإنجليزية ، لكنها كانت تستعين بأبيها فى تعلم العربية ، وتحرص على قراءة عيون الأدب العربى القديم .

ومثلما كانت أول فتاة تنال الشهادة الابتدائية ، فإنها بعد أن واصلت التعلم بقسم معلمات السنية ثلاث سنوات ، كانت أيضا أولى الناجحات ، وكن ثلاث طالبات فقط .

كانت نقطة التحول حقا فى حياتها تلك الزيجة التعسة التى وقعت فى هوتها ، حيث حبست كما تحبس غيرها من النساء اللاتى لم يحصلن على قدر من التعليم وهى التى كانت قد بدأت تكتب المقالات وتقرض الشعر الذى يطلع عليه ألوف

القراء على صفحات الجرائد والمجلات ، وعاشت تحت سطوة جور مفاهيم وتقاليد قاسية مظلمة ظالمة ، تتعامل مع المرأة وكأنها " مملوك " يفتقد مشاعر الإنسانية وأبسط حقوق الإنسان ، وكان من شأن هذا أن يسرب مشاعر يأس وقنوط ، وهبوط لهذه الروح المتوثبة للعطاء الفكرى ، فى وقت لم يعهد أحد فيها من قبل ، مدة قرون طويلة خلت ، أن يرى امرأة مثلها تنثر رحيق فكرها وورود أدبها على العالمين .

وعلى الرغم من أنها جاءت لتخطو بالمرأة خطوة تاريخية إلى أمام ، لكنها كانت على وعى عجيب ، بأن التقدم لا يعنى قطع الصلة بالجذور ، وأن مراحل التطور الاجتماعى متتابعة متصلة ، ففي الوقت الذى لا ينبغى فيه الانحباس فى قوقعة القديم ، فلا ينبغى " العدو " قاطعين الروابط بين اللاحق والسابق من الجهد الثقافى لمفكرى الأمة وعلمائها .

ولعل هذا يفسر كيف أنها لقت ترحيبا وثناء وإشادة من أطراف ألوان الطيف الثقافى المصرى فى أوائل القرن العشرين ، سواء من أنصار القديم ، أو من أنصار الجديد ، ففى الوقت الذى كتب فيه لها الشيخ حسين والى الذى كان وكيلا للأزهر " أرانى كتبك علم عائشة بنت الصديق ، وأدب سكينة بنت الحسين ، وأذكرنى عهد الحضارة الإسلامية " ، يكتب الدكتور شبلى شميل : " علمها الواسع لم يبق فى رأسها عقيما كما هى الحال فى رءوس أكثر رجالنا حتى اليوم ، وكأنها فى ذلك سلكت مسلك داروين نفسه فى العلوم الطبيعية ، إذ حصر الخلق فى أصول قليلة ، تفرعت منها الأنواع الكثيرة بعد ذلك بالنشوء والتحول حذرا من تصعيب المطلب على أصحاب الحق أنفسهم . "

وقد نقل تشارلز آدم فى كتابه عن (الإسلام والتجديد فى مصر) ، والذى ترجمه عباس محمود ، عددا من الأفكار الأساسية التى نادت بها والتى كانت ترى أن الأخذ بها يمكن بالفعل أن يخطو بمصر خطوات واسعة نحو النهوض الحضارى المنشود ، عن طريق تحويل المرأة من طاقة إنسانية مهملة إلى طاقة

فعالة ، مثل :

١- تعليم البنات الدين الصحيح ، أى تعاليم القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة.

٢- تعليم البنات التعليم الابتدائى والثانوى ، وجعل التعليم الأولى إجباريا لجميع الطبقات.

٣- تعليم التدبير المنزلى عملا وعملا ، وقانون الصحة ، وتربية الأطفال والإسعافات الطبية الوقتية.

٤- تخصيص عدد من البنات لتعلم الطب بأكمله ، وكذلك فن التعليم حتى يقمن بكفاية النساء فى مصر .

٥- إطلاق الحرية فى تعلم غير ذلك من العلوم العالية لمن تريد ، ما دامت قادرة على ذلك عقليا .

٦- تعويد البنات من صغرهن الصدق فى القول والجد فى العمل والصبر وغير ذلك من الفضائل .

٧- اتباع الطريقة الشرعية فى الخطبة ، فلا يتزوج اثنان قبل أن يجتمعا بحضور محرم .

ولا أريد أن أسترسل فى بيان بعض أفكارها ، لكن يكفى أن أشير إلى هذا الجزء من خطبة مبكرة لها ألقتها على جمع من النساء بدار " الجريدة " التى كان يرأس تحريرها أستاذ الجيل الشهير " أحمد لطفى السيد " ، حيث أشارت إلى الدعوة التى يرددها الرجال بأن النساء خلقن للبيت ، وهم خلقوا للمعاش " فليت شعرى : أى فرمان صدر بذلك من عند الله ؟ ومن أين لهم معرفة ذلك والجزم به ولم يصدر به أى كتاب ؟ " . وإذ أقرت بما يقضى به الاقتصاد السياسى من توزيع الأعمال ، أكدت أن اشتغال بعض النساء بالعلوم لا يخل بذلك التوزيع " وما أظن أصل تقسيم العمل بين الرجال والنساء إلا اختياريا " .

صحيح أن كثيرا من أفكار " باحثة البادية " ، مفكرتنا " ملك " ، قد تحقق فى

حياتنا المعاصرة ، ولم يعد جديدا الآن ، إلا أن قارء اليوم ، وهو يقرأ عن فترة تاريخية مضت ،لابد له أن يقيس مايقرأ فى سياقه الثقافى ، وهو عندما يفعل ذلك ، يشعر بأنه أمام سيدة عظيمة ، وأديبة كبيرة ، وقيمة فكرية تستحق أن يُكتــب عنها الكثير ، أكثر من مرة ، وتستحق من القارئ أن يحمد الظروف التى تهيئ له أن يقف على بعض من سيرة هذه السيدة العظيمة حقا ، التى تألقت في سماء الفكر العربى ، مع ما شاب حياتها الشخصية من عذابات وآلام .

الدماء السوداء*٠٠!

من خصائص الدم كما هو معلوم للقاصى والدانى أن يكون أحمرا ٠٠٠تلك حقيقة لا شك فيها ٠٠٠

لكن عندما يسيل هذا الدم إعلانا عن غفلة ، وتأكيدا لخيبة ، وزرعا لفتنة ، ونشرا لفُرقة ، فإنه لا يكون دما بشريا من هذه الدماء التى نعرفها ٠٠٠

كم من دماء سالت على أرض العرب والمسلمين منذ أن بشّر رسول الله صلى الله عليه وسلم العالم بدين الحق وكان سيلانها دفاعا عن دين الله ، ونشرا له وتأكيدا ، وما أن مرت عقود تقل عن أصابع اليد الوحدة ، حتى بدأت الدماء تسيل ، لا بيد أعداء وكفرة ، ولكن بيد مسلم ضد مسلم ، فيما عرف بالفتنة الكبرى ، والتى كانت بداية زرع لعوامل شقاق لم تمحها قرون التاريخ بل نمت وزادت تجذرا ٠

لكن المسلمين فى معظم حقب تاريخهم ، إذا جوبهوا بيد خارجية تبغى القتل والاستغلال ٠٠٠تنشد النهب والسرقة ، نسوا ما بينهم من خلاف واجتمعوا وتآزروا دفاعا عن دين الله وأهل دين الله والأرض التى تقام عليه شعائر دين الله ٠٠٠وكان ذلك ظاهرا فى كثير من فترات ما عرف بالحروب الصليبية ٠

كان ذلك مصداقا لتأكيد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن المؤمنين ، مثلهم فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى ، وهو ما يلخص الفلسفة الأساسية التى يقوم عليها ما يسمى فى عصرنا الحاضر بالفكر المنظومى ، أو منهج النظم ٠

لكن ، ما بال قومى اليوم ، إذا كانوا لا يجرءون على مناقضة حديث رسول الله قولا ، فهم يفعلون ذلك تطبيقا وتنفيذا ، ولو شئت مثلا ، فما عليك إلا

---

* نشرت بجريدة الوفد فى ٢٠٠٧/٦/٢٣

أن تدير البصر فى بعض البقاع الإسلامية وسوف ترى ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ٠٠٠دماء غزيرة إسلامية تسيل ٠٠٠

لا يُسيلها غاز أو محتل ، ولا يُسيلها قاهر أو لص ٠٠وإنما يُسيلها مسلمون يظنون أنهم يؤمنون بألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فكيف يتسق هذا مع ذلك حقا ؟

لا أملك حق تكذيب إيمان أحد ، فالله وحده صاحب الحكم فى ذلك ، ولكنى أريد أن أفهم معنى القول ألا إله إلا الله ؟ فوحدانية الله يترافق معها وحدانية ما يأمر وما يرشد ، وما ينهى عنه ، وما يأمر به ، يستحيل أن يكون من بين هذا أن يقتل المسلمون بعضهم بعضا فى ظل احتلال قاهر مستغل ، وتحت أنظار عدو فاجر ٠٠

أدر البصر حولك فى العديد من البقاع ٠٠٠

فى دارفور ، بالسودان ، ذلك الإقليم الشاسع الذى يعادل مساحة بعض الدول ، تجد مسلمين يقاتلون مسلمين ٠٠

على الفور ، سوف يقول قائل : أنها اليد الخفية التى تمد هذا الطرف بالسلاح ، وتحثه على المخالفة والعصيان ،وتفشل كل محاولة للصلح والاتفاق ، فأجد نفسى متسائلا باستنكار : وأين ذهبت هذه العقول التى ركبها المولى لنا فى أدمغتنا حتى نفهم ونحلل ونفسر ونربط ونعلل ، ثم نقرر ؟

ثم نتساءل كذلك :

وأين كان القادة المؤتمنون على مصالح العباد ، طوال فترة حكمهم من مجابهة ما يعانيه الناس من الجوع والفاقة ؟

وأين كان القادة المؤتمنون على مصالح العباد على القيام على شئون الناس وتحسين أحوال معيشتهم ؟

وأين هؤلاء الحكام الآخرون المشاركون فـي العقيـدة واللغـة والتـاريخ والمصالح ، والذين لابد قد سمعوا هذا الذى قال به رسول الله صلى الله عليـه وسلم من تضامن واجب على المسلمين وتآزر فى السراء والضراء ؟

وعلى أرض فلسطين ..هذه الكارثة المفزعة التى لا تقل فى نظرى عن كارثة الاحتلال الصهيونى نفسه ، أن يداس بالنعال على ذلك المبدأ الذى كـان مثار إعجابنا بأهلنا على أرض فلسطين ، حيث كانوا يعتبرون " الدم الفلسطينى " خطا أحمر بالنسبة للاختلافات الفلسطينية الفلسطينية ، فإذا بما يسيل من دماء فلسطينية فى الأيام الأخيرة قبل كتابة هذا المقال فى أيـام معـدودات ، بأيـد فلسطينية يفوق المعدل المماثل عندما يكون هناك اعتداء إسرائيلى علـى أرض فلسطينية .

كثير من المؤشرات تنبئ بأن قوى عربية حرصت على تعزيز شأن " فتح " ومدها بالأموال والسلاح ، حتى تتكسر شوكة " حماس " ، التى خشوا أن يؤدى نجاحها فى الانتخابات إلى انتشار هذا النموذج المزعج ، فى الوقت الذى عملت فيه هذه القوى على قطع " الماء والنور " – إذا صح هذا التشبيه – عن حماس ...

ونعلم أن عناصر كثيرة من فتح التى نعمت بالـسلطة وأنـساها الموقـع والمنصب والمال الكثير أيام الكفاح والنضال ، وعز عليهم أن يضيع عليهم كل هذا بعد ما نجحت حماس ، فشاركوا فى غرس العقبات ووضع المتاريس ...

لكننى فى الوقت نفسه لا أستطيع أن أمنع مشاعر حسرة وآيـات حـزن ، وقطرات دموع ألم وأنا أشاهد على شاشات التلفاز ملثمين يمـسكون بالبنـادق والمدافع الرشاشة يجرون هنا وهناك مهللين باعتبارهم قد انتصروا واسـتولوا على كذا وكذا من مواقع ومقار ، لم تكن فى أيدى يهود وصهاينة وإنما كانـت فى أيدى فلسطينيين آخرين !

طوال العقود الماضية ، ونحن جميعا نحمل أكثر ما يكون من تقدير وأشد ما يكون من إعجاب للثورة الفلسطينية التى لم يواجه شعب مثل ما واجه شعبها ، من الأعداء والأقرباء (!) ، وتمر عشرات السنين ، وهذا الشعب العظيم يصر على مواصلة الكفاح والنضال ، واستطاعت الانتفاضة عبر سنوات أن تحصد الكثير من آيات التقدير والإعجاب والتعاطف ، لكن كل ذلك ، على وشك أن يضيع لتحل محله مشاعر أخرى مناقضة لا أريد أن أسميها ، إذ من المؤكد أن كل نقطة دم فلسطينية تسيل ، تساعد فى تعزيز موقف الاحتلال وتقويه ، ومتى ؟ فى وقت لم تشهد فيه إسرائيل حكومة بمثل هذا الضعف ، ولم تشهد فيه إسرائيل مشاعر مرارة لهزيمتها على يد حزب الله مثلما شهدت فى الشهور الأخيرة !

أما العراق ، فحدث عنه لا وحرج ...

أنباء مكررة يوميا عن دماء تسيل ومنشآت تدمر ، وأموال تبدد ومساجد تنسف ومزارع تحرق وجسور تهدم ، لا بأيدى الأمريكيين قادة الاحتلال ، ولكن بأيدجى عراقيين ..حقا لا أدرى كيف نصف هذا وذاك ؟

مرة أخرى ، أعلم علم اليقين ما سوف يبادر به البعض من الإشارة إلى " الأيدى الخفية " ، وأنا أصدق هذا ، بل ومتيقن منه ، ولكن يظل التساؤل : وأين عقولنا نحن ؟ وأين إيماننا نحن ؟ وأين وطنيتنا نحن ؟

الرياح يمكن بالفعل أن تعصف بأشجار ، لكن الأشجار الراسخات ، لا تسقط بسهولة أمام العواصف ، والتى تسقط هى غير " المتجذرة " بقوة فى الأرض ..

لست من الساخرين بنظرية المؤامرة ، بل أومن بها ، ولكن فى حدود ، فالإنسان الضعيف ، الإنسان مختل التفكير ..الإنسان المهزوز ، هو الذى يسقط بسرعة تحت ضربات التآمر ، وهو الذى ينهار بسرعة تحت وطأة الدس والوقيعة .

وهذه أيضا لبنان ، وهى أقدم المناطق العربية وقوعا تحت وطأة التآزر بين قوى خارجية حتى تظل مضطربة متنازعة ، لأنها كانت أكثر من غيرها مرشحة لأن تكون منارة حرية وديموقراطية والعيش المشترك رغم التباين الحاد بين العناصر ، إذ أنها لو سكنت فيها الأحوال ، واستقامت على طريق الحرية والديموقراطية بالفعل ، فسوف يكون ذلك " نموذجا " يمكن أن يحتذى به ، ومن ثم تصبح وبالا على باقى دول المنطقة التى تقع تحت نير مجموعة من " الوكلاء " الذين أنابتهم القوى المهيمنة فى قهر بلادهم .

لقد عشت يوما كاملا فى مخيم نهر البارد الفلسطينى منذ عامين ، وعايشت ما يصعب تصوره من صور فاقة وبؤس ، فهل صحيح يمكن أن يرفع مسلم راية الإسلام وهو يسير فى طريق ينتهى بالمخيم إلى هذه النتيجة المأساوية ؟ لو كان المخيم محتلا من قوى أجنبية لفهمنا ، ولو كان ..ولو كان .. لفهمنا ، أما أن يحدث ما يحدث ، ولبنان على شفا حفرة من نار فتنة تلحقه بالعراق ، فتلك حلقة أخرى تضاف إلى مسلسل الدماء الإسلامية والعربية التى تسيل بيد العرب والمسلمين ، لا بيد أعدائهم ، لذلك فهى دماء سوداء تستجلب اللعنة والاحتقار على كل من يُسيلها !!

إن الأسباب واضحة وضوح الشمس ، فقد فطنت قوى الهيمنة إلى تلك الحقيقة القديمة ، والتى ، رغم قدمها ، فما زال هناك بيننا كثيرون غافلون عنها ، ألا وهى " فرق تسد " ...تريح هذه القوى نفسها ، فبدلا من أن تواجه مقاومة وحروبا من الشعوب الواقعة فى براثن الاحتلال أو المستذلة ، والمهيمن عليها ، فتشعل الحروب بين قبائلها وشعوبها وطوائفها ، فهل نلوم هذه القوى ، التى تعمل لصالحها ، وهو منطق مشروع ومعلوم ، أم نلوم الغافلين الذين وقعوا فى المحظور ، ووجهوا رصاصهم إلى بعضهم البعض ؟!!

...وأصبح " التمصير"
من أساطير الأولين* !

جاءت إلى صاحبنا زوجة ابنه تحكى ما حدث معها فى إحدى المدارس الأجنبية التى تقدمت إليها راغبة العمل مدرسة للغة الفرنسية ، فأجابتها مسئولة بأن إدارة المدرسة لا تعين " مصرية " مدرسة ، وإنما فقط يمكن لها أن تكون " assistant " ، فلما سألتها ماذا تقصد بذلك ؟ أجابتها بأنها سوف تقوم ببعض الأعمال التي تساعد المدرسة على أداء عملها التدريس ، أى أن " تحضّر " الكراريس للأولاد – مثلا – ، وأن تشرف على دخولهم الفصل ، أو تجئ بهم من مكان إلى مكان ...إلخ ، وهو " الترف " الذى لا يحظى به أستاذ الجامعة فى مصر .

وكان لابد أن تسأل : ولم لا أستطيع أن أكون مُدرّسة وأنا قد تخصصت فى الفرنسية منذ الصف الأول الابتدائى حتى تخرجت من كلية الألسن ؟ أجابتها المسئولة أن من لهم حق التعيين مدرسين هم غير المصريين فقط !

عندما روت زوجة ابن صاحبنا له هذا الموقف شعر وكأنه كان واقعا بين يدى شيطان رجيم يمزق قلبه وعقله ويرمى بما يقطعه عرض الطريق !!

على أرض مصر ، يجئ زمن يصبح فيه ممنوعا على مصرى أن يمارس مهنة التدريس لتلاميذ ، الجمهرة الكبرى منهم مصريون أبناء مصريين !

على أرض مصر ، يجئ زمن يتربى فيه مئات من أبنائنا سنويا وفق قيم وعادات ومفاهيم واتجاهات منبتة الصلة تماما بكل ما يتصل بالثقافة العربية المصرية الإسلامية ، وإنما وفقا لهذه أو تلك من الثقافات الغربية!

على أرض مصر ، يجئ زمن نجد فيه عقول أطفالها وشبابها تتم سرقتها ،

---

* نشرت بجريدة نهضة مصر ، فى ٢٠٠٨/٥/١٩

وليس هذا فحسب ، بل ويصبح على الآباء والأمهات ، المسروق أبناؤهم ، أن يدفعوا آلافا مؤلفة من الجنيهات سنويا ثمنا لما يُسرق من وطنهم !!

(يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا) !

لقد كثر ترديده لهذا الذى قالته السيدة مريم هذه الأيام مما لابد أن يحمل دلالة مخيفة ، ومعنى مفزعا يشير إلى ما أصبح عليه المواطن من غربة على أرض وطنه ٠٠٠فى الوقت الذى يُكثرون فيه الحديث عن " المواطنة " ! والتى هى قولة حق يراد بها باطل ٠٠٠يريدون بها - دون أن يجرءوا على التصريح بذلك - أن يقابلوا بينها وبين أى شعار دينى يربط المواطن المسلم فى مصر بعقيدته الدينية ، لأنهم لو صدقوا فيما يرددوه ويقولوه ، لجعلوا للوطن أولوية في تعلم لغته وتاريخه وهويته ومصالحه ومشكلاته ، ولجعلوا لأبناء هذا الوطن الأولوية في التمتع بخيراته ، وقدسية لتمتع كل منهم بحقوقه ٠

لو كانت المنشأة التى تقتصر على تعيين الأجانب منشأة اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية لربما هان الأمر ولو بعض الشئ ، أما أن تكون مؤسسة تربى وتعلم وتنشئ وتُكوّن ، فهذا والله ذروة " الفسق السياسى " ، أو قل بمعنى أصح " قاع الفسق السياسى " ، حيث لا ذروة للفسق !

لقد كنا نفزع ونصرخ اعتراضا على التعليم باللغة الأجنبية فى مدارس التعليم العام ، وننبه إلى أن فى هذا خطورة على اللغة القومية ، حيث ستؤدى بالضرورة إلى انقطاع " الحبل السرّى " بين المواطن وبين موروثه الثقافى ، وفى مقدمته القرآن الكريم والحديث النبوى ، وسوف تتحول كل الكتب التى كتبها أفذاذ العرب والمسلمين إلى طلاسم أمام الأجيال الجديدة ، فيردون علينا بما لم نقله ، حيث يندفعون فى أحاديث طويلة عن أهمية تعلم اللغة الأجنبية ، فنعود لنقسم لهم أننا لا نهاجم " تعلم اللغة الأجنبية " وإنما " التعليم بها " ، ولو أخلصوا المقصد ، لأدركوا أن هناك فرقا بين الأمرين واسع وصارخ !

لكن المُصاب اليوم أفدح وأخطر ، فالذى يُعلم لا يُعلم فقط باللغة الأجنبية ، وإنما هو نفسه أجنبى ٠٠٠ فالمصرى عندما يُعلم بلغة أجنبية – وإن كان هذا مرفوضا من جانبنا – لا نفقد الأمل فى أن اسمه ودينه الغالب ، وما يسلكه من سلوكيات وما ينتظم تفكيره من مفاهيم وكلمات ، سوف يجدها التلاميذ بالضرورة تشع بروح مصرية عربية إسلامية (فى أغلب الأحوال) ، ولا يستَبعد أن يصلى أو يقرأ آية قرآنية ، أو يذكر حديثا نبويا ، أو يعبر عن موروثه القبطى المصرى العظيم ، أو يجئ على لسانه ذكر عالم عربى ، أو مصلح عربى أو زعيم وطنى ٠٠٠

كل هذه جوانب من " تربية عن طريق السياق " ، إذا صح هذا التعبير ، أو ما يسمونه " المنهج الخفى " ، أى مجموع ما يتم تعلمه وتشربه فى سياق الحياة المدرسية ، حرا ، من غير منهج ونظام رسمى ، وهو لا يقل خطورة عن المنهج النظامى الرسمى ٠

أما فى مثل هذه المستعمرات الثقافية الأجنبية ، فلن يكون شئ من هذا ، وإنما هو " صدر أم أجنبية " سوف يرضع منه أبناؤنا وبناتنا كل ما هو مغاير لثقافتنا وعقيدتنا وعاداتنا وتقاليدنا ولغتنا وأخلاقنا وأعرافنا ومشكلاتنا وأحلامنا !

فى عصر النهوض الوطنى ، كانت أرض مصر تشهد جهودا حثيثة نحو ما كان معروفا باسم " التمصير " ، وكان من أبرزها ما قام عظيم مثل طلعت حرب عندما رأى الرجل أن الاقتصاد المصرى يديره أجانب ، ويمولونه بالقليل ويجنون منه الكثير ، ويمتلئ السوق المصرى بالسلع الأجنبية ٠

وبدأنا نشهد أعظم حركة وطنية فى مجال الاقتصاد ، فإذا بشركات تحمل أسماء شركة مصر للأقطان ٠٠شركة مصر للمنسوجات المصرية ، شركة مصر للزيوت ٠٠شركة للحلج ٠٠٠حتى السينما ، انتبه لها الرجل ، فإذا به ينشئ شركة مصر للسينما ، وينشئ " ستوديو مصر " ٠٠وكذلك في مجال الطيران (مصر للطيران) ٠٠٠إلى غير هذه وتلك من منشآت فتحت آفاقا

واسعة للمصريين للعمل ، ولمحورة العمل حول المصالح المصرية ومواجهة المشكلات المصرية ، وتحقيق الطموحات المصرية ، فيكون هناك تنفيذ عملى للمواطنة الحقيقية ، المغايرة لما يجرى اليوم من تزييف للسواطن ، حيث يتسلل كل شئ من الأيدى الوطنية ليكون ملكا أو موجها بالأجانب ، ويقولون ، كذبا وزورا وبهتانا : المواطنة !

منذ سنوات ، كان حديث يدور بين وبين أستاذ مصرى كان مديرا لإحدى الجامعات العربية ، وكان هذا فى السنوات الأولى لهذا الهجوم الأجنبى لحياتنا الاقتصادية ، وكان الحديث يدور حول سلعة معينة لا أذكرها مع الأسف الشديد ، فإذا به يبدى سعادته لأننا بدأنا فى استيرادها بدلا من إنتاجها محليا ، معززا رأيه هذا بأن المنتج الأجنبى أرخص ، وأقوى وأكثر كفاءة ، بينما المنتج المصرى كان على العكس من ذلك .

وأذكر أن تعقيبى على رأيه دار حول أن المسألة ليست كما نتصور " منتجا ماديا " نقيّمه بسعر مالى ، وإنما هى " حزمة " من أمور شتى ، أبرزها مشاعر وأحاسيس واتجاهات ومفاهيم وقيم تدور حول العزة الوطنية عندما تكون السلعة بين يدى سلعة أنتجها مصريون ، على أرض مصر ...

أعلم علم اليقين تلك العقدة الشهيرة " عقدة الأجنبى " ، لكن لا شئ مستحيل ، فحركة الواقع يمكن أن تزيل ما نرضى عنه من مفاهيم ، ولا ننسى أن وقتا مرعلينا كانت فيه المنسوجات المصرية القطنية تحظى بسمعة عالمية مرموقة ... بل إننى كنت أشعر بشئ من الزهو أثناء قراءتى لبعض الروايات البوليسية التى كانت مشهورة أيام صبانا " مثل أرسين لوبين " و " شرلوك هولمز " وما ماثلهما ، حيث كنت أفرح كثيرا عندما تجئ عبارة يقول فيها المؤلف " وأشعل ... سيجارته المصرية " !! فحتى هذا المنتج الذى أكرهه أصلا وأتمنى اختفاءه من على الأرض ، بل ومعاقبة المتعاملين فيه ، كان لنا شأن مرموق فيه !

وإذا ما كان هناك تقصير وسوء صناعة ، فطرق التحسين والجودة ليست مجهولة ، والتأخر والتخلف يستحيل أن يكون " قدرا " علينا لا فكاك منه ، ولا أريد أن أوجع رأس القارئ بحديث طويل عن بلدان كانت متأخرة عنا كثيرا فإذا بها اليوم فى مصاف الدول المتقدمة (ماليزيا ، وكوريا ، على سبيل المثال) .

وعندما قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ ، كان التعليم الأجنبى فى مصر يشكل مستعمرات أجنبية بعيدة تماما عن أى رقابة من وزارة التربية ، ويتخرج الطالب منها وكأنه قد انخلع من مصريته وعروبته وإسلامه ، وحتى المصرى القبطى ، كان ينخلع عن قبطيته الأرثوذكسية ليصبح كاثولوكيا أو إنجيليا ، وما أعداد المذهبين المتكاثرة فى مصر إلا أثر من آثار ما كان يحدث .

وانتهزت الثورة فرصة الاعتداء الثلاثى (إسرائيل وفرنسا وبريطانيا) عام ١٩٥٦ لتقوم بتمصير التعليم التابع للفرنسيين والإنجليز ، ثم أتبعته بعد سنوات بتمصير من تعليم أمريكى كذلك .

لكن طريقة التنفيذ والإدارة والسياسة أفسدت الفكرة مع الأسف الشديد ،مما يعطى دليلا لمعارضى التمصير لأن يرفعوا أصواتهم ، بأن التمصير يؤدى إلى إفساد للعمل !!

إننا نشكو من أن شأننا أصبح صغيرا في عالم اليوم ، ولم تعد لنا كلمة مسموعة حتى فيما يتصل بسياسة البلدان الواقعة في منطقتنا العربية ، ونتهم قوى الهيمنة بمسئوليتها عن ذلك ، لكننا ننسى مسئوليتنا الأولى ، فالذى يفرط في حق نفسه ، يستحيل أن يتوقع أن يقدره الآخرون ويحترموه ، ومفتاح التقدير الذاتى ، هو أن يملك المواطن المصرى أمر تعليمه ، لا إدارة وتمويلا ، ولكن فلسفة ومنهجا وطريقة وأهدافا ، بما يخدم وطنه الذى أصبح مستباحا .

الولايات العربية الأمريكية..*!

عندما شهدت الأرض الأمريكية الحادث الشهير فى الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ ، وأعلن أن مرتكبى الهجوم من العرب المسلمين ، تداعت الاتهامات والمقولات من كل حدب وصوب تتهم العرب والمسلمين بالدموية والعنف والتعصب .

ثم برز فى التفكير الأمريكى منطق يقول أن هذا الذى لمسوه إنما هو نتيجة أن شعوب المنطقة تعيش منذ سنوات طويلة تحت وطأة القهر والاستبداد والاستئثار بالسلطة وشخصنة الحكم ، حيث أن الحرمان من الحقوق الأساسية ، وعدم المشاركة والظلم من شأنه أن يفجر طاقات غضب ، يؤدى طول حبسها إلى انفجار غير محسوب ، قد لا يبقى ولا يذر ، مثلما نرى فى الثورات الكبرى . ولأن تغيير نظام الحكم يكاد أن يكون مستحيلا فى دول المنطقة ، فإن قطاعات من شعوبها تفرغ طاقات الغضب المكبوت فى اتجاهات عنف مختلفة حتى ولو كانت تمس أفرادا لا حول لهم ولا قوة .

ومن ثم فقد رأى عدد من الخبراء والمستشارين الأمريكيين أن الطريق إلى محاربة العنف والتعصب إنما يكون بأن تعيش هذه الشعوب حياة ديموقراطية ، ويتم فيها تداول للسلطة ، وأن على أمريكا أن تقود العمل على هذا الطريق لا حبا فى أهل المنطقة وإنما حماية لنفسها من تحول بلاد المنطقة إلى مزارع تنبت الشوك والعنف والدماء التى تسيل فى أى اتجاه .

كان التفكير الأمريكى هذا يحمل جانبا كبيرا من الصحة ، فهكذا يشير منطق التاريخ وأحداثه على مر العصور ، حتى لقد عرفنا تلك المقولة الشهيرة التى تقول بأن الكبت يولد الانفجار .

---

* نشرت بجريدة الوفد فى ٢٠٠٧/٤/١٧

لكن التفكير الأمريكى نسى هنا ثلاث أمور مهمة :

أولها ، أن الظلم الذى يعانى منه المواطن العربى ، والقهر الواقع عليه عبر قرون طويلة ، وحتى كتابة هذه السطور لا يُتأتى من النظم الحاكمة وحدها وإنما يتأتى من مصدر آخر مهم غاب عن ذهن التفكير الأمريكى ، ذلك أن قوى الهيمنة الخارجية ، وعلى رأسها الولايات المتحدة نفسها تقف فى نفس الخندق الذى تقف فيه النظم العربية الاستبدادية ، بل يوقن المواطن العربى أن طول بقاء هذه النظم واستمرارها ما كان ليكون إلا بدعم أمريكى ، هذا فضلا عما تقوم به أمريكا نفسها من صور قهر واستغلال ، لا يتسع المقال للإشارة إليها •

ثانيها ، أن المواطن العربى لا يستطيع أن ينسى أبدا ما تم من سرقة وطن عربى بالكامل هو فلسطين ، حتى هذه الأجيال التى ولدت بعد هذه الجريمة الغربية البشعة ، لا يغيب عنها مثل هذا ، باستثناء قلة ، قد نجدها فى كل بلد ، ممن لا يهمهم الشأن العام ولا يفكرون إلا فى همومهم الشخصية الفردية • ولم يقف الأمر عند حد سرقة وطن ، بل منذ قيام الكيان الصهيونى وهو يمارس أبشع ما شهده التاريخ من وحشية ، لا تهز شعرة واحدة فى رأس الدول الغربية ، بينما تهتز الدنيا لو أن طفلا أو امرأة أو مواطنا إسرائيليا قتل فى عملية مقاومة ، ومن ثم فإن أى حل يتجاهل وجود هذا السرطان فى جسم الأمة العربية لابد أن يكون مآله هو الفشل •

ثالثها ، أن أمريكا عندما فكرت فى ضرورة " دمقرطة " المنطقة العربية ، تصورت أن هذا يمكن أن يتم وفقا لتصورها هى عن الديموقراطية ، بينما لا يجهل أحد أن النظم الاجتماعية لا تستورد ولا تستزرع ، وأنها لابد أن تكون وليدة التربة المجتمعية • بل إن الحكام العرب أنفسهم انتهزوا فرصة محاولة أمريكا الترويج لنموذجها فى الديموقراطية ، وصاحوا يرددون تلك المقولة التى هى مما يقع تحت عنوان : قولة حق يراد بها باطل ، فراحوا يقولون أننا لا

نقبل أن يفرض علينا نموذج الديموقراطية من الخارج ، وأننا نحن الذين نستطيع أن نفكر فى الأسلوب الأمثل والنهج الأصلح ٠

والباطل الذى أريد بترديد هذه المقولة يمكن أن يكشف من خلال تساؤل : أصلح بالنسبة لمن ؟ وأمثل قياسا على ماذا ؟ واقع الحال يشير بكل البراهين والأدلة على أن المرجعية هنا هى النظام الحاكم نفسه ومصالحه والمنتفعون بوجوده سواء من قوى الداخل أو الخارج ٠

ولما كان نظام صدام حسين يمثل فى نظر أمريكا نموذج الحكم المستبد كان لابد من البدء بضربه ومحوه من على الخريطة ، مع أن صدام ليس وحده المستبد القاهر ، ربما يكون أكثر قهرا وأكثر استبدادا ، لكن نظرية الأوانى المستطرقة تبرز لنا هنا فى التو واللحظة لتؤكد أن الحكام العرب هم من نفس نموذج صدام حسين ، فى صور وأشكال مختلفة : تعددت الأسباب والموت واحد !!

وكان الفشل الذريع هو المصير المحتوم للتصور الأمريكى :

فلقد سقط بالفعل نظام صدام حسين ، لكن الشعب العراقى والشعوب العربية كلها لم تر أبدا النموذج البديل الذى بشروا به ، بأن يكون العراق واحة الديموقراطية فى الوطن العربى ، والنموذج الذى لابد أن يحتذى ، وإذا بالعراق يتحول إلى مفرخة للعنف وتسيل فيه الدماء أنهرا طوال الأربعة وعشرين ساعة من كل يوم ، وإذا بمن قتلوا وشردا وسجنوا وعذبوا فى أربع سنوات يفوق كثيرا ما فعله صدام حسين فى ثلاثين عاما ٠

فات الأمريكان أن العراقيين لا يمكن أن يتصوروا إمكان ممارسة ديموقراطية تحت سنابك جيوش احتلال أبدا لأسباب عدة نشير إلى واحد فقط ، وهو أن ما يتم من خطوات يُزعم أنها ديموقراطية لابد أن تكون وفقا لمصلحة المحتل نفسه لا أصحاب الوطن والمستقبل ٠وفضلا عن ذلك : كيف يمكن

الوثوق بحكام جاءوا فوق الدبابات الأمريكية ؟ المنطق يؤكد أنهم لابد وأن يكونوا أعوانا وأذرعا لجيش الاحتلال ٠

ولا يقل عن ذلك ، اعتماد الاحتلال الأمريكى على طائفة بعينها فى العراق ، حرص بكل شيطنة أن يستغل وتستثمر ما عانته من ظلم فى العهد الصدامى ، وسار هؤلاء مع الأسف على الطريق الأمريكى مما ولد مشاعر كراهية وضيق لدى أطراف أخرى ، فشهدنا دوافع أخرى للعنف وإسالة الدماء لأسباب طائفية تكاد أن تكون فى صورة حرب أهلية ٠

وأسفرت الديموقراطية فى فلسطين عن اختيار الفلسطينيين لحماس ، لكن حماس هذه ترفع شعار المقاومة وتتمسك بهويتها الإسلامية ، والأمران معا يهددان طفل أمريكا المدلل فى المنطقة : إسرائيل ، فكان ما كان من حصار وتجويع كشف أكذوبة الديموقراطية الأمريكية ، فهؤلاء يعاقبون شعبا لاختياره فئة لا يحبونها !

وصدرت تصريحات متعددة تشكل ضغطا على الحكومة المصرية ، فإذا بها تفاجأ بعفريت آخر يظهر لها من صناديق الانتخابات اسمه الإخوان المسلمون ، على الرغم من اللجوء إلى أكثر الوسائل توحشا وبربرية ، سواء من حصار للمقار الانتحابية حتى لا يصل إليها الناخبون ، أو تزوير ، أو حملات ضارية على شاشات التلفاز تنطق بحقد دفين وترويج أكاذيب وافتراءات!

هنا أيقنت أمريكا أن السبيل الديموقراطى ، على الرغم من تواضع تجربته ، ومحدوديته غالبا ما يأتي لها بعفاريت الإسلاميين ، فكان أن أضاءت الضوء الأخضر للأنظمة لتفعل ما يروق لها من حيث المحاصرة والتضييق والتفصيل ، ومن ثم يظل الحكم محصورا فى الفئة الحاكمة ٠٠ وانتهز هؤلاء الفرصة ليطلقوا وحوشهم الضارية على ما كان متبقيا من هوامش ضئيلة للممارسة الديموقراطية ، وشهدت بلد مثل مصر ما يتضاءل أمامه دستور

إسماعيل صدقى الذى أصدره عام ١٩٣٠ ، لكن أيامها كانت هناك قيادات وطنية شعبية لم تستسلم ، فكان أن سقط دستور القاهر إسماعيل صدقى ٠

لقد تمكن النظام عبر سنوات حكمه من قطع النور والمياه عن الأحزاب القائمة ، فأصيبت بالضعف الشديد ، وبقى تيار الإخوان يمثل تهديدا حقيقيا للنظام القائم ، فماذا كان حتى تمر التخريبات اللادستورية ؟

كانت هذه الهجمة الشرسة ، وخاصة على مراكز القوة المالية ، حيث التقت مصلحتان : المصلحة الأمريكية الإسرائيلية التى روجت أن تسريبات مالية غير قليلة وصلت إلى حماس مخترقة الحصار ، وأن مصادرها هى من مراكز مالية يملكها إخوان ، ومصلحة النظام الحاكم ، فى سجن هؤلاء وضربهم ، فيخلى لهم الساحة فيتم تفصيل دستور يشرع للقهر والاستغلال والاستبداد ٠

وبدأت أمريكا تكوّن معسكرا تابعا لها من النظم الحاكمة ٠٠٠فهناك دول صغيرة لم تعد تشكل مشكلة لها ٠٠لقد تحولت إلى محميات أمريكية منذ الغزو الأسود لصدام للكويت ، وها هى نظم أخرى تؤازرها ، حيث تيقن الطرفان : الأمريكى الإسرائيلى ، وطرف بعض النظم العربية أن مصالحهما قد تعانقت : فليكف الأمريكان عن تخويف النظم بحكاية الديموقراطية حتى لا تستحضر العفريت إياه ، وليتعهد المذعورون بالاستجابة إلى ما يصب فى الخانة الأمريكية الإسرائيلية ، حتى أصبح من المعتاد ، عند كل أمر مهم أن تجئ وزيرة الخارجية الأمريكية لتجتمع بوزراء خارجية هذه الدول ٠

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل وصل لإلى اجتماعات مع رؤساء أجهزة المخابرات التى هى أكثر المواقع ارتباطا بالأمن القومى والمصلحة الوطنية ، وكأن هذا تتويج لتوحد القلوب والعقول ، لتصبح مجموعة هذه الدول بالفعل ولايات عربية أمريكية ، ولا حول ولا قوة إلا بالله !!

وإذا كانت القضية الفلسطينية هى الصداع الدائم فى المنطقة ، فقد يبرز حل جهنمى ٠٠يجئ مسئول أمريكى كبير ليطلب إحياء ما سمى بالمبادرة العربية

التى تقضى بالصلح مع إسرائيل إذا انسحبت من الأراضى التى احتلها عام ١٩٦٧ ، وهو منطق شبه معقول ، لكن ما الذى أعد من ترتيب ؟ يستجيب الحكام العرب فى مؤتمرهم إلى الرغبة الأمريكية فيحيون المبادرة ..وحتى لا يراق ماء وجه الحكام ، سواء العرب أو الإسرائيليين ، فليقل العرب : المبادرة بدون تعديل ، وليعلن الإسرائيليون أنهم مصرون على التعديل وإلا فلا ، لكن المخرج موجود : تودع المبادرة فى الأمم المتحدة ، ثم يتقدم البعض بإعداد مشروع يقوم عليها ، وفى هذا المشروع يتم التعديل ، ويؤخذ به قرار من المؤسسة الدولية ، فيعلن العرب أنهم يستجيبون ، لا لإسرائيل وإنما للشرعية الدولية ، وبذلك يتم الحل الأبدى لهذا الصراع الطويل ، فهل هذا ما سوف يتحقق ؟ الأيام بيننا !!

خريف العَبَط* !

فى العديد من آيات القرآن الكريم آيات كريمة يقص المولى سبحانه علينا فيها أحداثا ووقائع مما حدث للأمم سابقة ، لا بهدف " الحكى " و " التأريخ " وإنما بهدف نراه يتكرر عدة مرات ، عبّر عنه المولى عز وجل بمشتقات كلمة " الاعتبار " ، أى استخلاص المعانى والدلالات مما لابد أن تنعكس آثاره فيما يلى من خطوات نخطوها وإلا لم نكن مستحقين أن نكون من ذوى " الأبصار " ، بل وأصبحنا مثل "الأنعام " ، وأكثر من هذا ، يمكن أن نكون " أضل " منها ، حيث نكون ممن يملكون قلوبا لا نفقه بها وأبصارا لا نبصر بها وأذانا لا نسمع بها !!

ويبدو أن عرب اليوم ، أو قل بالتحديد حكام عرب اليوم لا " يعتبرون " ولا " يتعظون " مما جرى بالأمس وأول أمس !

إن الولايات المتحدة الأمريكية تنادى وتتحدث وترسل الرسل وتهاتف عما يسمى بمؤتمر " الخريف " – أنابوليس – تُدعى إليه دول منطقة الشرق الأوسط العربية ، وخاصة " المعتدلة " ، وهو الاسم الحديث للدول المعروفة بأنها الداخلة فى بيت الطاعة الأمريكى ، وأبسط آيات ذلك " الظاهرة " ، التى تمثل الحد الأدنى ، ما نراه من مجئ الآنسة كوندا الكثير من المرات ، وفى كل مرة ، تشير بإصبعها بسرعة الحضور إلى وزراء خارجية الدول الست + ٢ ، أى دول الخليج الذى كان عربيا ، وكان فارسيا ، ثم أصبح أمريكيا ، بالإضافة إلى دولتى التعاون العربى الإسرائيلى : مصر والأردن ، فيهرعون إليها حيث تقول ، ليسمعوا منها آخر تعليمات سيد البيت الأبيض ، وأحيانا ما تفعل الشئ نفسه مع مسئولى مخابرات هذه الدول !

---

* نشرت بجريدة الوفد فى ٢٠٠٧/١٢/١

وتسأل : ماذا يراد من هذا المؤتمر المزعوم ؟ فلا تجد إجابة شافية ...

إنها " لعبة " أمريكية جديدة تذكرنا بتلك السيدة التى مر عليها يوما - صدفة - عمر بن الخطاب عندما كان خليفة للمسلمين ، فى مروره الذى كان يتفقد من خلاله أحوال الرعية ، فإذا بصياح صغارها من الجوع ، وهى تضع إناء على النار ، تبين لعمر أن الإناء ليس به شئ وإنما هى تحاول أن تُسكت أطفالها من البكاء جوعا ، فتوهمهم بأن الإناء فى شئ يؤكل ، تعده لهم !

طبعا هناك فرق مهم ، وهو أن السيدة المسكينة مضطرة كرها إلى ذلك حيث هى من المعدمين ، أما الولايات المتحدة ، فهى تريد بهذا المؤتمر أن " توهم " هؤلاء السذج الذين سوف يحضرون بأن الإناء فيه طعام ، أو أن القبة تحتها شيخ جليل ، بينما لا شئ فى الإناء ، والقبة من غير شيخ يرقد تحتها !!

حتى الكاتب المعروف " أنيس منصور " الذى لا يعرف عنه حماسه للجهاد والمقاومة والقتال والكفاح ، أخذ يصرخ فى عموده اليومى بالأهرام بأن الإسرائيليين لا يعطون أحد شيئا ، وهم مراوغون ، فلا أمل فى اجتماعات ومؤتمرات وندوات لا بمقدار " عشم إبليس فى الجنة " !!

كنت فى الخميس الماضى الأول من نوفمبر أشاهد على قناة الجزيرة مساء فيلما وثائقيا رائعا (ومبكيا أيضا) كان من وقائعه تلك الواقعة المعروفة والتى أشرنا إليها عدة مرات فى مقالات متعددة فى صحف عدة ، والتى تتعلق بكيف أوهم الإنجليز أثناء الحرب العالمية الأولى ، العرب ، بأنهم لو وقفوا مع قواتهم ضد قوات الدولة العثمانية ، فسوف يحصلون على الاستقلال !

ونعلم أن العرب بالفعل أعلنوا ما أسموه بالثورة العربية الكبرى سنة ١٩١٦ وكان لها أثرها المعروف فى إلحاق الهزيمة بالدولة العثمانية وانتصار الإنجليز والفرنسيين ، وكان ما كان من إلغاء الخلافة الإسلامية التى كانت تظلل المسلمين منذ الصديق أبو بكر رضى الله عنه ، وإعلان دولة علمانية تخاصم الدين ، ثم إذا بالمكافأة التى استحقها العرب : لا استقلال ، وإنما تقسيم

منطقة الشام والعراق بين بريطانيا وفرنسا وبدلا من أن تكون المنطقة تحت مظلة إسلامية أصبحت تحت المظلة الاستعمارية الغربية ، فضلا عما فعلوه من " تقسيم " ترك مشكلات بمثابة " ألغام " تسمم العلاقات بين دول هذه المنطقة بعد أن حصلوا على الاستقلال ، بعد الحرب العالمية الثانية ، وتم تتويج كل هذا باغتصاب فلسطين وقيام دولة العدو الصهيونى والتى لست بحاجة إلى أن أشير إلى ما سببته من استنزاف مستمر لطاقات هذه الأمة المنكوبة بحكامها !

صدّق العرب الذئب أنه يحميهم ويحقق آمالهم !!

كان من المفروض أن يكون ما حدث " عبرة لمن يخشى " ، لكن هل هؤلاء الحكام ممن يخشون غضب الله وغضب شعوبهم ؟ كلا !

ولأنهم لا " يتعظون " ، فقد تكررت القصة نفسها عندما أوهموا صدام ودول الخليج بأن الثورة الإيرانية ١٩٧٩ هى عاصفة عاتية تريد أن تعصف بدول المنطقة وانبرى " حارس البوابة الشرقية " ليبتلع الطُعم ، وانفتحت خزائن دول الخليج لتمول حربا عبثية ثمانى سنوات كاملة ، سالت فيها دماء وقتل آلاف المسلمين من الإيرانيين والعراقيين معا، وضاعت فيها مليارات الدولارات ، وكسبت فيها خزائن الولايات المتحدة من بيع السلاح وغيرها من المصارف غير المعلنة ، فمن كان الخاسر ؟ إيران والعراق ودول الخليج ! ومن كان الرابح ؟ أمريكا وإسرائيل !

هل نلوم هاتين الدولتين ؟ كلا إنهما عملتا من أجل مصالح شعبيهما !

إن فات حكام العرب أن يتعظوا مما فعلوه فى الثورة العربية الكبرى ، وما فعلوه مع إيران طوال ثمانى سنوات ، فمن المتوقع أن لا يتكرر الفعل مرة ثالثة ، لكنه تكرر ٠٠والله تكرر !!

صدّق العرب الذئب أنه جاء ليحميهم ويحقق آمالهم !

غزت قوات صدام حسين الكويت فى صيف ١٩٩٠ ٠ صدقوا أن الولايات المتحدة حريصة على استقلال دول الخليج ، واندفعت قوات مصر والسعودية

وسوريا لتحارب تحت القيادة الأمريكية وتحت العلم الأمريكـــى ٠٠فـــأخرجوا قوات صدام حسين من الكويت ، لتحل محلها القوات الأمريكية لا فى الكويـــت وحدها وإنما فى كل دول الخليج !

صدّق العرب الذئب أنه جاء ليحميهم ويحقق آمالهم !

وتملأ أمريكا الدنيا صخبا وضجيجا من شر مستطير يحضره صدام حسين للعالم بأسلحة الدمار الشامل ، بحيث لا تفتح إذاعة أو تلفازا أو تفتح صحيفة إلا وترى وتسمع عن الأخطار الرهيبة التى يوشك صدام حسين أن يوقعها بالعالم والمدنية والحضارة الحديثة ، ثم ثبت أن هذا كله كذب وغش وخداع مقصود ، ومن أجل ذلك تم تجويع الشعب العراقى أكثر من عشر سنوات ، وتم لأمريكـــا غزو العراق واحتلاله فى أبريل ٢٠٠٣ ، وشارك حكام عرب معروفون فى كل هذا ٠٠٠فى تجويع شعب عربى مسلم ، وفى حصار بلد عربى مسلم ، ثم فـــى غزو أو تسهيل غزو بلد لها ما لها من علو كعب حضارى فى التاريخ العربى والإسلامى لترتد إلى العصور الوسطى ، ولست بحاجة إلى أن أشير إلى شئ ، فالفاجعة ما زالت وقائعها تدمى قلوبنا وتدمع أعيننا كل يوم ، وربما كل ساعة ، وحكام بلداننا يتفرجون ، وأقصى ما يمكن أ، نراه : مصمصة شفاه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله !

صدّق العرب أن الذئب جاء ليحميهم ويمتعهم بالديمقراطية والتنمية !!

ومنذ اتفاق " أوسلو " المشئوم عام ١٩٩٣ ، وقد تم تطويع حركـــة الثـــورة الفلسطينية للعبة القذرة بتصديق أن العدو الصهيونى سوف يتنازل عما التهمـــه ٠٠٠وها نحن فى أواخر عام ٢٠٠٧ ، أى بعد أكثر من أربعة عـــشر عامـــا ، ومفاوضات واجتماعات ووفود ذاهبة وقادمة ورائحة ، وتصريحات وخطـــب ، وفى أثناء ذلك ، تتكاثر المستوطنات ، وتحرق أرض فلسطينية ، وتراق دمـــاء مئات كل عدة شهور ، ويسجن مئات ، ويُسمم زعيم الثورة الفلسطينية ، ومـــا زال (ما) يسمى " بالرئيس أبو مازن " يجتمع ، ويسافر ، ويصرح ، ويبتسم

٠٠ليلته عاد ليسمع " عادل إمام " فى مدرسة المشاغبين (أربعتاشر سنة خدمة فى ثانوى ، وبتقوللى نجتمع) !!

صدّق أو لا تصدق أن هناك من حكامنا وصحفيينا من يملك عقلا يصدق ، بعد كل هذا أن أمريكا تدعو إلى مؤتمر للنظر فى مواجهة المشكلات التى تعانى المنطقة منها !!

هل تعلم السر الحقيقى وراء الدعوة لهذا المؤتمر ؟

تجميع الجهود العربية وراء أمريكا لتضييق الخناق على إيران وضربها إن أمكن !

إيران هى العدو ٠٠٠إيران هى الخطر القادم ٠٠

أما إسرائيل ، فهى الجارة العزيزة المدللة ، والنبى أوصى بسابع جار ٠٠إنها الطريق إلى قلب أمريكا ، سيد الحكام العرب !

صدّق العرب الذئب بأنه يسعى لحمايتهم وإتاحة الفرصة لهم ليعيشوا بسلام مع أولاد العم الصهيونى !!

أزهى عصور الديموقراطية* !

انظر إلى أحد الحيوانات التى تزخر بها بيئتنا وحياتنا اليومية ، كلب ، قط ، سوف تجد الكلب - مثلا - يتحرك بأكبر قدر من الحرية ، يسير فى الاتجاه الذى يريد ، ينام فى أى مكان ، يمارس الالتقاء الجنسى فى أى وقت ، وفى أى مكان ... إلخ ، فهل نحكم بناء على هذا بأن الحيوان أكثر حرية من الإنسان ؟

كلا ، ليست هذه الحرية ، فالحيوان يفعل ما يفعل بغير قيود ، مدفوعا بقوى فطرية جبرية ، وكأنه " مبرمج " على سلسلة من الأفعال لابد أن يفعلها .أما الحرية الحقيقية فهى القائمة على الاختيار من بين عدة بدائل ، حتى فى الجوانب الفطرية فى الإنسان ، مثل الدافع الجنسى ، فهو لا يندفع هكذا للاستجابة له ، ولكنه يأخذ بعين الاعتبار ما يأمره به الدين ، والقانون ، والآداب والأعراف الاجتماعية . وإذا كان لا مفر من الزواج للتنفيس عن هذا الدافع ، فهو يختار الطرف الآخر ، ويختار الوقت المناسب .. إلخ

وأن نتيقن من أن ممارسة الحرية تجئ باختيار بين أكثر من بديل ، فهذا يعنى قدرة عقلية ، ويعنى توافر معلومات ، ويعنى وعيا بجملة ظروف ومتغيرات تتحكم فى الاختيار .

من هنا ارتبطت الديموقراطية بالتعليم ، فعندما توصل الإنسان إلى بعض أشكال الممارسة الديموقراطية مثل المجالس النيابية وما شابهها أدرك أن الناس ، لكى تحسن الاختيار ، لابد لها من تعليم ، فظهرت فكرة المدارس العامة فى أوربا ، واشتدت الحاجة إلى وجود صحف تقوم بتوفير المعلومات ، وتتيح الفرصة لأصحاب الرأى أن يعبروا عن آرائهم ، وظهرت الأحزاب ، كأوعية يمارس مواطنون من خلالها فرص التعبير عن الرأى ، والسعى لتداول السلطة

---

* نشر بجريدة آفاق عربية أيام ٢ ، ٩ ، ١٦ ، ٢٠٠٤/٩/٢٣

حتى لا تظل احتكارا على فئة دون أخرى ٠

وقد قرأنا وسمعنا مقولة عجيبة تتردد كثيرا فى مصرنا المحروسة ، ألا وهى أننا نعيش أزهى عصور الديموقراطية ، فرحت - فى ضوء ما سبق - أفتش عن مظاهرها ، فكانت النتيجة كما يلى :

١- نعيش منذ أربع وعشرين سنة فى ظل قانون الطوارئ والذى يعتبر " مجمعا " لجملة من القيود وأشكال المحاصرة للعديد من الممارسات الضرورية للحرية ٠

٢- أصبح التعليم " منزوع الدسم " ، والدسم المقصود هنا ، تنشئة وتدريب مواطنى المستقبل لحسن قيادة شئون مجتمعهم عن طريق الاشتغال بالهموم السياسية المحلية والإقليمية ، والعالمية ، تحقيقا لمقولة ظالمة تقول بألا سياسة فى التعليم ٠

٣- الحكومة هى نفسها التى تختار : إن كان الحزب الجديد المقترح يمكن أن يحصل على الموافقة على التواجد أم لا ، عن طريق مجلس الشورى الذى يتبع لها عملا وفعلا لا نظرا وكلاما ، ومن ثم توافق على قيام أحزاب لا وجود حقيقى لها فى الشارع حتى لا تهددها ، وتمنع ظهور أحزاب لها جماهير حقيقية ، ربما تزيد على الجماهير التى تعتمد عليها هى ٠

٤- رئيس الدولة ، بحكم رئاسته لحزب الحكومة ، هو الذى يوافق على أسماء المرشحين لمجلس الشعب ، وهؤلاء هم أنفسهم الذين يختارون الرئيس عند الترشيح للاستفتاء على رئاسة الدولة !

٥- حزب الحكومة هو الوحيد المتسيد للسلطة ، منذ أن أنشأه رئيس الدولة السابق ، السادات ، أى ما يزيد على ربع قرن !

٦- الحكومة هى التى تملك أكبر وأهم دور الصحف ، بغض النظر عن تلك الشكليات الزائفة من تسميتها " بالقومية " ، وبأن مجلس الشورى هو

المسئول عنها ، فالذى يعين المسئول فى الشورى هو رئيس الدولة رئيس حزب الحكومة •

٧- -أصيبت الصحف الحكومية بالداء نفسه الذى أصاب النظام وهو " الشيخوخة " ، فوصل رؤساء بعض الدور إلى ربع قرن فى تربعهم على عرش المؤسسة ، بحيث أصبح كل منهم وكأنه " ملك " على عرش مملكة ، مما يكون له أثره فى وعى ولا وعى صحفيى الدار من حيث ممارسته لهامش الحرية المتاح •

٨- نتيجة لهذا شعر كثير من الصحفيين باليأس والإحباط فى أن يحصل " حراك " لهم فيصلوا إلى مواقع أعلى ، وفى مقدمتها رئاسة التحرير نفسها ، ونحن نذكر أن واحدا مثل محمد حسنين هيكل مثلا وصل إلى رئاسة تحرير مجلة آخر ساعة فى أول الخمسينيات ، ولم يصل عمره إلى ثلاثين عاما •

٩- ليس الأمر سهلا على من يريد إصدار صحيفة أو مجلة ، فهناك العديد من القيود والإجراءات التى قل من يستطيع تجاوزها •

١٠- هناك عدد من الصحف تعرض للقمع الذى وصل إلى حد التوقيف والإلغاء ، والأستاذ مصطفى بكرى شاهد على ذلك فما أن ترأس جريدة باسم " مصر اليوم " والتى راجت بسرعة ، حتى أغارت عليها السلطة بطريقتها ، وكذلك جريدة أصدرها حزب مصر الفتاة التى رأس تحريرها مصطفى أيضا حدث لها نفس المصير ، فلما انتقل إلى رئاسة تحرير جريدة الأحرار اليومية ، شهدت أحداثا مؤسفة لتطفيشه ، يزعمون أنها " داخلية " ، وهو ما لا ينطلى على أحد ، فيد الأمن كانت هى الطولى وراء كل هذا •

١١- وعندما أراد بعض الصحفيين الشبان أن يصدروا جريدة تعبر عن رؤاهم ، بعيدا عن معتقلاتهم الصحفية الرسمية ، فصدرت جريدة

الدستور برئاسة إبراهيم عيسى ،وكانت شكلا جديدا فريدا فى الصحافة ، على الرغم مما قد يكون هناك من تحفظات ، إلا أن الدولة لم تتحملها ، فتربصت بها حتى وأدتها ، ولم تفلح مجهودات متعددة ، قانونية وسياسية وشخصية أن تعيدها مرة أخرى إلى الحياة حتى هذه اللحظة ٠

١٢- وتزامن مع هذا حركة عاصفة هبت على مجلة روزاليوسف فاقتلعت " عادل حمودة " الذى كان المسير الحقيقى للمجلة ، لأنه تجاوز ما يسمى بالخطوط الحمراء ، وإن كانت هذه العاصفة قد أتت له بخير ملحوظ حيث أفردت له مساحة متميزة أسبوعية ليصبح من كتاب الأهرام٠

١٣- ووصل الأمر إلى شطب حزب كامل كان من الأحزاب القوية ، وكذلك جريدته ، ألا وهو حزب العمل ، بتمثيلية مكشوفة : خلاف على رئاسة الحزب ، والكل يعرف أن هذا " مصنوع " ، وينتج عنه إيقاف الحزب وجريدته (الشعب) ، ويحصلون على أحكام قضائية بالعودة عددها أكثر من أصابع اليدين ، لكن الحزب وجريدته ، لا تتحملهما الحكومة ، ولا توجهات العصر الأمريكية ، فلابد أن يظلا مجمدان ، مع أن حزب الأحرار هناك نزاع منذ سنوات على رئاسته ، لكن صحفه مستمرة فى الصدور والحزب نفسه لم يجمد ، لأنه لا يشكل " شوكة " فى جنب الحكومة ، فلا خطر منه ، أما حزب العمل فقد كان هو الحزب المعارض القوى لحقيقى بعدما تم تسييس البعض من الأحزاب التى تسمى بالمعارضة٠

١٤- وفوق كل هذا تظل الدولة واقفة بالمرصاد لجماعة الإخوان المسلمين ، مانعة تواجدها الرسمى ، على الرغم مما هو معروف لكل إنسان متابع للحركة السياسية لا فى مصر وحدها وإنما فى العالم العربى كله ، بأن هذه المنطقة لم تشهد فى تاريخها الحديث جماعة نالت مثل هذا

الاتساع العجيب فى الانتشار والرواج مثلها ، ولا يقف الأمر عند حد المنع القانونى ، وإنما يصل إلى غارات مستمرة من حين لآخر لاعتقال عشرات من أعضائها بذرائع لا يقرأ القارئ عنها إلا ويبتسم ، على أساس "شر البلية ما يضحك!"

٠٠٠حقا إنه أزهى عصور الديموقراطية!

٠٠٠وما زالت الديموقراطية تزهو!

كنت قد تصورت أن الأربعة عشر مظهرا التى حواها مقال الأسبوع الماضى قد استوعبت أهم المظاهر التى تؤكد تلك المقولة التى يرددها أصحاب السلطة القائمة من أننا نعيش أزهى عصور الديموقراطية ، لكن ذاكرة القراء أثبتت أنها قادرة بالفعل على أن تعوض " شيخوخة " ذاكرتى ، فإذا بالبعض منهم يُذكرنى بجوانب أخرى غابت عنى ، وإذا بالخروق تتسع فى الثوب الديموقراطى القائم لتزيدنا تأكيدا على أننا بالفعل نعيش أزهى عصور الديموقراطية!

فى العهد الملكى الذى أشبعناه تجريحا ونقدا (ولا يعنى هذا تفضيله فى كليته على غيره) ، حيث كانت حكومة الوفد قائمة بالحكم فى الفترة من أوائل عام ١٩٥١إلى يناير ١٩٥٢ ، بلغت جرأة صحيفة مصر الفتاة التى كان يصدرها الراحل " أحمد حسين " إلى الحد الذى جعلت " المانشط " الرئيسى لها مرة : (الثورة ٠ الثورة ٠ الثورة) ، وعديد من الموضوعات والعناوين التى سارت على النهج نفسه ، فكانت تقابل بالمصادرة ، لكن كان أحمد حسين يرفع قضية ضد الحكومة أمام مجلس الدولة متظلما من مصادرة الجريدة وإيقافها ، فيحكم المجلس لصالح الرجل ضد الحكومة ، وأثناء الوقت الذى تستغرقه القضية ، كان صاحبنا يستطيع أن يستثمر قانون الصحافة الليبرالى فيصدر جريدة أخرى ، وعلى الفور ، باسم آخر ، فتكون النتيجة أن يصبح مُصدرا لجريديتن ٠ ويتكرر أمر المصادرة ، فتتكرر الحكاية ، ويصبح مُصدرا لثلاث صحف ٠٠٠كان صدر الليبرالية يتسع لمثل هذه الوقائع التى ما أن أتذكرها حتى يخيل إلى أننى أحكى "

حواديت " خرافية كانت تجرى فى بلد آخر غير مصر ، وأتساءل بينى وبين نفسى : هل نحن نسير فى اتجاه معاكس لسنة التطور البشرى ؟ كيف نتمتع بمساحة من الحرية لا نستطيع أن نستمتع بمثلها بعد أكثر من خمسين عاما ؟ عجبى!

فإذا ما عدنا على دلائل الازدهار الديموقراطى فى عصرنا الراهن فسوف نجد مظاهر تشير إلى ذلك ، إضافة إلى ما سبق أن عرضنا له من قبل...

١- كان الأستاذ " عبد العظيم مناف " قد أنشأ مركز إعلاميا فى أواسط الثمانينيات ، عن طريقه استطاع أن يصدر جريدة أسبوعية اسمها (صوت العرب) ، ولأن هذه الجريدة كانت تنهج نهج " المغايرة " ، كان لابد من إيقافها ، فماذا يكون الحل العبقرى ؟ استغلال هيمنة وزارة الشؤون الاجتماعية على الجمعيات ، واستغلال أى ثغرة قائمة فى عمل الجمعية المرصودة ، وإصدار قرار بحلها ، وبالتالى ينتفى السند الذى استندت إليه صوت العرب فى الصدور ، ومعها كذلك مجلة شهرية باسم (الموقف العربى).

٢- وكانت هناك مجلة تصدر منذ زمن بعيد ، صاحب امتياز صدورها الراحل أحمد حمزة " باشا " ، كان من وزراء حكومة الوفد التى أشرنا إليها باسم (لواء الإسلام) ، وكان حالها قد تراجع كثيرا من حيث المحتوى والمستوى والذيوع والانتشار ، واستطاع صحفيون نابهون من الإخوان أن يتفقوا مع من ورث المجلة أن يقوموا هم بتحريرها ، فإذا بالمجلة تتغير تغيرا رائعا فيذيع أمرها وتنتشر ، لكن أولو الأمر ، زعماء الديموقراطية " الأزهى " لم يستطيعوا أن يتحلموها ففعلوا ما فعلوه ، حتى قبرت المجلة وخفت صوت صادق أمين ، وأطفئت أنوار شعلة فكرية ، وفى الوقت نفسه ، لم يرتفع صوت واحد من أصوات الذين يبدون فزعهم من مصادرة رواية ، بنقد لما حدث ؟!!

٣- أحرص أشد ما يكون الحرص، مثل ألوف من القراء ، على متابعة ما يكتبه الكاتب العبقرى حقا " فهمى هويدى " على صفحات الأهرام ، وأحيانا ما يجئ يوم الثلاثاء فلا نجد مقاله ، فأعلل ذلك باحتمال أن يكون الرجل على سفر أو فى أجازة ، أو مريضا ، أو ما إلى هذا وذاك من احتمالات ، ثم إذا بى مرة أتصل به سائلا عن سبب خلو أهرام ثلثاء ذلك الوقت من مقالِه ؟ فإذا به يقول أنه كتبه وبعث به إلى الجريدة كالعادة ، لكن لسبب ما منع نشره ، وأنه لا يترك أسبوعا أبدا - على وجه التقريب - دون أن يكتب المقال · لكن صحفا أخرى فى مصر تنشره ، نقلا عن جريدة أخرى تنشر المقال نفسه - باتفاق - فى اليوم نفسه ، ونقرأ المقال ، فنجده - غالبا - أشد روعة ، لكن أفكاره الجريئة لم تجد من يتحملها من داخل النظام ، مع أنها عندما نشرت فى صِحف أخرى ، لم تخرب الدنيا ، وظل النظام قائما دون أن تطرف له عين أو تهتز له شعرة ! والشئ نفسه يحدث مع بعض مقالات الأستاذ " صلاح حافظ " ··· ويحار المرء حقا من الموقف إزاء الرجلين ، ولو قمنا باستفتاء بين القراء لوجدنا للكاتبين مكانة وتقديرا عاليين ، فهل لأنهما كذلك يحدث مع ما يكتبانه ما يحدث ؟

٤- وعلى الرغم من تقديرنا لمساحة الحرية فى العهد الملكي أكثر من تقديرنا لمثلها فى عهد ثورة يوليو ، إلا أننى أتذكر عجبا آخر ، يجعلنى لا أتصور ، أنه بعد ما يقرب من خمسين عاماعلى وجه التقريب لا أرى مثل ما كنت أراه ! فعندما كنا ندرس فى كلية الآداب بجامعة القاهرة فى أواسط الخمسينيات ، كانت جدران الكلية تزدحم بما كان يسمى " مجلات الحائط " ، وكانت المنافسة بينها شديدة ، وكنا نتزاحم للوقوف أمام بعضها طلبا لقراءتها ···صحيح أنها لم تكن تتعرض لنظام الحكم ، لكنها كانت توجه انتقادات حادة إلى كثير مما كان يحدث

فى الكلية والجامعة ، دون أن يتعرض لها أحد ٠ وأجول بعيناى اليوم بين جدران الكليات الجامعية ، فلا أرى مثل هذه الظاهرة الجميلة الرائعة التى اندثرت ٠

٥- بدلا من ذلك أرى ما لم أره أيضا لا فى العهد الملكى ، ولا حتى فى عهد الثورة ، على الرغم من عشرات الكتابات التى رفعت فى وجه اتهامات بالقهر والاستبداد ، هذه الظاهرة الجديدة ، هذا الحصار المستمر طوال العام الدراسى ، من مصفحات وجنود وضباط الأمن المركزى تخرج لسانها لهؤلاء الأساتذة فى كلية الحقوق ٠٠على بعد أمتار ، يعلمون الطلاب عن الدساتير وحقوق الإنسان والنظم الديموقراطية ، وتخرج لسانها لأساتذة التربية وهم يُعلمون من سوف يتولون أمر تربية مئات الألوف من أبنائنا فى المدارس ، كيف أن المناخ الديموقراطى هو السبيل الأساسى لحسن تكوين شخصية تتسم بالقدرة على التفكير الناقد والقدرة على التعبير الحر ٠٠تخيل نفسك وأنت تحدث طالبا عن مثل هذا ، بينما يشير لك الطالب إلى " السيف " القريب سنتيمترات من رقبته ؟!

٦- فإذا ما جئت إلى الانتخابات الخاصة بمجلس الشعب ، فسوف تجد فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، والحديث فيها يطول ، عن قرى كانت تحاصر حتى لا يخرج منها أحد لممارسة حقه الانتخابى لعلم سابق لدى المختصين بأن هؤلاء سوف يقفون بجانب مرشح تعتبره الحكومة عدو لديد ، رغم أنه مصرى ابن مصرى ، لم تسجل عليه أبدا جريمة من الجرائم ، لكن مصيبته الكبرى أن يكون من تيار له جذور بين الناس ، وله انتشار ونيوع ٠٠٠هذه هى معايير محاربته ، ومن هنا حدث ما حدث مع السيدة جيهان الخلفاوى فى دائرة الرمل بالاسكندرية ، فى انتخابات ٢٠٠٠ ، مما هو مشهور ومعروف

مما يندى له الجبين • أما هؤلاء الذين " فلتوا " واستطاعوا أن يخترقوا الحصار ويصلوا إلى الجماهير وتصل الجماهير إليهم ، فتبوأهم مراكز فى المجلس ، فإنهم يظلون شوكة فى جنب الحكومة ، وعظمة فى حلقها ولابد من التفكير فى التخلص منها ، أو على أقل تقدير فى اقتطاع أجزاء منها ، فكان ما كان لنائبين ، •• إنه حقا أزهى عصور الديموقراطية •

شروخ فى جدار الديموقراطية

يبدو أننى فتحت " خُراجا " كلما أخرجت " صديدا" ، جاء غيره ، لأنه متضخم ، وطال به الزمن ، دون علاج جذرى ، إلا أن يكون تسكينا هنا أو هناك ، حركة ظاهرية توحى بأن الماء الذى بالإناء فوق النار به " لحم " يُطهى " فيسكت الأولاد عن البكاء جوعا، دون أن يدروا أنه ماء لا يسمِن ولا يغنى من جوع !

١- شاع فى الآونة الأخيرة ، وخاصة بعد تشكيل الوزارة الأخيرة بأن الحكومة هى حكومة الحزب الوطنى ، وليس الحزب حزب الحكومة ، والفرق كبير بين التعبيرين ، بناء على أن عددا كبيرا من الوزراء جاء من لجنة السياسات التى يرأسها جمال مبارك ، لكن هذا غير صحيح ، ففرق كبير بين شخصية لها نفوذها المعروف بحيث يرجح مجموعة اختيارات معينة وبين أن تكون الاختيارات نتيجة مداولات ، وتدريبات ، ومشاورات قامت بها لجان الحزب ومستوياته ، وأخشى أن أقول أن المسألة تحولت إلى أن شخصا كان له ثقل كبير فى عملية الاختيار وليس الحزب • والتعبير الخاص بأن الحزب حزب حكومة وليست الحكومة حكومة حزب أبرزناه عنوانا لمقال سبق لنا أن نشرناه عام ١٩٨٧ فى جريدة " الشعب " •

٢- إن هذه نتيجة طبيعية لخلل هيكلى شاب ظهور هذا الحزب كما هو

معروف : فلم ينشؤه جمع من السياسيين المتمرسين بالعمل السياسى ، وهم بالشارع ، ثم خاضوا الانتخابات وفازوا فكلفوا بالحكم ، ولكن رئيس الدولة " السادات " ، وهو فى قمة السلطة أعلن عن تشكيل حزب ، ووجه الدعوة إلى من يريد الانضمام ، فحدث ما حدث مما يؤسف له ، وهو " هرولة " عدد غير قليل من المنافقين ، والطامعين ، والمذعورين ، وكدابى الزفة إلى الانضمام ، ولما عبر الراحل مصطفى أمين عن هذا الأمر المؤسف ، كان جزاؤه المنع من الكتابة للبرهنة على صدق اسم الحزب " الديموقراطى " ، ونشأة مثل هذه هى نشأة مشوهة ٠٠٠فى حجر السلطة فى أعلى مستوياتها ٠٠٠نشأ مفروضا ، شعاره " ما أُريكم إلا ما أرى " !!

٣- وأنت بعد ذلك لا تدرى حقا الفوارق بين الحزب وبين الدولة ، فإذا كان الوزراء جميعا من الحزب ، فهكذا تجد المحافظين ، ورؤساء الجامعات ، وجملة القيادات فى مختلف القطاعات ، والأمر المألوف هو أن الإنسان لا يكون عضوا فيُختار ، ولكن يقع عليه الاختيار فى كثير من الأحيان ثم يُطلب منه أن " يملأ استمارة العضوية " كى يستكمل الشكل ، حتى أنى أعرف بعضا ممن كانوا معروفين بانتماءات فكرية مخالفة تماما ، لكن طمعا فى هذا الموقع أو ذاك طلب منهم أن " يملأوا الاستمارة " حتى يكون الطريق ممهدا بعد قليل لأن يتم المراد ٠ وهذا التداخل بين الحزب والدولة يؤدى بدوره إلى إبعاد احتمالات متعددة بأن يشغل عضو فى حزب آخر فى موقع مرموق فى أجهزة الحكومة ، وهذا بدوره يعنى أن الأحزاب الأخرى لن تجد لها جمهورا يقبل عليها ، فى ظل موروث ثقافى واجتماعى فى مصر يقدس السلطة ، خاصة وأنها دائما ما تكون هابطة عليه من أعلى ، لا سبيل لدفعها ، كأنها من مظاهر القضاء والقدر لا سبيل إلى إزاحته ، وأقصى ما نملك أن ندعو الله باللطف فى هذا ٠

٤- منذ سنوات كان أحد المسارح يعرض مسرحية للممثل الكوميدى " سعيد صالح " ، لا تسعفنى الذاكرة باسمها مع الأسف الآن ، لكننا تصوره رجلا ساذجا ، يُطلب منه الاستعداد على السرير تمهيدا للكشف الطبى " المزيف " عليه ، وجاءت إشارة إلى " جورب " خيوطه من " الأستيك " ، فسماه " أستيك منه فيه " وهو تعبير أتذكره فورا كلما تأملت كيفية اختيار أعضاء مجلس الشعب من الحزب وكيفية ترشيحهم لرئيس الدولة ، فقبل الانتخابات يجهزون قوائم بالمرشحين للانتخابات ، تعرض على رئيس الحزب الذى هو رئيس الدولة ، وعندما ينجحون - غالبا - ، ويجئ أوان تجديد فترة رئاسة الدولة ، يقوم هؤلاء الذين رشحهم هو باختياره هو ، لعرضه على استفتاء عام معروفة نتائجه سلفا ، ولا يتم انتخاب بين عدة مرشحين ، كما هو الشائع فى الديموقراطيات النيابية ٠

٥- وعندما يتم تعيين وزراء جدد ، تجد أن الشائع ، هو ألا يكونوا متمرسين من قبل بالعمل السياسى ، وحضور سابق فى الساحة معروفة آراؤهم سلفا ، ولا يعرف أحد لماذا تم اختيار هذا وذاك ، بل يكتفون ، عند الإعلان عن التعيين ، بنشر نبذة مختصرة عن تطورهم الوظيفى ، تماما كما يحدث لأى خريج عندما يسعى للتعيين فى إحدى الوظائف ٠ وأثناء عمل الوزير ، قد تكشف الأيام عن سوء سياسته وإدارته ، وتفوح الروائح غير الطيبة ، وتفيض الصحف نقدا وكشفا ، لكن لا حياة لمن تنادى ! وكأن المسألة مسألة " معاندة " حتى لا يبدو النظام الحاكم خاضعا لأجهزة الرأى ٠٠ إنه يتحرك فقط إذا وصلت المسألة إلى ذروة الحرج ، كما حدث للراحل زكى بدر وضبط متلبسا باستخدام أقبح الألفاظ لصفوة رجال مصر غير الحكوميين ، فى جمع عام وعلى الملأ ، ويبدو أن ما فعلته جريدة الشعب فى هذا ، ظل مخزونا فى ضمير السلطة ، سنوات إلى أن حانت الفرصة لوأدها ٠٠ إذا كيف تستمر جريدة

استطاعت - لأول مرة فى تاريخنا المعاصر - أن تجبر السلطة على أن تزيح وزيرا بناء على ما قدمته من بيانات ؟ وظلت الجريدة نفسها (الشعب) عاما كاملا تفضح الكثير مما يتصل بسياسة يوسف والى ، دون أن تهتز شعرة فى رأس السلطة ، بل هى التى نالها العقاب ، وبعد عامين وصلت الرائحة عن طريق رجال يوسف والى للقضاء ، فكان لا مفر من تغييره بعد مرور أكثر من عشرين عاما •وعلى العكس من ذلك ، إذا شاع حب للناس تجاه وزير ، تجد ذلك مبررا لأن يتم إقصاءه ، مثلا : أحمد رشدى ، وأحمد جويلى ، وغيرهما •وهكذا لا نعرف لماذا عُين فلان ، وعندما يخرج هذا وذاك لا نعرف : لماذ خرج ؟ كأن الأمر لا يعنينا ، فهى ليست بلادنا ، وإنما نحن مجرد " مماليك " !

٦- ومن المعروف أن النقابة تنظيم شعبى من الطراز الأول ، يضم أعضاء مهنة ما ، يقوم على تنميتهم مهنيا والمحافظة على آداب المهنة ، والدفاع عن حقوق المنتسبين إليها ، وأداء عديد من الخدمات إليهم ، من حيث العلاج والسكن والترفيه والمعاش وما شابه هذا وذاك ، ويتم اختيار إدارة النقابة بالانتخاب المباشر •ولأن أعضاء النقابة هم من شرائح هذا الشعب ، كان طبيعيا أن ينفعلوا بقضاياه السياسية والاجتماعية ، فتشيع بينهم اتجاهات فكرية متعددة ، وإن كان يفترض ألا تضفى هذه الاتجاهات على عملهم النقابى • لكن ما يعيشه المجتمع المصرى من صور اختناق تواجهها تياراته الفكرية ، فلا تجد قنوات تعبر من خلالها عن مواقفها ، من خلال أحزاب ، وما يحدث فى انتخابات مجلس الشعب من تعمد تغييب من لهم مواقف فكرية ملحوظة تختلف عن توجهات النظام الحاكم ، يجد كثيرون النقابة فرصة للتعبير تحت مظلتها عن توجهاتهم الفكرية ، حيث أيدى السلطة بعيدة عن فرص الاختيار والإقصاء • وتكون النتيجة أن تجئ انتخابات النقابة وكأنها انتخابات

سياسية فيعلن عن فوز أنصار هذا الاتجاه أو ذاك• هنا تصاب السلطة بفزع شديد ، لا لمجرد فوز تيار لا تريده ، ولكن لأن الانتخابات النقابية ، أصبحت " ترمومترا " يعبر عن درجة حرارة الجسم السياسى المصرى الحقيقية ، وينكشف الغطاء عن الجسم الحكومى فيبدو عاريا مكشوف العورة • هنا لابد من التحرك ، فيطبخ قانون ، فى محاول لتحجيم الاختيار النقابى ، فإذا لم يحدث ، يُحرك هذا أو ذاك فى شكوى بأن نقابة كذا أو كذا بها انحرافات ، فيتم فرض الحراسة ، وتصبح النقابة ، إن لم يكن تحت إمرة السلطة ، فعلى الأقل ينسد الباب أمام هؤلاء الذين ينتمون إلى القواعد الشعبية الغفيرة•

•••ولا عزاء للديموقراطية!

قال محدثى معاتبا : كيف تكتب عن سلبيات وشروخ فى جدار الديموقراطية فى مصر ، مع أن كتابتك هذه نفسها دليل دامغ تكذب ما تدعى ، فها أنت تكتب كلاما لو كتب فى كثير من الدول العربية ، لكان مصيرك مما لا تحمد عقباه ، هذا إذا افترضنا أن تملك صحيفة الجرأة فى نشره •

كان جوابى أننى لا أستطيع أن أنكر هذا ، ولكن القيمة الحقيقية للديموقراطية لا تقف فقط عند حد أن تقول ما تريد ، ولكنها تكتمل كذلك إذا ما وجدت آذانا صاغية لما تقول ، أو بعضه ، أو مرة ، دون عشرات ، وها أنذا أكتب فى الشأن السياسى منذ عام ١٩٨٤ على وجه التقريب ، مما يصل إلى مئات المقالات ، ومع ذلك فلا صدى لما أكتب بأى صورة من الصور • وقد يكون هذا بسبب " تفاهة " ما أكتب ، أو ابتعاده عن قضايا الناس ومشكلاتهم ، لكن هذا الاحتمال لا ترجح كفته ، بدليل ما أسمعه من ردود فعل " القراء " عبر هذه الفترة الزمنية الطويلة نسبيا •

إن هذه الصورة الحادثة هى ما أسميته منذ فترة طويلة فى مقال لى بجريدة (الشعب) :حرية النباح ! اعتمادا على مقولة أخذت حظها من الشهرة : دعهم

يقولون ما يريدون ، وسوف نفعل نحن ما نريد ٠٠الكلاب تنبح ، والقافلة تسير!!

وهكذا كان من الضرورى أن أكمل الكشف عن زيف " أزهى عصور الديموقراطية" :

١- فمنذ فترة بسيطة ، كتب الدكتور رفعت سيد أحمد مقالا فى جريدة الحزب الوطنى (اللواء الإسلامى) عن خرافة ما تحرص الصهيونية على ترويجه منذ الحرب العالمية الثانية عن محرقة أقامها النازيون الألمان لملايين من اليهود ، أو على أقل تقدير ، المبالغة المفرطة فى تقدير عدد من تعرضوا لذلك ، ولم يكن د٠ رفعت أول من شكك فى هذه المحرقة ، فقد شكك فيها آخرون ، أشهرهم المفكر الفرنسى الشهير روجيه جارودى ، لكن كان نصيبه المحاكمة والتشهير ٠ وُوجه ما كتبه رفعت بفزع صهيونى ، كنا نعيب على بعض البلدان الغربية أن تنصاع للضغط الناتج عن هذا ، فإذا بنا نصل إلى يوم أغبر ، يقوم فيه رسميون على مستوى وزير ، هو وزير الإعلام ، بكتابة مقال يكذب فيه ما كتبه د٠ رفعت ، ويبدى أشد الأسف للصهاينة المظلومين ! أى والله ٠ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل تم عزل رئيس تحرير المجلة إرضاء لمن اغتصبوا أرضنا وقتلوا ألوف المصريين ، ودمروا جيشنا مرتين ، وهزمونا ثلاث مرات ، وكلفوا شعب هذا البلد مليارات من الجنيهات ، ظللنا ننزف من جرائها من عام ١٩٨٤ ، حتى الآن ٠٠٠أى هوان بلغ بنا ؟ " ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا""!!

٢- محمد حسنين هيكل ، مهما اختلفت معه ، فلن تستطيع أن تنكر أنه " ظاهرة " فريدة فى تاريخ مصر ، بل والعالم العربى ، لم يكن له مثيل لا من قبل ولا من بعد ٠٠هو ساحر الكتابة ، من أول سطر تقرؤه له ، لا تدرى بنفسك فإذا بك تصل إلى السطر الأخير وكأنك منوم تنويما

مغناطيسيا ! هذا الكاتب " التاريخى " ، العملاق ، الذى يسعى الملوك والأمراء والرؤساء إلى مقابلته ، والذى تلهث وراءه دور النشر الكبرى فى كثير من دول العالم ، وكبريات الصحف ٠٠٠ لا يجد المجال متاحا له فى مصر ، وهو الحريص على ألا يغادر مصر ، وحريص على أن تنطلق كتاباته من مصر : دعوه مرة فى معرض القاهرة للكتاب ، وتجمع لسماعه جمع لم يألفه أى منتدى للفكر ، ويبدو أن هذا قد أخاف أعداء الديموقراطية ، فتراجعوا بعد ذلك عن دعوته ، وفضلوا أن يدفعوا أموالا طائلة لاستضافة آخرين من دول أخرى ! و دعته منذ سنوات ، الجريدة التى نشأ فيها وهى أخبار اليوم للكتابة المنتظمة ، وكتب الرجل مرة أو مرتين ، ثم أصيبت التجربة بالسكتة القلبية ، ولم يكن هذا تراجعا من الجريدة بقدر ما كان ضغطا عليها لم تستطع معه إلا أن ترضخ ، فما هذه القوة التى تملك أن توقف جريدة كبرى أن تفتح صفحاتها لكاتب يتشوق إلى القراءة له مئات الألوف من القراء ؟ وفتحت له قناة خاصة الباب ليطل على مشاهديها ، ونجحت أحاديث الرجل نجاحا مذهلا كالعادة ، ثم إذا بالقناة تتوقف عن استمرار التجربة ، فهل يعقل أن تتخلى قناة خاصة عن موضوع مثل يجذب إليها ملايين المشاهدين ، وبالتالى كما مذهلا من الإعلانات ؟ وكان أن هاجر الرجل إلى قناة الجزيرة ، وهرع معه ملايين من مختلف أنحاء العالم العربى ، ويردد كل منا : زمار الحى لا يطرب !

٣- وتتكرر القصة نفسها مع الإعلامى اللامع حمدى قنديل ٠٠كان الرجل يعمل بقناة A.R.T ، وكان برنامجه ناجحا للغاية ، لكن لظروف ترك القناة ، وفرحنا أن أعلن التلفزيون المصرى أنه أولى باستضافة ابنه المصرى الوطنى ،وأخذ الرجل يطل علينا من خلال برنامجه الرائع

(رئيس التحرير)٠٠٠لكن تلفزيوننا لم يستطع تحمل جرعة الحرية التى مارسها حمدى قنديل ، والتى شدت إليه مئات الألوف من المتعطشين للأحاديث التى تكشف الحقائق ، وتعلو نبرة الصدق فيها والإخلاص ، وبدأت مضايقات تلو مضايقات حتى نجحت بالفعل فى تطفيش الرجل٠ تلقفته قناة خاصة مصرية ، وانتقل إليها ببرنامجه (رئيس التحرير) بنفس الشجاعة التى تسعى وراء الحقيقة ، وتلتزم الأمانة والصدق ، لكن أزهى عصور الديموقراطية لم يتحمله ، ولا نستطيع أن نتصور أن القناة الخاصة نفسها هى التى " طفشته" ، فقد ارتفعت أسهمها كثيرا بالبرنامج ، وعلا قدرها بين الناس الذين التفوا حولها يسمعون ويشاهدون ، المرجح أن جاءهم صوت من بعيد:بلاش هذا الرجل ، وإلا ؟٠٠٠

٤-وفى عام ٢٠٠٠ ملأت وزارة التعليم العالى الدنيا ضجيجا بمؤتمر ضخم عقدته ، عازمة أن تحول بحوثه وقراراته ومناقشته إلى مجموعة من البرامج لإصلاح وتطوير التعليم العالى فى مصر ٠ فرحنا بطبيعة الحال ، فإذا بأول وأسرع خطوة ، عبر عنها قانون تم إصداره بسرعة غريبة ، يتعامل مع قدامى الأساتذة إلى منطقة الظل ، كأنهم " خيل الحكومة " معبرة بذلك عن نظر مراهق قاصر ، يتعامل مع العلماء والمفكرين كما يتعامل مع أى موظف ، كاشفا بذلك عن مفهوم فضيحة ، أن العالم والمفكر ، إذا تعدى الستين من العمر ، أصبحنا فى غير حاجة إليه بالضرورة إلا إذا قدم طلبا بذلك ، ويُعامل بصورة غير كريمة ماليا ٠ وكان هذا أقصى ما وصلنا إليه من تطوير للتعليم العالى ؟ المهم ، ليست هذه هى القضية ، وإنما القضية أن الدكتور عبد العظيم رمضان ، المؤرخ المشهور ، كان له مقال أسبوعى يوم السبت فى الأهرام ، فكتب مقالا شديد اللهجة ينتقد فيها

القانون ، وهذا حقه ، وينتقد كذلك الدكتور مفيد شهاب وزير التعليم العالى السابق ، فإذا بنا نرى عجبا : توقف المقال الأسبوعى الذى كان يكتبه مؤرخنا الكبير ، وبرزت علامات استفهام كبرى ، هل بلغت معارضته للقانون إلى هذه الدرجة التى استحق معها أن يوقف عن الكتابة المنتظمة بالأهرام ؟ أشك فى أن ذلك كان بفعل إدارة الأهرام نفسها ، فكم من صور نقد لا تقل شدة كتبها كتابها فى قضايا أخرى ، وأقصى ما كنا نراه ، منع المقال مرة أو اثنين ، لكن الكاتب يظل مستمرا ، فما تفسير هذا الذى حدث للرجل ؟ !

وأسدل الستار!

...لأنها - الديموقراطية فى مصر "- مسرحية " ، والمسرحية ليست بالضرروة مصورة لواقع نعيشه ، فقد حان وقت إسدال الستار إعلانا بانتهاء الحديث عنها ، دون أن يعنى هذا أنها انتهت بالفعل ، فمنذ ثلاثة أيام شهد مسرح المؤتمرات بطريق النصر أحد فصول المسرحية حيث انفرد حزب الحكومة ، والذى أصبح ذا صفة أخرى وهى أنه حزب رجال الأعمال ، بعرض مسرحيته السنوية ، مصرا على احتكار أجهزة الدولة فى الترويج لما يقول ، وخاصة من خلال أجهزة التليفزيون والإذاعة والصحف الرسمية ، وهو ما ينطق بصراحة ووضوح بتناقض هذا مع تلك الصفة الملصقة باسم الحزب " الديموقراطى " ، حيث لا تستطيع الأحزاب الأخرى كلها مجتمعة أن تحظى بأى نسبة من تغطية أجهزة الإعلام ، وإنما يحدث العكس ، إذ تقوم أجهزة الأمن بالتضييق والمحاصرة ، أما أجهزة الإعلام فهنا تنسى مقولة ": التنوير " ولا تتنكر إلا مقولة " التعتيم " ، وهو ما يقوم على افتراض مؤداه : " أنا وحدى الذى أرى الحق كله ، أما الآخرون فهم - بطبيعتهم - فاقدو البصر لا يرون ، وخلقهم الله صم بكم فهم لا ينطقون ، وأهم من ذلك لا يملكون أهلية التفكير والتدبير لنقص فى قواهم العقلية! "

وإذ أقول أننا سوف نسدل الستار بالمقال الحالى ، فلا نقصد أن ما سوف نشير إليه من نقاط هو " آخر " المسائل ، كلا ، فما زال هناك كثير ٠٠٠لكننا نشفق على القارئ من أن ينتهى إلى شعور باليأس والإحباط ، وهو أخطر ما يمكن أن يصيب الروح الوطنية ، الأمر الذى لا يمكن أن نريده أونقصد إليه، وإنما العكس هو الصحيح ، فنحن نؤمن بسنة الله تعالى القاضية بأن الليل كلما اشتد ظلامه كان هذا إيذانا بفجر جديد !:

١- فى إحدى الكليات ، منذ أعوام عدة ، كنت فى مكتب عميدها ، فإذا بطالب يلح فى طلب مقابلة العميد ، فلما أذن له ، إذا بالطالب ينطلق فى حديثه ، يغالب دموعه أن تفضحه ٠ كان مما قاله أنه تقدم يريد ترشيح نفسه لانتخابات اتحاد الطلاب ، الذى هو تنظيم " شعبى " يسعى إلى تدريب الطلاب على الممارسة الديموقراطية فى أشكال وصور مختلفة ، ويسعى إلى تحقيق عدد من الخدمات للطلاب ، ويشعرهم بأنهم يتولون كثيرا من أمورهم بأنفسهم ، ولكن الطالب فوجئ بشطب اسمه : أخذ يسأل العميد : أنا أعرف أن الحكم باستبعادى قد صدر ، لكن من حقى أن أعرف لم تم استبعادى ؟ أنا أنجح دائما بتقدير عام جيد جدا ٠٠٠اسألوا زملائى فى القسم ، لن تجدوا أحدا يمكن أن يقول أننى آذيته بحركة أو بكلمة ٠٠٠لم أذهب إلى أى قسم شرطة ، ولم تسجل ضدى أى تهمة فى أى وقت ٠٠قولوا لى : لم تم استبعادى ؟ إن كنت حرمت من حقى فى تمثيل زملائى فأرجوكم لا تحرمونى من حق المعرفة !!

كان مشهدا أذهلنى حقا ٠٠٠لكن ما أدهشنى أكثر ، وهو رد العميد نفسه الذى أجاب مقسما بالله أنه لا يعرف أيضا ، فهو بعيد عن عمليات الموافقة والاستبعاد ، فلما أجاب الطالب : أليس من أصول الديموقراطية التى تعلموننا إياها أن أصوات زملائى الطلاب هى التى تقوم بالموافقة أو الاستبعاد ؟ ضحكنا ٠٠كان ضحكا كالبكا !

لو سألنا الذين " عملوا دى العملة " فسوف نسمع الإجابة التاريخية المعروفة

منذ قرون من قبل سلطة الحكم : أن ذلك إنما لحماية القواعد الجماهيرية من شرور هذا وذاك !

وكأن الطالب قد سمع أصواتنا الداخلية وهى تفكر فى هذا ، فقال : اتركونى أقوم بدورى ، وإن بدر منى شئ ، فلديكم القانون ٠٠حاكمونى على خطئى المفترض ، أما أن تصدروا حكما على شخصى بغير محاكمة فهذا والله ظلم وأى ظلم !

٢- وإذا كان الطلاب قد حرموا من ممارسة الديموقراطية فى حقيقتها وجوهرها ، فلم يكونوا هم وحدهم الضحية ، فأعضاء هيئة التدريس أنفسهم المطالبون بتربيتهم وتعليمهم الديموقراطية قد حرموا منها فى مظهرين شهيرين :

أ -أولهما من خلال ما يعرف بنوادى هيئة التدريس ، فميزتها أنها أيضا تنظيم "شعبى " يقوم فيه أعضاء هيئة تدريس الجامعة باختيار ممثلين عنهم يقدمون أنشطة تسد احتياجات ترفيهية ومعاشية واجتماعية واقتصادية للأعضاء ، فهو بعيد عن أيدى السلطة ، ولذلك كان الفائزون فى الانتخابات يمثلون الرغبة العامة بالفعل ، ولأن هذا كان عملا ديموقراطية حقيقيا ، لم تتحمله السلطة ، ذلك أن هذه النوادى وجدت أن الهم العام للوطن يقع فى دائرة نشاطاتهم ، فكانوا ينظمون محاضرات عامة تتناول هموما سياسية عامة ، وكان لها دوى كبير إلى درجة أن تناولتها أجهزة إعلام خارجية ٠ هنا جن جنون السلطة ، فنتائج انتخابات هذه النوادى تكشف عن الاختيارات الحقيقية لفئة ضخمة من المواطنين يمثلون نخبا علمية وفكرية وثقافية ، وكونهم يختارون أعضاء من غير المسايرين للسلطة ، فهذا يكشف عن حقيقة شرعية الحكومة ، فضلا عن هذا الذى يقال ويذاع من أفكار واتجاهات وآراء تختلف كثيرا عما تريده السلطة ، فكان من الضرورى أن يسرع مفتو السلطة بحل عبقرى يخضع هذه التنظيمات الحرة لرقابة السلطة ٠٠قالوا أنها تخضع لقانون الجمعيات التى تراقبها وزارة الشؤون الاجتماعية ، وقانونها يحرم الكلام فى السياسة ، ولابد من رقابة الوزارة فى كذا وكذا

...وشعر الناس أن الحكومة وراءهم وامامهم ، ومن فوقهم ومن تحت أرجلهم ، فينتفى بذلك الطابع الحقيقى للنوادى ، فبدأ الانصراف عنها ، واستطاعت السلطة بالتالى أن تقدم رجالها ليكى يفوزوا ويقودوا رغم أنف الديموقراطية !

ب -أما الأمر الآخر ، فهو ما تم بالنسبة لاختيار العمداء ، حيث كان القانون يقضى بأن يقوم أساتذة كل كلية وأقدم أستاذ مساعد وأقدم مدرس باختيار ثلاثة يرشحون لمنصب العمادة ، ثم تقوم قيادة الجامعة ممثلة فى رئيسها باختيار أحد الثلاثة . كان النص نفسه الأصلى معيبا ، فالقول باختيار " ثلاثة " حتى تظل الفرصة متاحة للسلطة أن تستبعد وتقصى من لا ترضى عنه ، ومع ذلك كنا نقول شئ خير من لاشئ ، لكن ، فى الوقت الذى تتعالى فيه أصوات الديموقراطية فى العالم ، ونشهد تقدما على طريقها هنا وهناك ، يأبى أولو الأمر عندنا إلا أن يسيروا عكس التيار ، فألغى - منذ عام ١٩٩٤- حق اختيار العمداء من أيدى أعضاء هيئة التدريس وأصبح حقا مطلقا لرئيس الجامعة ، وبطبيعة الحال ، السلطات الأمنية .وبذلك تعلن الدولة أنها ترى أن أعلى سلطة معرفية فى مصر ، ألا وهم أساتذة الجامعات لا يملكون القدرة على التفكير والاختيار..هم علماء فى كذا وكذا من تخصصات علمية...لكنهم يظلون قاصرين فى التفكير العام الخاص بحاضر الوطن ومستقبله ، وأن السلطات الأمنية أقدر منهم على ذلك فلديها الملفات الكاملة عن هذا وذاك ، وبالتالى هى التى تملك حق المعرفة ، ومن ثم تملك حق اختيار من يصلح ، لكن السؤال هو : يصلح لماذا ؟ عندما كان الواحد منا يقف موقف الاختيار كان يفكر فى جوانب عدة ، مثل علم الرجل ، وقدرته على الإدارة ، حسن خلقه ، ، موقعه من القلوب ..وما سار على هذا الطريق ، لكن هذه المعايير لم تعد مرادة ، ذلك أن المهم : هل يملك ما ترضى عنه السلطة أو لا ؟

إنه حقا أزهى عصور الديموقراطية ...

فاشية بوش ...
وأصولية الإسلام*!

فى أهرام الجمعة الأول من سبتمبر نقرأ خبرا ينقل قولا منسوبا إلى بوش مؤداه أن الولايات المتحدة الأمريكية تخوض اليوم حربا ضد الإسلام " الراديكالى " ، مثل تلك التى خاضتها القرن الماضى ضد النازية والشيوعية . وأكد بوش أمام الآلاف من المحاربين القدماء أن الحرب التى تخوضها أمريكا الآن ليست معركة عسكرية ، وإنما صراع إيديولوجى ستحسم نتائجه مصير القرن الحادى والعشرين .

وكان امبراطور العالم قد سبق له أن صرح منذ أسبوعين أو ثلاثة أن أمريكا تواجه اليوم خطر الفاشية الإسلامية ...

وهكذا تتوالى توصيفات بوش للإسلام والخطر الإسلامى ، وهو نفس الإسلام الذى وضع يده فى يد أتباعه على ارض أفغانستان إبان الاحتلال السوفيتى ، وكان بن لادن وأمثاله من أكبر الحلفاء ، ولم لا ؟ فالمسألة ليست مسألة مبادئ كما هو معروف ، وإنما هى " مصالح " ، ونحن لا نعترض على ذلك ، فهذا هو واقع السياسة الدولية ، لكن ما نعترض عليه هو " التضليل " و " الكذب " اللذين يمارسهما سيادة الامبراطور .

صحيح أننا نسمع أن أكبر إثم ينزعج الأمريكيون منه هو " كذب " الرئيس ، حتى أنهم سعوا لإزاحة " نيكسون " عن الرئاسة فى أواسط السبعينيات ، بسبب زعمه أنه لم يتجسس على الحزب الديموقراطى ، ثم ثبت أنه تجسس ، لكن يبدو أن بوش ، إنما يطبق النهج نفسه الذى كان سائدا فى أحد نماذج الحضارة الغربية فى العصور القديمة ، وهو نموذج " اسبرطة " ، فقد كان من القوانين

---

* جريدة المصريون الإلكترونية فى ٢٠٠٦/٩/٦

المعمول بها أن السارق إذا ضبط ، يعاقب عقابا شديدا ، لكن لا لأنه سرق ، وإنما لأنه ضبط ، فهذا دليل على " خيبته " ، ولو كان " حويطا " و " ذكيا " لسرق من غير أن تضبطه الدولة ، فعندها يكون مواطنا صالحا ، وذلك على غير ما يسير عليه الإسلام " الفاشى " - كما يزعمون - الذى ينصح تابعه عندما يهم بمعصية ، بعيدا عن الأعين ، بأنه إذا لم يكن يرى الله فيخاف منه ، فإن الله يراه ، وليعمل حسابه حتى لا يغضب عليه !

وهكذا ، لا يصح أن يكذب سيادة الرئيس على الأمريكيين ، لكن يجوز أن يكذب على العالم ٠٠٠بل - وفيما يبدو - يصح أن يكذب على الأمريكيين أنفسهم ، لكن ليس فى شأن من شئون حياتهم المحلية ، وإنما فيما يتصل بأحوال الآخرين ، وإلا ، فماذا فعلوا له وقد ثبت كذبه عندما أرسل وزير خارجيته قبل غزو العراق ومدير مخابراته إلى مجلس الأمن ليعلن ويشرح بالصور المزيفة أن العراق لديها أسلحة دمار شمال وأنها حصلت على مادة نووية من إحدى البلدان الإفريقية ، ليبرر غزو العراق ٠٠٠نعم ، لم يترتب على كشف كذبه الذى راح نتيجته آلاف من القتلى فى العراق ، ودمار ما عرفنا مثله !

أما الأكذوبة الأخيرة ، فهى تكمن فى هذا القياس الموغل فى التزوير والكذب من كل الوجوه ٠٠٠

فهو يتحدث عن " الإسلام " ، بينما الأمثلة التى يستند إليها هى لأفراد ، حتى ولو بلغوا آلافا ، إذ يبقى ما لا يقل عن مليار مسلم ، لا يقترفون ، ولا يقرون هذا الذى أزعجه ، ومن القواعد المنطقية أننا نقيس الرجال بالحق ولا نقيس الحق بالرجال ٠٠٠لا نؤاخذ الفكر بتصرفات بعض من يتبعونه ، ولكن نؤاخذ مثل هؤلاء بما يقول به الفكر أو العقيدة أو المذهب ، وإلا لآخذنا المسيحية بما ارتكبته ألمانيا النازية ، وبما فعلته إيطاليا الفاشية ، وبمجازر الصرب ، وتوحش مشعلى الحروب الصليبية ، لكننا لا نفعل ذلك ، لسبب بسيط : أننا نؤمن بأن المسيحية دين سماوى ، ونؤمن بكتابها ، ونؤمن بأنها لا يمكن

أن تقر مثل هذه السلوكيات التى ارتكبها ، ولو آلاف من المحسوبين على المسيحية ، دين السلام والمحبة .

لكن بوش ، فى تصورى ، لا يعلم شيئا عن الإسلام ، إلا – ربما – مقتطفات مبتورة ، قدمها له بعض معاونيه من اليمينيين الموتورين الذين يخططون ويدبرون لما يقترف على يد أمريكا الباغية .

الأمر الآخر ، هو أنه يستخدم قياسا فاسدا بالمرة ، فقد كانت كل من النازية والفاشية نزعتان عنصريتان ، ترى فى شعوبهما الرفعة والسمو ، وفى الشعوب الأخرى الانحطاط والوضاعة ، وأنهما يجب أن يتسيدا العالم ..

وما هكذا الإسلام ، فى أى تفسير ، وفى أى مصدر ...

لا يستطيع أحد أن ينكر نزعة عرقية فيه ، فهو المؤكد أن لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى ، وكان من بين صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم صهيب الرومى ، وبلال الحبشى ، وسلمان الفارسى ، فضلا عن العرب أنفسهم ، وتزوج من " مارية " القبطية المصرية !

وإذا كانت الدعوة الإسلامية ترغب فى أن يعم الإسلام العالم ، وتسعى فى نشره ، فإن ذلك وفقا لنص قرآنى معروف يقوم على الجدال بالتى هى أحسن ، و" لست عليهم بمسيطر " و " لا إكراه فى الدين " و " لكم دينكم ولى دين " ..

ولا ينبغى أن ننسى أن كلا من النازية والفاشية من نبت الحضارة الغربية ، لأنها نحت الدين جانبا ، وأبعدت الأخلاق عن السياسة والعلم ، فتوحشت فلسفتها ، وتوحشت أساليبها ، فأصبح " الإنسان " هو سيد الكون ، وليس الله ، ومن ثم تبارى أبناء كل دولة من دوله من أجل أن يتسيدوا العالم ، وفى سبيل ذلك يكون الشعار العام الغالب " الغاية تبرر الوسيلة " .

وسعت كل من النازية والفاشية إلى " الغزو العسكرى " ، بينما دول الإسلام لا حول لها ولا قوة ، وبالكاد تستطيع كل منها أن تحافظ على استقلالها – إن

استطاعت – فكيف تفكر فى غزو عسكرى واستيلاء بالقوة ، مثلما فعلت النازية والفاشية ؟

ولنسلم جدلا أن بعض المسلمين قد ارتكبوا كذا وكذا من أعمال العنف العسكرى ، وخاصة من ينتسبون إلى " القاعدة " فقتل من قتل ودمر ما دمر ...

لكن ، لو جمعت كل هذا – مع استنكارنا له أشد ما يكون الاستنكار – فإنه لن يصل إلى ما نسبته واحد إلى مائة مما ارتكبه الأمريكيون – ونترك جانبا ما فعلته دول الاستعمار السابق ، والذى لا يتسع له مقال – وأعوانهم من الصهاينة:

فمن هم الذين هربوا من بلادهم الأوربية ، واتجهوا إلى القارة الأمريكية فيطردوا شعبا بأكمله ويسرقون وطنا بأسره ؟

ومن الذى ألقى أول قنبلة نووية وقتل آلاف الناس والحيوانات والنباتات ، ودمر آلاف المنشئات على أرض اليابان ؟

ومن الذين عاونوا مجموعات من المهاجرين – مثلهم – جاءوا من بلدان شتى ، ليسرقوا أرض فلسطين وشتتوا أهلها ويستنزفون أرضها ويقتلون سكانها المتبقين حتى كتابة هذه السطور ؟

قارنوا ما فعله صدام حسين ، بما حدث على أرض العراق منذ الغزو الأمريكى ، سواء من حيث القتلى والمسجونين ، أو التعذيب والتنكيل ، أو الجرحى ، أو ما تم تدميره ، أو المليارات التى تبدد ؟

من هم الذين يحتلون الآن دول الخليج ويستنزفون أموالها ، وهناك ملايين العرب والمسلمين الذين لا يجدون رغيف عيش يقتاتون به ؟

من الذين يحمون الطغاة والمستبدين من الحكام العرب حتى يأمنوا لهم مصالحهم ، مهما ترتب على ذلك من عذابات وصور فقر واضطهاد وتعذيب وتنكيل لشعوبهم ؟

إن كل مصرى يذكر جيدا أن آلاف المصريين الذين قتلــوا فــى حــرب أكتوبر ٧٣ ، وقبلها يونيو ٦٧ ، كانت خزائن أمريكا للأسلحة تفتح بغير حساب ليقوم الصهاينة – النازيون الجدد – باقتراف ما اقترفوه من جرائم ٠٠

إن كل لبنانى ، وكل عربى ، يعلم علم اليقين أن آلاف القنابل العنقودية التى قتلت بها إسرائيل الأحياء من الناس والحيوان ، ودمرت بها البيوت والجسور ، هرعت بها وسائل نقل أمريكية إلى الصهاينة ، النازيون الجدا لكى تقتل وتدمر ٠٠٠

عشرات الأسئلة الواضحة الصارخة التى تنطق كلها بأن فاشية موسيلينى ، ونازية هتلر تكاد تتوارى خجلا أمام ما ارتكبته أمريكا ، ولا تزال ٠

أما " أصولية " الإسلام ، ففى لغتنا العربية ، فــإن " الأصــولية " تحمــل معانى طيبة للغاية ، فنحن عندما نمدح أحدا نقول أنه ابن أو بنت " أصــول " ، كما تعنى الرجوع إلى الينابيع الأولى والأصول ٠٠٠وأصول الإسلام وينابيعه هى القرآن الكريم وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وأفعال وأقوال صحابة رسول الله ٠٠٠فهى بالتالى " أصول " ، تعيد العزة والنقاء ، ترفع التحية " بالسلام " و " الجدال بالتى هى أحسن ٠٠ وتطلب الرفعة والعطاء ، وترســخ للأخلاقيــات والفضائل ٠٠٠

ومن هنا: إذا اتهمنا أحد بالأصولية فهذا شرف لا ندعيه وتهمة لا ننكرها ، على أساس دلالة الكلمة فى لغتها العربية ، ولا شأن لنا بدلالتها فى لغات أخرى ، فهى قد تعنى عند غيرنا " التطرف " و " الغلو " ، وهى سمات تتهانا عنهــا أصول الإسلام ، لأن من أصوله أنه دين الوسطية والاعتدال ٠

الحق والرجال*

لن أقول تعليقا على بعض ما ورد من تعقيبات على مقالى الأسبوع الماضى (فاشية بوش وأصولية الإسلام) أن أصحاب هذه التعقيبات يبدو أنهم لم " يفهموا " ما قصدته جيدا ، ، وذلك لأننى أومن بأن الكاتب يتحمل المسئولية الأولى فى حال ما إذا ذهب فهم بعض القراء فى اتجاه آخر غير ما يقصده ، ومن هنا أقول أننى – فيما يبدو – لم أكن واضحا بالدرجة الكافية بحيث يصل معنى ما أقول إلى الأذهان مثلما قصدت .

ودون أن التمس لنفسى العذر ، فإن ما لابد أن أوضحه هنا هو أن القضية التى ركز عليها بعض القراء الأعزاء لم تكن هى القضية الأساسية للمقال ، وهذا أشد ما حزنت له ، مما ذكرنى بموقف مماثل إلى حد ما وقع لى فى مؤتمر كبير كان قد عقد بالأردن عام ١٩٩٠ بعنوان (نحو نظرية تربوية إسلامية) ، ففى أثناء عرض دراستى التى كانت عن اجتماعية المعرفة فى التربية الإسلامية ، وكان من الأمثلة التى سقتها بيانا لتأثير السياقات المجتمعية على مجرى الفكر ، ما حدث لبعض توجهات الفلسفة فى العالم الإسلامى منذ عدة قرون ، إذ ترك البعض جوهر الموضوع وراحوا يستنكرون الفلسفة عموما وتحولت المناقشة إلى : هل يجوز الاشتغال بالفلسفة أم لا ؟

فإذا عدنا إلى مقالنا السابق ، فسوف نجد أن لبه وجوهره يكمن فى التأكيد على أن ما ترتكبه الولايات المتحدة الأمريكية ، وخاصة منذ تولى جورج بوش رئاستها هو عين الفاشية وهو عين الإرهاب الذى لا يمل من اتهام الإسلام به ، وأن خطأ بعض المسلمين لا يجوز أن ينسحب على العقيدة الإسلامية نفسها .

وكان الأساس المنطقى لقولى هذا هو تلك المقولة الشهيرة والمتداولة بين رجال

---

* جريدة المصريون الإلكترونية ، فى ٢٠٠٦/٩/١٣

الفقه أن الحق لا يقاس بالرجال وإنما الرجال هم الذين يقاسون بالحق ٠

وأنا لم أزعم أننى " أستاذ فى المنطق " حتى يجئ فى عنوان أحد المعقبين مخاطبا لى " يا أستاذ المنطق " ، لأننى ببساطة " أستاذ فى أصول التربية " ، لكن يمكن أن أقول أننى " درست " المنطق ، وهو ما تضطرنى الظروف أحيانا إلى ترديده ، وفرق كبير بين أن أدعى أننى " درست " المنطق ، وبين أن أقول أننى " أستاذ " فى المنطق ، وهذا ما لم أزعمه فى يوم من الأيام !

أما مقولة الحق والرجال هذه ، فهى بالفعل تستند إلى مبدأ منطقى متفق عليه بين أهل الاختصاص ، بل ويتسق تماما مع العقل العام ، وبيانه كالتالى :

فعندما نقول كلمة مثل " شجرة " ، فهذه تشكل " مفهوما " يجمع فى طياته جملة الخصائص الأساسية التى تتوافر فى الشجرة أيا كانت ، وتحت هذا المفهوم الكلى الجامع ، يمكن أن نجد مفاهيم أخرى أصغر مساحة فى عدد أفرادها ، كأن نقول شجرة البرتقال أو شجرة التفاح ، أو غيرهما ٠

كذلك الأمر عندما نقول " إنسان " و " حيوان " ٠٠٠وهلم جرا ٠

هذا الاسم الكلى ، نسميه " مفهوما " ، أما الأفراد الذين يندرجون تحته ، مثلى أنا وأنت وهى من أبناء بنى الإنسان ، فيسميها أهل المنطق " ما صدق " ، أى الفرد الذى يصدق عليه ما يضمه المفهوم من جملة الخصائص والمعانى ٠

من هنا يكون من غير المنطقى أن يكون " الفرد " – الماصدق – معيارا نقيس به المفهوم ، وإنما يكون المنطقى أن نفعل العكس ، أى يكون المعيار هو المفهوم نفسه ٠

ومن هنا تأتى أحد جوانب العظمة فى الفقه الإسلامى ، فهو مع إلهية مصدره ، نجده يتسق تماما مع المنطق والعقل ، وهذا ليس غريبا لأن المولى عز وجل هو الأدرى والأعلم بطبيعة تفكير مخلوقه الإنسان ، وكيف أنه الدعوة القائمة على البراهين العقلية والأدلة المنطقية تكون أسرع إلى اقتناعه ومن ثم

إلى الإيمان بها ، وهو ما يفسر كثرة المواقف التى تشير إليها كثير من آيات القرآن الكريم ، والتى تقوم على تقديم الحجج العقلية والبراهين المنطقية .

والاستناد إلى " المفهوم " للحكم على " الماصدق " أمر يبعد تماما عما تصوره أحد القراء الأعزاء من أن هذا قد يعد صورة من صور إضفاء قدسية على المذاهب والأفكار ، مما يعنى تحريم مناقشتها ومراجعتها .

هنا نقول أننا نفرق بين ما هو معروف " بالثوابت " ، وما هو معروف " بالمتغيرات " ، فالنص القرآنى الذى يقرر ضرورة أن أفعل كذا وكذا وألا أفعل كذا ، وكذلك ، السنة النبوية ، ثوابت نحتكم إليها فى تقييم هذا وذاك من الأفعال والأقوال التى تصدر من المسلمين ، بينما أقوال العلماء واجتهاداتهم وممارسات الناس على وجه العموم فى الحياة هى " متغيرات " قابلة للأخذ بها أو ردها ، أى قبولها أو رفضها .

وهناك من يخطئ الفهم الخاص " بالثوابت " كذلك ، لكننا نلفت النظر إلى أن حياة كل أمة لابد لها أن تقوم على " ثوابت " ، حتى لو لم تكن مؤمنة بعقيدة دينية ، فلها دستور على الأقل يقرر جملة القواعد الكلية التى لابد من الاحتكام إليها ، ولها " علم " يرمز إلى البلاد ، ولها سلام وطنى ، ولها حدود ، ولها ..ولها إلخ ، كل هذه " ثوابت " يُحتكم إليها .

ومن هنا فإذا قام شخص ما يقتل شخص آخر متعمدا مع سبق الترصد والقصدية ، كان للقاضى أن يحكم بإعدام القاتل ، بالاحتكام إلى القانون الفاصل فى هذا الشأن ، وهذا يعنى أن القاضى هنا يحتكم إلى الحق فى الحكم على الرجل ، ولا يفعل العكس ، فيحكم على القانون فى ضوء ما فعل القاتل .

وعقب سقوط الاتحاد السوفيتى ومنظومة الدول الاشتراكية ، ثار جدل طويل ، استخدم فيه هذا المنطق الذى نستند إليه ، إذ تساءل البعض : هل هذا السقوط يرجع – فضلا عن العوامل الخارجية التى ينبغى أن توضع فى الاعتبار – إلى خلل قام بالنظرية الماركسية التى رفعت هذه الدول شعارها ، أم يرجع إلى سوء

التطبيق ، بل وذهب البعض إلى القول بأن هذه الدول لم تطبق النظرية الماركسية ، وإنما طبقت تصورات غير سليمة عنها .

ومن هنا فلا ينبغى أن يضيق صدرنا بوجوب وجود ثوابت نحتكم إليها ، إذ لا يستقيم أمر الجماعة الإنسانية إلا بهذا .

لكننا فى الوقت نفسه ، نجد أن الثوابت التى تواضع عليها البشر ، ليست بعيدة كلية عن التغير ، فسنة التطور البشرى كثيرا ما تفرض ذلك ، لكنه عادة ما يتم ببطء شديد ، وتدريجيا .

لكن هذا قد يتم – فى ظروف استثنائية – بسرعة ، كما نجد فى حالة الثورات ، فمصر قد غير قادتها اسمها الذى استقر آلافا من السنين ، بعد الوحدة مع سوريا عام ١٩٥٨ ليصبح " الجمهورية العربية المتحدة " ، إلى أن عاد مرة أخرى عام ١٩٧١ ، وكذلك حدثت تغييرات لعلم الدولة وسلامها الوطنى .

وأنت إذ تتأمل جيدا فى هذه الأقوال التى تتردد على ألسنة القادة الأمريكان ، قد تعجب وتتساءل : كيف تغيب هذه الحقيقة المنطقية عن أذهانهم وهم من هم من حيث التفوق الفكرى والعلمى والحضارى ؟

والرد بسيط ، فيبدو أن العقلية المتقدمة ، مثلما تستثمر تقدمها فى مزيد من التقدم والإنشاء والتطوير ، تستثمرها فى الشر ، تمام كما نرى – مثلا – بالنسبة للعصابات الكبرى الخطيرة ، والتى يمكن أن " تدوخ " أجهزة الأمن فترات طويلة قد تمتد إلى سنوات ، فكبار المجرمين المحترفين ، يكونون أيضا على درجة عالية من الذكاء ، لكن ، حكمة الله قضت بأن يستعمل هؤلاء ما وهبوه من ذكاء فى الشر ، وأن يستعمله آخرون فى الخير .

وهكذا لابد أن القادة الأمريكيين يعلمون أن الذين فعلوا ما فعلوه مما وصف بالإرهاب من المسلمين ، هم بضعة آلاف – على أحسن تقدير – بينما المسلمون يقدر عددهم بأكثر من مليار ، فكيف يحكم على مليار بما فعله عدة

آلاف ؟ إن الحديث قد يملأ مئات الصفحات لو حاولنا أن نشير إلى أن الإسلام نفسه لا يقر بعض ما ارتكبه مسلمون .

إن القادة الأمريكيين الحاليين هم بالفعل يمثلون الوجه الآخر من الإرهاب ... إرهاب الدولة ، وصفحات الصحف والمجلات وشاشات التلفاز تمتلئ بالعديد من الأمثلة المؤكدة كيف أن أمريكا قد تفوقت على من تتهمهم بالإرهاب في الإرهاب ، بل إن التحليل الدقيق لمسار السياسة الأمريكية في السنوات الأخيرة ، يكاد يؤكد أنها هي المتسبب في اتساع دائرة الأعمال العدائية التي تُوجه إليها ، إذ لا يتصور أحد أن يقف الضحايا مكتوفي اليد وهم يرون صور الاستغلال والإذلال البشعة تتزايد وتتوحش يوما بعد يوم ، وكلما اتسعت دائرة العدوان الأمريكي اتسعت دائرة الأعمال العدائية الموجهة إليها ، وليقارنوا حجم ونوع مثل هذه الأعمال قبل غزو كل من أفغانستان والعراق وبعده ، وليفكروا فيما يحاولونه الآن على الأرض اللبنانية ، حتى لا تتسع دائرة العداء المضاد .

أشتات مجتمعات*

قتلوه ومشوا فى جنازته :

الآن أصبحت حكومة حماس متهمة بأنها تستمرئ حالة التجويع التى يعيشها الفلسطينيون ، فى سبيل شعارات عفى عليها الزمن ، ولا وظيفة لهذه الشعارات إلا دغدغة مشاعر الجماهير المسكينة المغيبة عن الوعى بحقيقة عالم اليوم ، وبحقيقة المصالح الخاصة بالشعب الفلسطينى ، وأنها تقف معادية فى وجه المجتمع الدولى والدول العربية الصديقة التى سعت للوساطة وحل المشكلة ..

ولم يعد مثل هذا الكلام يقال همسا فى أروقة السلطات العربية (إياها) ، وإنما أصبح كُتاب السلطة يرددونها صراحة على صفحات الصحف التى يتحمل تمويلها الشعب المصرى بأجمعه ، ولم لا ؟ ألا يرتبط تبوؤهم مقاعدهم بكلمة النظام ؟ ألا يتصورون أنهم يتسلمون رواتبهم من النظام ، بينما فى الحقيقة هى أموال عموم الناس فى مصر ، فكيف لا يكتبون ما يرضى الممسكين بالنظام ، الذين نفضوا أيديهم من النهج الاستقلالى للإرادة الوطنية ؟

وهؤلاء نسألهم : لقد كان أنصار سلام أسلو يحكمون منذ عام ١٩٩٣ ، حتى نهاية عام ٢٠٠٥ ، فماذا حصل عليه الفلسطينيون ؟

وهل لم تقفل المعابر إلا فى عهد حكومة حماس ؟ وهل لم يبدأ اغتيال الفلسطينيين إلا بعد حكم حماس ؟ وهل لم يتم تجريف منازل الفلسطينيين إلا فى عهد حماس ؟

ألم تتكاتف كل القوى الإقليمية والعالمية على حجب أى أموال تصل للحكومة من المصادر التى كان يعتمد عليها طوال السنوات الماضية ؟ وكيف لحكومة أن تنجح ، وثلثها قد تم اعتقاله ، وعدد كبير من نوابها البرلمانيين الذين انتخبهم

* جريدة المصريون الإلكترونية ، فى ٢٠٠٦/١١/١

الشعب الفلسطينى قد تم اعتقالهم ، ولم يرتفع صوت صنديد من صناديد النظم العربية المنادين بالتعايش والسلام ؟

ألم يكن أبو مازن يضج بالشكوى عندما عين رئيسا للوزراء فى عهد ياسر عمار ، من أن أبا عمار كان يحتكر كل الصلاحيات تقريبا ، وكان الصناديد العرب يؤيدونه ، فكيف بعدما سُمم عرفات وحل محله أبو مازن رئيسا يكرر ما كان يشكو منه ويسلب الحكومة أية صلاحيات لها، ثم يرمونها بعد ذلك بالعجز عن إدارة البلاد ؟

خطيب يُنفر ولا يُبشر ..يُعسر ولا يُيسر !

لن أصلى فى هذا المسجد !! أما المسجد فهو مسجد السيدة عائشة ، بآخر شارع على عبد الرازق بآخر النزهة بمصر الجديدة ، حيث هو أقرب مسجد لمنزلى .

فما من صلاة جمعة إلا وأشعر بأن صلاتى تكاد تفسد ، ولا يكون لها أجر لأن انتباهى وذهنى وقلبى ينصرف عما نؤديه من شعائر ..

فالخطيب ، لا فوض فوه ، لا يفتأ دائما يدير حديثه كله حول ما يشبه " تقريع " الناس وتوبيخهم وتهديدهم بالنار لأنهم – مثلا – لم يعودوا يؤمون المسجد كما كان الأمر فى رمضان ، وأنهم لم يستمروا فى قراءة القرآن ...وهكذا

ولا معارضة فى مضمون هذا وذاك ، لكن ، أن تجئ خطب الرجل دائما تقريعا وتوبيخا للناس وإنذارهم بجحيم جهنم ، فهذا ما لا أظنه يتفق وشريعة الإسلام التى لا يكفى مقال واحد لبيان صور التقريب والتحبيب والتبشير التى ينصح بها الرسول صلى الله عليهم وسلم ، وتمتلئ بها آيات القرآن الكريم ، فقد كان من الممكن مثلا للخطيب أن يقول للناس ، أنه أما وقد انتهى رمضان ، فلننتهزها فرصة لنواصل التعبد حتى يصير لنا عادة ، ويمنى الناس بالجنة

ورضا الله ...إنه المنطق نفسه الذى عبر عنه رسول الله بقوله : بشروا ولا تنفروا ، ويسروا ولا تعسروا !

ويا ليت الأمر يقف عند حد ذلك وإنما الرجل فى حقيقة الأمر لا " يخطب " ولا " يتحدث " وإنما " يصرخ " ، حتى لو أن أحدا لا دراية له بطريقته ، وجاء فجأة ولأول مرة ، فى وسط الخطبة فسوف يتصور أن كارثة قد حدثت ، وأن سيارات الإسعاف لابد أن تحضر ، وأن قوات الشرطة لابد أن تتواجد لتخفف من وقع الكارثة !

أعرف أن نبرة الصوت لابد أن تتغير وفقا للموضوع الذى يتحدث فيه الخطيب ، لكن النقاط تتغير حدة وهدوءا ..مما يوجب أن يغير الخطيب من نبرة صوته ، ليتحمس ويعلو فى موضع ، ويهدأ ويسكن فى موضع آخر وهكذا ، لكن ماذا تقول في داعية ، يحرص على أن " يزعق " طوال جمل الخطبة بغير داع ؟

ولا أشير إلى الأخطاء اللغوية المفزعة المتكاثرة عبر جمله وتعبيراته ، فلقد أصبح هذا أمرا شائعا فى خطباء المساجد اليوم ، مما جعل كثيرين منا يستسلمون للأمر الواقع ، وكأن هذا قد أصبح من " طبائع الأمور " ، وأن الاستثناء هو أن ينطق الخطباء بما يتفق وقواعد اللغة التى نزل بها الكتاب الذى يبثون الدعوة لتوجيهاته !!

وكان هناك خطيب قبل هذا الرجل ، فى المسجد نفسه ، يبدو أن أولى الأمر اضطروا إلى تغييره ، فقد حدث أثناء الإعداد لانتخابات رئاسة الجمهورية ، أن دعانا الرجل أثناء الخطبة أن ننتخب الرئيس القائم ، علما بأن هناك متنافسين ، على الرغم من يقيننا أنها منافسة مزيفة ، لكنها تظل منافسة ، من حق كل منهم أن يُدعى إليه .

ولن أنسى كيف أن الرجل عندما قال هذا ، إذا بصيحة احتجاج جماعية ، وبصوت عال ، من الكثرة الغالبة من المصلين ، ونحن نعلم أن أى صوت

يصدر بشئ مثل هذا يبطل الصلاة ، فكأن صلاة الجمعة فى هذا اليوم قد فسدت!

لكن الحسنة الوحيدة لهذا التصرف المؤسف ، بل والمحزن ، أننى عرفت رأى الناس مقدما حتى لو جاءت النتائج بغير ذلك !

لجنة نظام للمسجد ؟!

وحتى أكون منصفا ، فإن القضية ليست قضية الإمام وحده ، وإنما هى كذلك قضية جمهور المصلين أنفسهم مما يفضح ما أصبح عليه الوعى الدينى بين كثير من الناس ، وهذه عينات من بعض السلوكيات المؤسفة التى تنبئ بغياب ما يعرف بآداب المسجد ...

فأحيانا ما تجد بعض الأطفال الصغار يجيئون غالبا مع آبائهم ، وهذا شئ جيد أن يعودوهم على هذا ، لكن غير الجيد أن نجد ولى الأمر أو مصلين آخرين ، بجوارهم صغار ، يتركونهم يتحادثون ويتضاحكون ، ففضلا عن ضرورة التنبيه مقدما قبل المجئ بالطفل إلى المسجد ألا يُحدث جلبة وضوضاء ويتحدث ، حتى لا يشوش على المصلين ، فلا أقل من نهيهم عن ذلك وهم جلوس فى المسجد ، لكن المؤسف أن تجد من حولهم من الكبار لا يأبهون بذلك ، فيضيعون فرصة توعية الصغار بآداب المسجد ، ويفسدون على الآخرين جو الهدوء والوقار والخشوع والانتباه والإنصات!

ويوفر المسئولون عن المسجد " فرشا " وأماكن متسعة خارج المسجد أو فى ملحقات به توقعا لمجئ المزيد من المصلين ، وهذا أمر جيد بطبيعة الحال ، لكن غير الجيد أن يقيم الإمام الصلاة ، ويسفر الوقوف صفوفا عن وجود أماكن كثير شاغرة داخل المسجد ، دون أن يتقدم لها من هم بالخارج ، وكأننا نكرر الموقف بالأتوبيس ، عندما يصرخ الكمسارى بالواقفين على الأبواب بأن يدخلوا حيث توجد أماكن خالية ، ولا حياة لمن تنادى !

وما يتصل بهذا ، حتى داخل المسجد نفسه ، من الممكن أن تجد صفا لم يكتمل بعد ، ومع ذلك يجئ شخص ليقف خلفه ، ثم يجئ ثالث ليقف بجواره ٠٠وهكذا ، بل كثيرا ما توجد مساحات داخل الصف نفسه ، نتيجة انتقالات إلى الصفوف الأمامية عند الإقامة ، ومع ذلك يتكاسل الواقفون خلفها عن التقدم لملئها !

ويوفر المسئولون عن السجد " كراسى " لمثلى من العواجيز أو المصابين بخلل جسمى يمنعهم من من الجلوس والسجود – أيضا مثلى – وهذا أمر جيد ، لكن غير الجيد أن تجد نصف الجالسين قد تركوا الكراسى ، عند إقامة الصلاة ، ليؤدوها بالصورة العادية ، من جلوس وركوع وسجود ، فلماذا كان جلوسهم أصلا ؟

وعندما يتركون كراسيهم لا يحرصون على " تطبيقها " – حيث تقبل ذلك – ووضعها بعيدا عن الصفوف حتى يتسع المكان ٠ ولا حتى الآخرين الذين يصلون بجوار هذه الكراسى التى خلت يفكرون فى إزاحتها عن المكان !

وهناك للمبنى الملحق ثلاث أبواب متسعة ، فتجد الكراسى قد رصت أمامها ، ولا تترك فرصا لدخول المصلين إلا بالاختراق والمزاحمة ٠

فهل يحتاج الأمر إلى " لجنة " للنظام تقوم بتنظيم الصفوف والتنبيه على كل ما يجرح الصلاة ؟ أم أنها مهمة الخطيب أن ينبه الناس إلى ذلك ؟

لقد فعلتها مرة ، وحرصت على المجئ قبل صعود الخطيب – غير الذى أشرت إليه ، ورجوته أن ينبه المصلين على مثل هذه البديهيات ، وفعلها الرجل حقيقة ، لكن المشكلة فى صلاة الجمعة أن الجمهور الحاضر هذه المرة – مثلا – لا يكون كله هو الذى يحضر فى المرة التالية ، فضلا عن عوامل الإهمال والنسيان ، مما يقتضى أن يحرص الخطيب على التنبيه عليها فى كل صلاة ٠

ليست تلك مشكلة " شخصية " ، " جزئية ، وإنما هى متكررة فى مساجد كثيرة ، كما سمعت من زملاء عندما حكيت لهم الحكاية !!

هل تحترق مصر* ..؟!

فى أواسط الستينيات كان هناك فيلم أجنبى بعنوان : هل تحترق باريس ؟ يتعلق بخبرة فرنسا فى الحرب العالمية الثانية ، ولا أذكر شيئا من الفيلم إلا اسمه الذى لا أدرى لم قفز عنوانه إلى ذهنى وأنا أتصفح صحفا متعددة ، ليس من بينها الصحف الحكومية ، ذلك أن مسئوليها موظفون لدى الحكومة ، ومن الطبيعى أن تكون فلسفتهم هى ما عبر عنه الراحل صلاح جاهين على لسان سعاد حسنى بأن الدنيا ربيع والجو بديع ..قفّل لى على كل المواضيع ، و" كله تمام يا ريس " ، وبالتالى فأنا أثق فى الصحف المستقلة بالذات ، خاصة إذا كان ما تنشره مدعما بما يؤيد الخبر أو التحقيق الصحفى .

وأنا هنا أسوق مثالا من عدد واحد من جريدة " صوت الأمة " الصادر فى الثالث من سبتمبر (٢٠٠٧) ، حيث أشعر بأن مصر بالفعل تكاد تحترق ، غشا وقهرا ونصبا واستغلالا وسرقة ومذلة . وأنا أعتذر للقارئ أننى سأقف على وجه التقريب موقف الراوية ، حيث سأجمع أجزاء متفرقة من أخبار وتحقيقات ، كلها موثقة تشير بما لا يدع مجالا للشك بأن الحال قد وصل بهذا الوطن العزيز الغالى إلى شفا حفرة لا ينبغى أن نقف إزاءها متكوفى اليد نكتفى بإبداء الأسف والضيق والأسى ومصمصة الشفاه ، بل لابد من الانتقال إلى موقف الحركة السلمية الهادفة إلى إنقاذ وطننا من هوة لا أدرى : هل أقول قد وقع فيها بالفعل أم أخفف من العبارة لأقول أنه على وشك الوقوع فيها ؟

فدائما – ومعظمنا ما زال – نردد آيات الشكر والتقدير للقضاء المصرى ، لكن ، فيما يبدو فإن البلاء العام الذى يجتاح مصر كالطوفان من الفساد لم يعد يعرف منطقة محرمة فإذا بهذا الذى يصيبنا بالرعب حقا ، فتنشر الصحيفة أنه

* نشر بجريدة الدستور فى ٢٠٠٧/١٢/٢٣

فى إحدى محافظات وجه قبلى هناك مستندات من إدارة الكسب غير المشروع وهيئة النيابة الإدارية تقدم بها عدد من المواطنين تتهم أحد مستشارى النيابة الإدارية بالمحافظة بالكسب غير المشروع واستغلال سلطاته ونفوذه فى التربح وإنهاء مصالحه الشخصية بالمخالفة للقانون وتحريض أشقائه على الوقوف فى وجه المواطنين عن طريق علاقاته بعدد من ضباط الشرطة .

وفى تفاصيل ما جاء فى مذكرة قدمت إلى وزير العدل فى ٢٤ مايو ٢٠٠٧ برقم ٥٧١٨ أن المستشار المشار إليه حقق ثروة طائلة بعد فترة وجيزة من التحاقه بالعمل بالقضاء ، ومنها عمارة فخمة فى إحدى مدن المحافظة تقدر قيمتها بثلاثة ملايين جنيه ، مسجلة باسم شقيقه الأكبر ، بالإضافة إلى امتلاكه فيلا بإحدى قرى المحافظة تقدر قيمتها بمليون جنيه وأراض زراعية عديدة ، وأشياء أخرى متعددة ، علما بأن والده عندما توفى عام ١٩٩٥ كان مدينا لأحد البنوك ولم يترك لورثته سوى مساحة أربعة قراريط ، ويعمل أشقاؤه الأول والثانى خادم مسجد ، والثالث يعمل بإحدى المحاكم الجزئية . وتزايد الثروة هذا استغرق مدة عامين أو ثلاثة فقط ، ولم يسافر هو أو أحد أشقاؤه للعمل بالخارج ...إلخ .

وفى صفحة أخرى يجئ حديث عن مذكرة وزير بخصوص قضاة حصلوا على رشاوى لإصدار أحكام بالبراءة فى قضايا مخدرات وتورط مستشارين آخرين فى النصب وبيع أراضى الدولة وإصدار شيكات بدون رصيد .

وفى المذكرة يصف وزير العدل القضاة المتورطين فى تلك الوقائع فى الدعوى رقم ٥٤ لسنة ٢٠٠٧ بأنهم أوغلوا فيما أقدموا عليه من شرور وأغرقوا فيما ارتكبوا من كبائر وانغمسوا فى مستنقع من الرذائل تاركين وراء ظهورهم – حسب وصف المذكرة – أى حياء وكل رجاء عابثين بالأموال العامة ومستحلين أموال الناس بالباطل ساعين فى الأرض فسادا وإفسادا ، تارة برشوة البعض وأخرى بالارتشاء منهم إضرارا بأموال جمعية (العدالة) التى ترأسوا

مجلس إدارتها ، فأهدروا أموالها وأموال أعضائها وفرطوا في مصالحها ومصالحهم وسهلوا للغير الاستيلاء عليها وباعوا ما لا يملكون واغتصبوا ما لا يستحقون ، واقترضوا بغير ضمان بمساعدة أمثالهم من البنوك ، وزوروا بطاقات حيازة أراضي صحراوية وأعطوا شيكات بغير رصيد ٠٠٠إلى غير هذا وذاك من وقائع مذهلة يصدق بالفعل عندها التعقيب بأنها " مفجعة " غاية ما تكون الفجيعة !

هذا الذى حدث سبق أن رأيناه لدى آخرين فى السنوات الأخيرة ، لكن أن يحدث فى مجال القضاء فهذه هى الكارثة بعينها حقا ، فالقضاء هو بمثابة المقياس فى قياس المسافات – مثلا – فإذا وجدنا المقياس مختلا ، فسوف يكون كل قياس مختلا والعياذ بالله ، ويعيش الناس ظلما لا يعرفون السبيل إلى التخلص منه ٠

وفى مجال الكهرباء ، ذكّرت الصحيفة القراء بما كشفته عن صور فساد متعددة لأشخاص أوردت أسماءهم ، ثم إذا بالصحيفة فى العدد نفسه تنشر تقريرا لنصوص تسجيلات كل العبارات التى وردت بمذكرة تحريات الرقابة الإدارية المتضمنة تسجيل وتصوير أحاديث ولقاءات تمت بين رئيس شركة الكهرباء وسيدة أعمال وغيرهما من الأشخاص ، وكان مما ورد على الهاتف الخاصة بالسيدة اتصالات تحوى فى معظمها اتفاقات على تخليص أمور خاصة بأعمال مقابل أموال ، وكذلك ما يفيد بإرسال هدايا بين الطرفين وآخرين ، تؤدى قراءة تفاصيلها إلى شعور القارئ بالغثيان والألم حقا ، وكيف تستغل إمكانات الدولة لصالح شخص أو أكثر ، فى نظير رشاوى ، وتضار مصالح عامة فى سبيل هذا !!

ثم تنتقل الصحيفة إلى مجال " صحة الناس " لتكشف عن صورة أخرى من صور الفساد ، ربما يمكن لنا أن نكتفى هنا برصد العناوين التى عنوت بها الصحيفة للموضوع :

مدير عام بنوك الدم بوزارة الصحة تمت إحالته للتحقيق بعد اكتشاف عدم مطابقة أكياس الدم للمواصفات ٠

عضوة باللجنة المسئولة عن ترسية المناقصة اعترفت بلقائها مع هانى سرور وحضوره اجتماع اللجنة أثناء تفتيشها على مصنعه ٠

أمين الحزب الوطنى بالظاهر هو وكيل وزارة الصحة الذى تؤكد أوراق القضية تورطه فى تمرير الصفقة لهانى سرور ورغم ذلك لم يتم التحقيق معه

مسئولو هيئة الرقابة والبحوث الدوائية تفاوضوا مع مسئولى هايدلينا على إتمام الصفقة رغم علمهم بعدم مطابقة أكياس الدم للمواصفات ٠

هل نحتاج إلى التأكيد على خطورة صحة الناس والتلاعب بها من قبل أعضاء فى الجهاز الحكومى فى نظير خدمات ومواقع وأموال وكسب رضا وتحالف ؟ من هم الذين يحكمون مصر حقيقة ؟ وإلى أين يذهبون بهذا البلد المغلوب على أمره ؟

أما المسئولون عن أمن المصريين ، فحدّث ولا حرج ، فلقد توحش الجهاز الخاص بالأمن ، فإذا بالقنوات التلفزيونية الخاصة المصرية ، وكذلك الصحف تحفل فى معظم الأيام بأخبار عن ضرب مواطنين وسحلهم وتعذيبهم ، بما قد يؤدى أحيانا إلى الموت ، وفى العدد نفسه لصوت الأمة ما تعرض له مواطن يعمل سائقا حيث فوجئ بالقبض عليه باعتباره مسجلا سياسيا وطلب أمين الشرطة منه عشرة جنيهات مقابل أن يتركه ويدعى أنه لم يعثر عليه ٠٠٠

إن أمين الشرطة هذا لا ينفرد بمثل هذا الفعل ، فكل مستوى له مستواه من الرشوة ، ولم يتوقف الأمر بطبيعة الحال عند حد القبض على السائق دون وجه حق ، إذ لابد من " التمغات " ، التى هى ركلات موجعة وصفعات مؤلمة وضربات قاسية ، كان لها أثرها فى إصابات بالغة ، ثم تكشف المفاجأة عن هذا الذى قالوا أنه مسجل خطر سياسيا ، إنما هو عضو بالحزب الوطنى ، ويمارس نشاطه الحزبى فى الدائرة التى يتبعها ٠

ولأن الفساد مرض معد ، فلابد أن تصاب به كافة أعضاء جسم الدولـــة ، ولو فتحنا باب الفساد فى التعليم لما كفانا مقال متخصص ، ويكفى أن نشير إلى هذا الخبر الذى نشرته الصحيفة ، فقد تم اكتشاف مُدَرسة تعمل منذ ٢٦ عاما ، أى والله ، حيث تدرس جميع المواد للطلاب فى التعليم الابتدائى ، بينمـــا هـــى، حاصلة على دبلوم تجارة دفعة ١٩٧٤ ، حيث عينت إدارية بمدرســـة الـــشيخ عبادة الابتدائية بتاريخ ١٩٧٧/١١/١ !!

نسمى نحن الدارسين للعلوم التربوية المعلم بأنه " حجر الزاوية " ، كنايـــة عن دوره المحورى ، وخاصة فى هذه المرحلة من التعليم التى تمثل " البنيـــة الأساسية " التى إذا استوت فى بنائها واستوت على عودها ، أمنا إلى حد كبير سلامة البناء الذى سوف يقام عليها ، فإذا ما تسرب الفساد إلى الإهمـــال فـــى الاختيار كانت المصيبة كبيرة ، هذا فى الوقت الذى نجد فيها مئات وربما أكثر من ذلك ، من خريجى كليات التربية لا يجدون عملا ، وإن وجـــدوا فبعقـــود مؤقتة يفتقد فيها المعين الكثير من الحقوق والضمانات .

هذه الأمثلة هى مجرد قطرة من بحر ، بل من محيط من العفن والفـــساد والقهر أصبح يحيط بنا منذ سنوات ، ولا تتحمل المساحة مزيدا منها ..

سوف يقولون لنا أننا لا نرى إلا الوجه الأسود ، ونغض الطـــرف عـــن الوجه الأبيض الذى يشير إلى صور إنجاز وأشكال تقدم ، ونرد نحـــن أيـــضا بالقول المأثور " لا شكر على واجب " ، فحتى لو قامت الدولة بما يجب عليهـــا فهذا واجبها الذى لا يحتاج إلى تقريظ ، لكنها إذا قصرت حملناهـــا المـــساءلة والمحاسبة ، ويكفى هذه الصحف والمجلات والقنوات التلفزيونيـــة والإذاعـــات التى لا هم لها ليل نهار إلا أن تزيف وعى الناس ، بالصورة العكسية فتوهمهم بأن مصر بخير ، وإلا فليفسروا لنا هذه الكراهية العامة التى ملأت قلوب الناس للنظام القائم ، وعدم الثقة الذى أصبح يعبر عن نفسه بالاعتقـــاد بعكـــس مـــا يصرحون به : إن قالوا أن مصر خالية من مرض كذا ، تجد الناس يقولون فى

أنفسهم ، لابد أنه بدأ ينتشر ، وإن قالوا أن الحكومة أغرقت البلاد بسلعة مـا ، فهموا من ذلك أن هناك نقصا حادا ..

وأنا لا أستغرب هذا الذى يصدر عن أجهزة النظام لمعرفتى بطبيعته وطبيعة القائمين عليه ، لكن ما استغربه حقا هو عدم السعى إلى تغييره بكل الوسـائل والطرق السلمية ، فهى وحدها المؤدية إلى التغيير ، بينما وسائل العنف تـؤدى إلى ازدياد بطش النظام وقهره وتقديم المسوغات التى يستند إليهـا فـى هـذا البطش والقهر والفساد .

شروخ فى جدار الوطن* !

لا تُذكر كلمة " الوطن " إلا وقفزت إلى ذهنى على الفور كلمات الشاعر أحمد شوقى :

وطنى لو شغلت بالخلد عنه   لنازعتنى إليه فى الخلد نفسى

لكن ماذا لو تيقنت أن معقد الآمال ومجمع الحب والتقدير لا يمر عليه يوم إلا وهو ينحدر إلى هوة التأخر والمرض والتراجع ؟ حقيقة لولا قدر من الإيمان لحدث ما لا تحمد عقباه مما يصعب علىّ تصوره ، فكاتب هذه السطور منذ أن تفتحت عيناه وهو مجنون بوطنه وعاشق لترابه ، وهو فى جنونه وعشقه لوطنه يعى أن هذا الوطن لا عزة له إلا بعقيدته ، ولا مستقبل له إلا بعروبته ، وهو فى وطنيته هذه يعتز بكل من يحمل جنسية هذا الوطن .

ونحن إن أشرنا هنا إلى بعض شروخ فى جدار الوطن فلعل هؤلاء الصم الذين لا يسمعون الصرخات تتعالى من أماكن عدة يسمعون فتهتز لهم قلوب تحجرت طويلا ، ولعل أحاسيس لهم جمدت كثيرا أن تتحرك فتهرع إلى عملية إنقاذ وطنى قبل أن ينهار الجدار على الجميع :

- فى صيف كل عام كل عام ، عندما أرى على شاشات التلفاز وعلى صفحات الصحف الحكومية احتفالات بأفواج عدة من خريجى الكليات العسكرية أشاركهم فى الفرحة ، على الرغم من المعاناة التى " تنكد " علينا معيشتنا عند قفل الطرق التى يمر فيها الرؤساء والقادة إلى أماكن الاحتفال ، فهؤلاء الخريجين هم الذين يذودون عن حياض هذا الوطن ، وهم الذين يمكن أن يفقدوا أرواحهم دفاعا عنه .

لكننى فى الوقت نفسه لا أستطيع أن أخفى غيرة مشروعة على غيرهم من

---

* نشر بجريدة الوفد فى ٢٠٠٧/٩/١٥

الخريجين الذين من حقهم أن ينالوا مثل هذا الاهتمام الذى يناله زملاؤهم ، إذ ما من عام يمر ونشهد فيه هذه الاحتفالات بخريجى الكليات العسكرية ، إلا وأتساءل بينى وبين نفسى : لم لا يحظى خريجو الكليات الجامعية المختلفة بمثل هذا الاهتمام الذى يشهده دائما رئيس الدولة ؟

صحيح أن الكليات العسكرية محدودة الأعداد : حربية وفنية وطيران وشرطة ومعهد فنى ، والكليات المدنية الجامعية هى بالعشرات ، لكن ، يمكن أن تختار كلية من الكليات سنويا ، ممثلة لباقى الكليات التى من نفس النوعية .

إن خريجى الكليات العسكرية هم أبناؤنا الذين نفخر بهم ، لكن خريجى الجامعات هم أيضا أبناء مصر ، وهم أيضا نفخر بهم ..

لقد جاء أحد المسلمين الأوائل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره بأنه منح ابنا له هدية ، فلما سأله رسول الله عما إذا كان قد أعطى نفس الهدية إلى بقية أولاده ، فأجاب بالنفى ، غضب رسول الله من هذه التفرقة وطلب من الرجل أن يصحح سلوكه حتى لا يزرع بذور تفرقة بين الأبناء فيحدث شرخا فى الجدار ، وهو لو تعلمون شرخ عظيم !

- فاضت أنهر صحف حزنا وتنديدا بما حدث لطفلة من جراء عملية ختان خاطئة ، حيث أودت بحياة المسكينة التى لا ذنب لها ، ووصل أمر التعبير عن الحزن أن يسير موكب حزن إعلانا واحتجاجا ، وهو أمر عظيم من غير شك فدم كل فرد من أبناء هذا الوطن هو أغلى على كل منا مما لا يمكن تصوره ، لكننا فى الوقت نفسه نسأل عما تم بخصوص دماء عشرات آخرين ، بل ومئات من أبناء هذا الوطن ، راحت أرواحهم نتيجة إهمال وتقصير واستهتار ، ولم يحفل بهم أحد .

نكرر دائما أن حياة الطفلة التى ماتت بختان خاطئ حياة عزيزة على كل من يستظل براية هذا الوطن ، لكننا نأبى أن يصل التمثيل والكذب والادعاء

بالوطنية والتزام الحق والحرص على أبناء هذا البلد إلى هذه الدرجة من التفرقة والتمييز حتى فى الدماء :

فمن من رموز الدولة المتباكين على حياة الطفلة المسكينة اهتزت له شعرة ، وظهر أثر ذلك فى اقتفاء أثر القاتل ، وفى الاهتمام الجدى بالموتى من المئات من غرقى العبارة الشهيرة ، والتى ما زال القاتل خارج السجن يرفل فى نعيم مقيم خارج الديار ، ولم لا يستخدمون مهاراتهم المشهود بها فى تعقب من يسمونهم بالشخصيات الإرهابية فى استجلاب هذا القاتل ؟

وماذا نقول عن قتلى حوادث القطارات ؟

وعشرات قتلى الطرق ؟

نقول ذلك لعلمنا أن المسألة ليست مجرد قضاء وقدر وإنما هنا أسباب تشير إلى سرقات فى إعداد الطرق ، وغش فى تسيير عبارات غير مطابقة لمواصفات السلامة وشروطها !

- هل هى مصادفة أن تصفع عيوننا كل يوم صور عشرات من المواطنين وهم يحلون أوعية يسعون بها إلى أن يحصلوا على قطرات ماء ، فى صيف شديد الحرارة ، ومصر موصوفة من آلاف السنين بأنها " هبة النيل " ؟

إن الخبراء والمختصين يتنبون مستقبلا بأننا سوف نواجه مشكلة حادة فى نقص المياه اللازمة لنا جميعا ، وأن هذه مشكلة سوف تواجه معظم دول المنطقة العربية ، لكن موعدها لم يحن بعد ، ومن ثم فليس هذا العطش الذى يعانيه آلاف المواطنين هو تباشير أزمة نقص الموارد المائية ، حيث ما زالت تلك الموارد قادرة والحمد الله على الوفاء بما نريده بها ، وإنما هذا العطش هو مظهر آخر من مظاهر تسيب وتمييز ...

تسيب فى سوء استخدام ما هو متاح لنا من موارد مائية ، لا نتهم فيه أولى الأمر وحدهم ، ولكن فئات كثيرة من مواطنينا لا يتعاملون مع المياه مثلما يتعاملون مع مورد غال ، فيسيئون الاستخدام ، ولكننا نتهم أيضا تسيبا فى

إدارات مسئولة ، يؤدى تسيبها وتقصيرها إلى نشوء تمييز هذا فى هذا المورد الذى وصف قيمته المولى عز وجل بقوله (وجعلنا من الماء كل شئ حى) ، إذ لماذا لا تظهر هذه المشكلة إلا بالنسبة للفقراء والمساكين ؟

حتى فى الماء ، يأبى أولو الأمر إلا أن يديروا البلاد وفقا للمنطق العبودى الشهير : هناك ولاد الحرة ، وولاد الجارية !

= لست خبيرا اقتصاديا لأفتى فى القضية الخاصة ببيع بنك القاهرة ، ولكن مشاعرى كمواطن عادى ، يرى فى كل يوم بيعا لشئ كان مملوكا للوطن فى جملته ، تحيط عملية البيع أجواء من الريبة ، من كثرة ما عهدنا من ضعف ثقة ومظاهر سابقة من غش وسرقة ، ومن جراء ما يتأكد لنا يوما بعد يوم أننا إزاء حكومة يصح أن نسميها حكومة بيع مصر !!

ومن الأمثلة البسيطة التى تشير على العقلية التى أصبحت حاكمة ، أنك تنظر إلى مترو الأنفاق وهو يجرى على سطح الأرض فى المناطق التى تتيح له ذلك فترى منظرا يثير الغثيان من القبح فى المنظر ٠٠٠لقد كان المترو ذا لون أزرق طيب ، فإذا ببعض القطارات تجدها وقد لُفت بألوان حمراء زاعقة ، وبصور وأشكال قبيحة المنظر تفسد الذوق العام ، وتسأل عن السبب ، فإذا به هو : الرغبة فى الحصول على إعلانات ، حتى ولو كان أحد أبرز مظاهر الثمن هو إفساد ذوق ملايين من الناس الذين سوف يتعودون الألوان الزاعقة المتنافرة ، والصور الضخمة القبيحة ٠

وعلى هذا الطريق ، كنا دائما نشيد بالبرنامج العام فى الإذاعة على أساس أنه يتسم بالرزانة والدسامة ، فإذا به يخضع للمنطق نفسه ، منطق الإعلان ، وتفاجئوك أصوات مائعة ، بها بعض " مياصة " ودلع ممجوج ، بعد موسيقى شجية أو برنامج جاد مفيد ٠

والأنكى من ذلك ، فبعد أن فرحنا بأن تكون هناك إذاعة أغانى تبث بيننا النغم الشجى والصوت الرقيق ، إذا بكثيرين مثلى يسرع بتحويل مؤشر الراديو

عن المحطة ، إذ أحيانا ما أكون غارقا فى مشاعر طرب شجى ، كأن أكون مستمعا للجندول أو كليوبترا لمحمد عبد الوهاب ، أو قصيدة ولد الهدى ، أو الأطلال لأم كلثوم ، فإذا بصوت زاعق يهجم عليك بحديث عن السمن والصابون ، فكأنك كنت نائما فى حلم يقظة بحديقة غناء ، فتفاجأ بمن يكب عليك دلوا من ماء غسيل ملوث على رأسك !!

لكن ..كله يهون ، من أجل بيع أوقات ، مفروض أن تستمتع بها ، المهم هو : أن يجيئوا بمال ، بغض النظر عن الوسيلة ، وبغض النظر عن النتائج غير المباشرة التى تنخر فى الجسم الوطن ، وتفسد الأذواق وتؤذى المشاعر ، فالمال هو الإله الجديد للعصر الجديد .

حتى جريدة الأهرام ، وخاصة عدد يوم الجمعة الذى كنت ننتظره طوال سنوات عديدة يحمل صفحات تحمل أسماء لامعة ونجوم فى سماء الفكر والثقافة والأدب والفن ، وكان " ملحق " الأهرام هذا أشهى الأطباق الصحفية الأسبوعية ، اختفى كل هذا ، لتحل محله كمية من الإعلانات الضخمة الزاعقة أحيانا ، بحيث تتصفح الجريدة فى دقائق معدودة قد لا تزيد عن أصابع اليدين ، ولم يبق مما يستحق القراءة إلا تلك السطور الرائعة التى يتحفنا بها الشاعر العظيم والوطنى الغيور فاروق جويدة .

طبعا هناك ، هذا الزخم الإعلانى الضخم ، هو مما تسيل له لعاب أى صحيفة ، لكننا كنا نسمع عن أن هناك حدودا لابد منها بين ما يخصص للإعلانات وما يخصص لتحرير ، فإذا بى أسمع البعض يسمى أهرام الجمعة بأنه " الوسيط (الأهرام سابقا) " !!

ويترتب على هذا أن تتغير نوعية القراء ، فمثل هذا الزخم الإعلانى يقبل عليه التجار والسماسرة ، وأصحاب الجيوب والمحافظ المتخمة ، أما الذين يبحثون عن فكر وثقافة وفنون ومعلومات ، فإنهم يتقلصون شيئا فشيئا ، تماما كما حدث للسينما ، حيث أصبح جمهورها هو تلاميذ المدارس الذين فُرغت

عقولهم ، وشوهت ذاكرته ، فأخذوا يبحثون عن مجر الضحك حتى لــو كــان لسباب تافهة ومضادة للعقل والذوق ، ويكسب تجار السينما الحاليين ، وتتقاطر الملايين على جيوبهم ، فيتوارى الفن الصادق ، ويختفى الفنـــانون المتميــزون الجادون .

إن هذه الشروخ فى جدار الوطن ، هى مجرد أمثلة ، يصح التعقيب عليهــا بالقول الشهير ": وما خفى كان أعظم " !!

النظام عندما يشيخ* !

عندما بدأنا ندرس العلوم التربوية والنفسية عام ١٩٥٩ ، بعد تخرجنا من كلية الآداب لاحظت أن الكثرة الغالبة من أساتذة التربية يركزون على قضية بعينها وكأنها " اللحن المميز " لما يُعلّمون أو القضية المركزية التي تتمحور حولها الدراسات التربوية والنفسية ، ألا وهي " التغير " و " التطور " أيامها ، تصورت أن ذلك ربما يكون بسبب سيطرة الفلسفة البراجماتية الأمريكية ، وخاصة زعيمها " جون ديوى " تأثرا بنظرية التطور التى نادى بها " دارون " ٠ لكن ، بمزيد من القراءة ، ومزيد من الممارسة فى عمليتى التعليم والتعلم ، اقترن هذا بمقولة إسلامية شهيرة تنصح المعلمين بأن يراعوا وهم يربون ويعلمون أنهم يربون ويعلمون لزمان غير زمانهم ، مما يقطع بضرورة الإيمان بالتغير والتطور ، فكل ما حولنا ينطق بذلك ٠٠فى كافة الكائنات الحية ٠٠٠حتى الأحجار والرمال والتراب وغير هذا وذاك مما ليست به حياة !

ومن مقتضيات التغير والتطور أن يلحق بالكائن الحى " هرم " أو " كبر " فى السن وشيخوخة تقضى به بالضرورة إلى الوفاة والاختفاء من على ظهر الأرض حتى يفسح الطريق إلى آخرين ، ويستمر العمران البشرى ، وهذا ما عناه المولى سبحانه وتعالى بقوله فى القرآن الكريم فى سورة الروم (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤)) ٠

فهناك حالة الضعف الأولى عندما نكون أطفالا ، ثم نحصل خلال مرحلة الشباب على قوة ، ثم يبدأ المنحنى فى الهبوط فنعاود معيشة حياة الضعف عندما نصل إلى مرحلة الشيخوخة أو " الشيب "٠

---

* نشر بجريدة الوفد فى ٢٠٠٧/٢/١٠

ولا يصدق هذا على حال الكائن الحى فردا فقط ، وإنما هو يصدق أيضا على النظم الاجتماعية ، وهذا ما نبه عليه المفكر العبقرى (ابن خلدون) فقدم فصلا فى مقدمته يبين فيه أن الشيخوخة " قدر " لكل دولة ، مثلما هى " قدر " بالنسبة لكل فرد ، لابد بعدها من الانتهاء والاختفاء فكان عنوان أحد فصول مقدمة ابن خلدون (الفصل ٤٦) : (فصل فى أن الهرم إذا نزل بالدولة لا يرتفع) ، أى لا يزول ، وأفاض فى هذا الفصل القول بأنه مهما فعل أصحاب النظام الذى يشيخ من محاولات إطالة العمر ، فكلها مآلها إلى الفشل فى النهاية على أساس أن الشيخوخة " من الأمراض المزمنة التى لا يمكن دواؤها ولا ارتفاعها – أى زوالها – لما أنه طبيعى ، والأمور الطبيعية لا تتبدل " .

انظر إلى ماء تجمع فى بحيرة ، غير موصولة بنهر أو محيط ، فيظل الماء على حاله لا يتغير ، وتكون النتيجة أن يصيب الماء عطن وعفن بمرور الأيام ، وربما رمى بها بعض الناس مخلفاتهم ، فضلا عما تلقيه الرياح من أوراق جافة وأتربة وربما بعض حجارة ، فيزداد حال ماء البحيرة عطنا وعفنا ، ولا يرجى منها نفع ولا فائدة .

وهنا أيضا تستطيع أن تكذب مقولة الفيلسوف الإغريقى القديم (هيراقليطس) التى ذهب فيها إلى القول بأنك لا تستطيع أن تنزل فى النهر مرتين ، مبررا ذلك بأن مياه النهر " جارية " باستمرار ، ومن ثم فإن الماء الذى نزلت به المرة الأولى ليس هو الذى تنزل فيه المرة الثانية ، فكأنك نزلت فى نهر آخر غير الأول ، وكانت هذه المقولة ذروة الإعلان بسنة التغير فى الكون . لكن فى البحيرة التى نشير إليها ، تستطيع أن تنزل مرات ومرات ، فالبحيرة هى هى لا تتغير ، هذا إذا تحملت ما بها من عفن وعطن !

هكذا النظام الاجتماعى ، أو السياسى ، عندما يظل عمرا طويلا لا يتغذى إلا على أفكاره هو ، وتظل قياداته هى هى ، والتى تظل مستمرة سنين طوالا ، فلا تترك الحكم فترة ثم تعاود الرجوع إليه مرة أخرى كما نرى فى البلدان

المتقدمة ، ويتجدد أعضاؤه وتتجدد رئاسته ، وتتغير أفكاره ، فيصبح هذا النظام المشار إليه عندنا نظاما مغلقا على نفسه لا يتيح لنفسه التغذى بروافد أخرى تنعشه وتقويه وتثر يه ، فيصبح بالفعل مثل البحيرة المغلقة على نفسها ، يزيدها مرور الأيام عفنا وعطنا !

واطلق لنفسك عنان الاندهاش – والحسرة فى الوقت نفسه – عندما تجد هذا المفكر العبقرى ، يكتب كلاما فى القرن الثامن الهجرى ، أى منذ ما يقرب من سبعة قرون – سبعمائة سنة يا ناس – فاضحا العوامل المؤدية إلى شيخوخة النظم ، أو قل ما يترتب على دوام الشيخوخة ، وبطبيعة الحال فلا يتسع المقال الحالى لبيان هذه العوامل والمظاهر ، وإنما يكفى أن نشير إلى واحد منها تقرؤها فكأنك تقرأ لكاتب معاصر – لكن من ذوى الضمير الحى – وإن كان بلغة تنتمى إلى عصور ولت منذ زمن بعيد ، فماذا قال فى هذا الجانب ؟

منها ما سماه ابن خلدون " التسلط على أموال الناس ، بشراء ما بين أيديهم بأبخس الأثمان ، ثم فرض البضائع عليهم بأرفع الأثمان على وجه الغصب والإكراه فى الشراء والبيع " ، والتى تستطيع أن تدرج تحتها صورا معاصرة ، مثل القروض المهربة ، وشراء المساحات الشاسعة من الأرض بالملاليم ، وبيعها بالملايين ، بطرق غير مشروعة ، ومن وراء القانون ، وكذلك المضاربات ، وغير هذا وذاك من سبل الثراء الفاحش السريع الذى يجىء فى ساعات معدودة ، بغير كد ولا كدح ، وقد توقف ابن خلدون عند مثل هذه الظاهرة ، بعد حديثه عن ظاهرة أخرى بقوله " وأعظم من ذلك فى الظلم وإفساد العمران والدولة ..." .

وكأنى بالرجل يكتب عما نعيش ، فيشرح الدواعى التى تدفع أهل السلطة بفعل هذا التسلط على أموال الناس ، فيقول " واعلم أن الداعى لهذا كله إنما هو حاجة الدولة والسلطان إلى الإكثار من المال بما يعرض لهم من الترف فى

الأحوال ، فتكثر نفقاتهم ويعظم الخرج ولا يفى به الدخل على القوانين المعتادة ، فيستحثون ألقابا ووجوها يوسعون بها الجباية ٠٠٠" ٠

ومن مظاهر شيخوخة النظام أيضا أن تتسع الهوة بينه وبين جماهير الناس تدريجيا ، فيكثر " الحُجّاب " ، وهو ما نراه فى أيامنا من تكاثر القوى الأمنية وتعددها ، فتصير شرائح ومستويات وطبقات ، فيصبح طريق الناس إلى المسئول الكبير وكأنه طريق طويل تمتد عليه الحواجز والمتاريس ، حتى يصبح تخطيها أملا بعيد المنال ، بل ويصبح من يحاول ذلك شريرا لابد أن يكون متربصا ينوى الأذى ، ومن ثم يصبح من المفضل اصطياده فى خطواته الأولى حتى ولو كان ذلك بغير سؤال أو تحقيق ، بالضرب فى المليان ٠

وأضف إلى ذلك : مراكز ومكاتب وإدارات وهيئات تتكاثر كالسرطان من حول المسئول الكبير تدير الأمور التى تتضخم بالتدريج ، فتصبح هى الأخرى وكأنها " جُزُر " عازلة كما يفعلون فى بعض المؤسسات التى تحتاج إلى " عزل " كل المؤثرات الخارجية عمن بالداخل ، ليظل عائشا فى " ملكوت آخر لا صلة بينه وبين الواقع ٠

ثم تبرز طائفة أخرى من مماليك هذا الزمان ممن يلبسون زى " المثقفين " ، فالمثقف عادة هو " صوت الناس " إلى أصحاب السلطة ، وهم أيضا صوت القيم والمثل والعلم والمعرفة إلى جماهير الناس ، فيكون مماليك هذا الزمان ، على العكس من ذلك ، صوت السلطان إلى الناس ، ولا يكونون أبدا صوت الناس إلى السلطان ٠

ثم هم – بقصد أو غير قصد – يصورون بذلك للسلطان أنهم يمثلون الناس ، فيصدق ما يقولون ، والذى لا يخرج عن إعادة إخراج ما يريده السلطان نفسه ، وما يدافع عن مصالحه وأمنه وموقعه وسمعته ، والمداراة على ما يفعل ٠

ومعذرة عن التطويل هذه المرة فى الاقتباس عن ابن خلدون ، حيث يعقد فصلا بعنوان (فصل الحُجّاب كيف يقع فى الدول وأنه يعظم عند الهرم) :

" ٠٠٠فإذا رسخ عزه (السلطان) وصار إلى الانفراد بالمجد واحتاج إلى الانفراد بنفسه عن الناس للحديث مع أوليائه فى خواص شئونه ، لما يكثر حينئذ من بحاشيته فيطلب الانفراد عن العامة ما استطاع ، ويتخذ الإذن ببابه على من لا يأمنه من أوليائه وأهل دولته ، ويتخذ حاجبا عن الناس يقيمه ببابه لهذه الوظيفة ٠

ثم إذا استفحل الملك وجاءت مذاهبه ومنازعه استحالت خلق صاحب الدولة إلى خلق الملك وهى خلق غريبة مخصوصة ، يحتاج مباشرها إلى مداراتها ومعاملتها بما يجب لها ، وربما جهل تلك الخلق منهم (أى الملوك) بعض من يباشرهم فوقع فيما لا يرضيهم ، فسخطوه وصاروا إلى حالة الإنتقام منه ، فانفرد بمعرفة هذه الآداب الخواص من أوليائهم ، وحجبوا غير أولئك الخاصة عن لقائهم فى كل وقت ، حفظا على أنفسهم من معاينة ما يُسخطهم ، وعلى الناس من التعرض لعقابهم ٠

فصار لهم حُجّاب آخر أخص من الحجاب الأول ، يفضى إليهم منه خواصهم من الأولياء ، ويحجب دونه من سواهم من الخاصة والعامة ، بينما كانت الحجاب الأول يفضى إليهم منه الخاصة دونه من سواهم من العامة " ، هذا هو نص كلام ابن خلدون ٠

طبقة من وراء طبقة ، تتكون حول الحاكم ، كلما مرت السنون والأعوام ، فإذا بالحوائط العازلة تتكاثر ، وإذا بالتغذى على صوت جماهير الناس يختفى ، كما حجب النور والهواء عن الكائن الحى ، أو كما المعتقل أو المسجون ، مع اختلاف : فهذا المسجون يرسف فى الأصفاد والسلاسل ، وذاك المسجون يرفل فى نعيم وترف ، لكن كلاهما يشتركان فى أمر واحد ٠٠٠الانقطاع عن الدنيا والعالم المغاير لما يعيشون والمباين لما يتصورون ، لكن هناك فارقا كبيرا

فالمسجون الثانى يترتب على غياب وعيه كوارث لا لفرد أو أكثر ، وإنما لأمة بأكملها !!

وأهم هذا الذى يتصور أن التاريخ مجرد " حكايات " عما مضى ٠٠٠إنــــه تعرية لما نرى ٠٠ووجه التعرية أن المسألة مسألة " سنن " وقوانين اجتماعية ، تحكم المسار وتتبئ بالمآل ، فهل لهم أن يعتبروا بسنن التاريخ ؟!

للمؤلف

١. الفلسفة ، للصف الثالث الثانوى ، وزارة التربية والتعليم ، القاهرة ، ١٩٦٨
٢. المجتمع المصرى فى عهد الاحتلال البريطانى ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٢
٣. دراسات فى التربية والفلسفة ، عالم الكتب ، القاهرة ،١٩٧٢
٤. تدريس المواد الفلسفية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٢
٥. التربية اليهودية الصهيونية ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٤
٦. قضايا التعليم فى عهد الاحتلال ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٤
٧. الأزهر على مسرح السياسة المصرية ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، وصدر فى طبعة أخرى فى سلسلة كتاب الهلال ، دار الهلال ، ١٩٨٦ بعنوان : (دور الأزهر فى السياسة المصرية ، مع بعض التعديلات .
٨. أصول التربية الإسلامية ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، وأعيد طبعه ، مع بعض التغييرات ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٩٣
٩. التصور النبوى للشخصية السوية ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٩
١٠. أوضاع المربين العرب ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٩
١١. التعليم الثانوى ، الواقع والمستقبل ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٩
١٢. نشأة التربية الإسلامية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٩
١٣. دراسات عن التعليم فى المملكة العربية السعودية (بالاشتراك) ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٨٠

١٤. دراسات فى اجتماعيات التربية ، (بالاشتراك) ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، وكان قد صدر (بالاشتراك مع آخرين) بعنوان : التربية ومشكلات المجتمع عام ١٩٧٣ ، الأنجلو
١٥. دراسات فى فلسفة التربية (بالاشتراك) ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨١
١٦. المدخل إلى العلوم التربوية (بالاشتراك) ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨١
١٧. ديموقراطية التربية الإسلامية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨٢ (صدرت الطبعة الأولى عام ١٩٧٤ ، عن دار نشر الثقافة ، بالقاهرة) .
١٨. دراسات فى التربية الإسلامية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨٢
١٩. تجربة ثورة يوليو ١٩٥٢ (بالاشتراك) ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٨٣
٢٠. الأصول السياسية للتربية (بالاشتراك) ، منشأة المعارف بالإسكندرية ، ١٩٨٣ ، ثم صدرت طبعة منفردة مع تغييرات جذرية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٧
٢١. النبات والفلاحة والرى عند العرب ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٨٣ ، ثم صدرت طبعة ثانية ، مزيدة ومنقحة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٦
٢٢. تطور إعداد معلم المرحلة الأولى فى مصر (بالاشتراك) ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٨٣
٢٣. محنة التعليم فى مصر ، حزب التجمع ، سلسلة كتاب الأهالى ، القاهرة ، ١٩٨٤
٢٤. معاهد التربية الإسلامية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٨٥ ، وكانت قد صدرت منه طبعة مختصرة عام ١٩٧٨ ، عن دار نشر الثقافة بالقاهرة

٢٥. إنهم يخربون التعليم ، حزب التجمع ، سلسلة كتاب الأهالى ، القاهرة ، ١٩٨٦
٢٦. الفكر التربوى العربى الحديث ، المجلس الوطنى للثقافة والعلوم والفنون ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة ، ١٩٨٧ ، ثم صدرت طبعة ثانية ، مزيدة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٦
٢٧. بحوث فى التربية الإسلامية ، مركز تنمية الموارد البشرية ، القاهرة ، ١٩٨٧
٢٨. تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سلسلة تاريخ المصريين ، القاهرة ، ١٩٨٩
٢٩. الأمن التربوى العربى ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨٩
٣٠. هموم التعليم المصرى ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨٩
٣١. هوامش فى السياسة المصرية ، الثقافة الجديدة ، القاهرة ، ١٩٩٠
٣٢. اتجاهات الفكر التربوى الإسلامى ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٩١
٣٣. تعميم التعليم الابتدائى فى الوطن العربى (تحرير) ، مكتب اليونسكو الإقليمى للتربية فى البلاد العربية ، عمان ، ١٩٩١
٣٤. محو الأمية وتعليم الكبار فى الوطن العربى (تحرير) ، مكتب اليونسكو الإقليمى للتربية فى البلاد العربية ، عمان ، ١٩٩١
٣٥. الأصول الإسلامية للتربية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٩٢
٣٦. دراسات فلسفية (بالاشتراك) ، للصف الثالث الثانوى (المستوى الرفيع) / وزارة التربية والتعليم ، القاهرة ، ١٩٩٢
٣٧. نظرات فى الفكر التربوى ، دار سعاد الصباح ، القاهرة ، ١٩٩٢
٣٨. رؤية إسلامية لقضايا تربوية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٩٣
٣٩. التربية والحضارة فى بلاد الشرق القديم ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٤ ، وصدرت طبعة أخرى موسعة ، الناشر نفسه ، ١٩٩٩

٤٠. مقدمة فى التأريخ للتربية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٥ ، ثـم أعيـد طبعه موسعا عام ١٩٩٩ ، الناشر نفسه
٤١. التربية فى الحضارة اليونانية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٥
٤٢. سقوط تربية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٥
٤٣. فلسفات تربوية معاصرة ، المجلس الوطنى للثقافة والعلـوم والفنـون ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة ، ١٩٩٥
٤٤. التربية علم له أصول ، دار أخبار اليوم ، سلسلة كتاب اليوم الطبـى ، القاهرة ، ١٩٩٥
٤٥. التعليم فى مصر ، دار الهلال ، سلسلة كتاب الهلال ، نوفمبر ١٩٩٥
٤٦. التربية فى الحضارة المصرية القديمة ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٦
٤٧. سياسة التعليم فى مصر ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٦
٤٨. التربية العربية فى العصر الجاهلى ، عالم الكتب ، القـاهرة ، ١٩٩٦ ، كانت الطبعة الأولى منه بعنوان (تمهيد لتاريخ التربية الإسلامية) ، الناشر نفسه ، ١٩٧٩
٤٩. التعليم والخصخصة ، كتاب الأهرام الاقتصادى ، الأهرام ، القـاهرة ، ١٩٩٦
٥٠. – التربية عند بنى إسرائيل ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٧
٥١. التربية التحليلية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٧
٥٢. البناء القيمى فى مجتمع الكويت (تحرير) ، الديوان الأميرى ، مكتـب الإنماء الاجتماعى ، الكويت ، ١٩٩٧
٥٣. التعليم على أبواب القرن الحادى والعشرين ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٨
٥٤. التربية (بالاشتراك) لمعلمى التعليم الفنى ، وزارة التربية والتعليـم ، القاهرة ، ١٩٩٨

٥٥. عرب فى قاع الزمن عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٩
٥٦. شجون جامعية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٩
٥٧. رؤية سياسية للتعليم ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٩
٥٨. نظرات فى التربية الإسلامية ، مكتبة وهبه ، القاهرة ، ١٩٩٩
٥٩. دفتر أحوال التعليم ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٩
٦٠. مستقبل التعليم قبل الجامعى فى مصر ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ، الأهرام ، سلسلة كراسات استراتيجية (٨٣) ، القاهرة ، ١٩٩٩
٦١. الأصول الفلسفية للتربية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ٢٠٠٠
٦٢. القرآن الكريم ، رؤية تربوية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ٢٠٠٠
٦٣. فقه التربية ٢٠٠٠، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ٢٠٠١
٦٤. السنة النبوية ، رؤية تربوية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ٢٠٠٢
٦٥. تراث طه حسين فى التعليم (دراسة وتحرير) ، دار الكتب ، القاهرة ، ٢٠٠٢
٦٦. نشأة الفكر التربوى وتطوره ، عالم الكتب ، القاهرة ، ٢٠٠٢
٦٧. ثقافة البعد الواحد ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٣
٦٨. التعليم والتنشئة السياسية ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٣
٦٩. مماليك هذا الزمان ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٣
٧٠. تجريف العقول ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٤
٧١. التربية الإسلامية (بالاشتراك) ، الرياض ، مكتبة الر شد ، ٢٠٠٤
٧٢. التعليم فى ظلال ثورة يوليو ١٩٥٢ ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٥
٧٣. التعليم والهوية ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٥
٧٤. الخطاب التربوى الإسلامى ، الدوحة كتاب الأمة (١٠٠) ، ٢٠٠٥
٧٥. تجديد العقل التربوى ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٥

٧٦. العدل التربوى وتعليم الكبار ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٥
٧٧. تعليمنا بين الأمس والغد ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٥
٧٨. الحركة الفكرية فى التربية الحديثة (ج. نيللر)، مترجم ، بالاشـــتراك ، الرياض ، مكتبة الرشد ، ٢٠٠٥
٧٩. أصول التربية الإسلامية ، القاهرة ، المعهد العالمى للفكـــر الإســـلام ، ودار السلام ، ٢٠٠٥
٨٠. هاؤم اقرءوا كتابيه (قصة حياة أستاذ جامعى) ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٦
٨١. أصول التربية العامة ، عَمان ، دار المسيرة ، ٢٠٠٦
٨٢. أصول التربية الإسلامية ، عَمان ، دار المسيرة ، ٢٠٠٦
٨٣. التربية الوالدية ، رؤية إسلامية ، المجلس الأعلى للشؤون الإســـلامية ، ٢٠٠٦
٨٤. التطور الحضارى للتربية ، الرياض ، مكتبة الرشد ، ٢٠٠٦
٨٥. التربية الإسلامية وتحديات المـــستقبل ، القـــاهرة ، دار الـــسلام ، ٢٠٠٦
٨٦. النزعة العقلية فى الفكر التربوى الإسلامى ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٦
٨٧. نحو استراتيجية لتطوير التعليم الجامعى ، القاهرة ، الأهرام ، كتاب الأهرام الاقتصادى ، ٢٠٠٧
٨٨. عسكرة التعليم ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٧
٨٩. ثقافة الإصلاح التربوى ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٧
٩٠. التخطيط للكتب المدرسية (دوجلاس بيرس) ترجمة بالاشتراك مع محمد الألفى ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٧

٩١. اجتماعية المعرفة في الفكر التربوى الإسلامى ، القـاهرة ، عـالم الكتب ، ٢٠٠٧
٩٢. اختراق العقل الإسلامى ، الاقهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٧
٩٣. الحوار ، ثقافة ومنهجا ، القاهرة ، دار السلام ، ٢٠٠٧
٩٤. التربية السياسية للأطفال ، القاهرة ، دار السلام ، ٢٠٠٧
٩٥. كيف نربى أبناءنا ؟ القاهرة ، دار أخبار اليوم ، سلسلة كتاب اليـوم الطبى ، ديسمبر ٢٠٠٧
٩٦. التربية الإسلامية والنهوض بالأمة ، القاهرة ، دار الفكر العربـى ، ٢٠٠٨
٩٧. الإسلام والغرب ، تعايش أم صراع ؟ القاهرة ، دار الفكر العربى ، ٢٠٠٨
٩٨. الفساد فى التعليم ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٨
٩٩. واتعليماه ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٨
١٠٠. جامعات تحت الحصار ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٨

الفهرس

مقدمة / ٣

١- ثقافة الشارع / ٦

٢- العوَر الفكرى / ٦٨

٣- إدارة المقهورين / ٧٣

٤- في ظلال القهر تزدهر الفردية / ٧٨

٥- خدعوها فقالوا بتحريرها / ٨٤

٦- صناعة القهر / ٩٠

٧- هل تتحول المرأة إلى حصان طروادة للغزاة الجدد ؟ / ٩٦

٨- خرافة الدولة الدينية / ١٠٢

٩- استقطاب ثقافى / ١٠٩

١٠- فتنة العصر / ١١٨

١١- سوفسطائيو هذا الزمان / ١٢٣

١٢- ثقافة التيه / ١٢٧

١٣- استقطاب / ١٣١

١٤- من الذى يهين المرأة ؟ / ١٣٩

١٥- اللعب بالإسلام / ١٤٣

١٦- أول خطوة لاغتيال حرية الصحافة / ١٥٢

١٧- رمضان التلفزيونى غير الكريم / ١٥٤

١٨- سب الإسلام والمسلمين ، تنل الجائزة الكبرى / ١٥٩

١٩- ليس حبا في زيد / ١٦٣

٢٠- أخلاق الشعوب من الحالة المرورية / ١٦٧

٢١- خبراء القوة الضائعة / ١٧٣

٢٢- أمركة الإسلام / ١٧٨
٢٣- غباء تلفزيونى / ١٨١
٢٤- فصام مجتمعى خطير / ١٨٦
٢٥- شبهات حول وحدة المعرفة لمحمد كامل حسين / ١٩٠
٢٦- معركة بين العقاد وأمين الخولى / ١٩٨
٢٧- ..فاستخف قومه فأطاعوه / ٢٠٤
٢٨- عذاب الرواد وآلام المبدعين / ٢١٥
٢٩- الدماء السوداء / ٢٢١
٣٠- ..وأصبح التمصير من أساطير الأولين / ٢٢٦
٣١- الولايات العربية الأمريكية / ٢٣١
٣٢- خريف العبط / ٢٣٧
٣٣- أزهى عصور الديمقراطية / ٢٤٢
٣٤- فاشية بوش وأصولية الإسلام / ٢٦٢
٣٥- الحق والرجال / ٢٦٧
٣٦- أشتات مجتمعات / ٢٧٢
٣٧- هل تحترق مصر ؟ / ٢٧٧
٣٨- شروخ في جدار الوطن / ٢٨٣
٣٩- النظام عندما يشيخ / ٢٨٩
للمؤلف / ٢٩٥